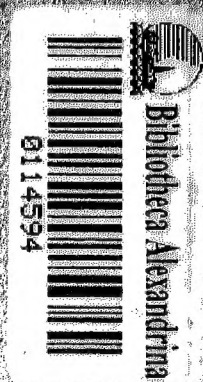


مذكرات جراهام جرين

تجربتي في كتابة الرواية



ترجمة أحمد عمر شاهين



828

أخبار السبع

مذكرات جراهام جرين

تجربتي في كتابة الرواية

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية
رقم التصنيف ٤٢٣.٣٢
٤٠٦٦٧

ترجمة : أحمد عمر شاهين



إدارة الكتب والمكتبات

علاف بريشة : أسامة أحمد نجيب

اخراج ملكيت : اشرف حسين

رقم الايداع ١٩٩١/٩٦٥٦

الترقيم الدولي 5 - 0354 - 08 - 977 I.S.B.N



مقدمة

حين كتبت نبذات عن حياتي في كتاب « نوع من الحياة » ، وقفت عند سن السابعة والعشرين تقريبا . شعرت آنذاك أن السنوات التالية تخص الآخرين أكثر مما تخصني ، ولم أستطع أن أنتهك حرمتهم ، فلم الحق في الاحتفاظ بخصوصيتهم ، وكان من المستحيل أن أتحدث عن حياتي الخاصة دون أن أتحدث عن حياتهم .

على كل حال ، لقد تذوقت حلاوة التذكر ، وهي حلاوة مُرة في معظمها . وبدأت سلسلة من المقدمات لأعمالي الكاملة ، أتحدث فيها حول ظروف كتابة تلك الأعمال وتكونها في ذهني ، وحين أسردها هنا فهي تشكل في النهاية أيضا نوعا من الحياة . أضفت اليها مقالات كنت كتبتها في مناسبات مختلفة عن لمحات من حياتي ، وعن بعض الأماكن المضطربة في العالم ، والتي وجدت نفسي في داخلها بلا مبرر قوي ، وهكذا فاني أرى الآن أن رحلاتي ككتاباتي كانت طرقا للهروب . وكما كتبت في مكان آخر في هذا الكتاب ، فاني أعتبر الكتابة شكلا من العلاج النفسي ، وأتساءل أحيانا كيف يمكن لأولئك الذين لا يبدعون - أدبا أو رسما أو موسيقى - أن يهربوا من الجنون والكتابة ، والذعر المتأصل والملازم للوضع الانساني . وقد كتب الشاعر الانجليزي أودن يقول « الإنسان يحتاج إلى الهروب إحتياجه إلى الطعام والنوم العميق » .

وعلى عكس ما يفترض البعض ، من أن الأماكن التي زرتها كانت مصادر لرواياتي ، فنادرا ما حدث ذلك ، فلم أكن أبحت عن مصادر ، ولكنها الظروف التي رمتني هناك ، وربما غريزة الكاتب هي التي دفعتني لشراء تذاكر السفر لأماكن مختلفة . لقد كتبت ما كتبت عن « هايتي » قبل أن أفكر في رواية « الممثلون الهزليون » ، وعن « باراجواي » ، التي ستشكل فصلا في كتابي « رحلات مع عمتي » . ومع ذلك فإن حالة الطوارئ في « الملايو » لم تقدني لكتابة أية رواية وكذلك الحال في ثورة الماو الماو في كينيا .. ولم تلهمني عملية ترحيلي من بورتوريكو على يد السلطات الأمريكية ، أو وجودي في براغ حين سيطر الشيوعيون على السلطة سنة ٤٨ حتى ولا قصة قصيرة .

ولم تحرك زيارتي لبولندا وهي تحت الحكم الستاليني في الخمسينيات ، خيالي الروائي ، وهكذا .. رحلات عديدة .

لقد احتلت السياسة منذ سنة ١٩٣٣ مكانا متزايدا في رواياتي ، ومن المحتمل أن تجربة الماو الماو هيأتني لمواجهة الأمور الأكثر سوءا ، وتوقعي الخطر في الكماثن في الملايو أعطى بعدا إضافيا لمشاعر الخوف التي واجهتها أحيانا في فيتنام .

عن تجربتي في الحرب الفرنسية في فيتنام ، لم أضف إلا القليل من كتاباتي هنا ، فالحرب الأمريكية هناك جعلتها تبدو وكأنها حدثت منذ قرن من الزمان ، ولم يعد أحد يهتم بتلك الحرب أو شخصياتها المختفية .

ثم أن تلك الجوانب من حياتي التي يؤثرها كتاب الأعمدة بقيت خارج مجال هذا الكتاب ، أما عن حيوات الآخرين فاني أمل أن أستمّر في التقيد بما إلترمت به .



ياله من طريق طويل ، نصف قرن قد مر منذ كتابتي رواية « الرجل الذي بداخلي » . أول رواية أجد لها ناشرا . كنت في الثانية والعشرين حين بدأتها ، وكنت في اجازة من جريدة التايمز التي أعمل بها ، بعد عملية جراحية للزائدة الدودية أجلس في غرفة الاستقبال في بيت الأسرة في « بيركها مستيد » ، إلى أحد تلك المكاتب الصغيرة ذات العيون لتصنيف الأوراق ، والأدراج الضيقة ، والتي أعتقد أنها أكثر مناسبة للنساء ، كان سطحه يتسع بالكاد لورقة فولسكاب مسطرة . كنا قد إنتهينا من طعام الإفطار ، ووالدتي مشغولة بمناقشة شؤون منزلية مع خادمة غرفة الاستقبال ، ياله من وقع تحدثه تلك التعبيرات المنزلية لدرجات الخدم الآن . خادمة المطبخ ، خادمة غرفة الخزين ، مربية الأطفال .

أرى نفسى الآن . كشخصية تاريخية ، أكتب الكلمات الأولى فى رواية تاريخية أخرى ، وإذا كنت أبعد عن شخصية تلك الرواية بخمسين سنة ، فقد كانت تلك الشخصية تبعد عن زمانها بضعف هذه المدة ، فقد كانت أحداثها تدور حول المهريين فى الحقب الأولى من القرن التاسع عشر .

لماذا يلتصق بذهنى السطر الافتتاحى من تلك الرواية ، بينما نسيت افتتاحيات رواياتى التى كتبتها بعد ذلك ؟ إنه ليس سطرًا متميزًا ، وله طابع الشعر لا النثر ، فكرت أن أغیره ، لكنى وجدت ذلك خيانة لشبابى : « وصل قمة التل مع آخر ضوء فى النهار وكاد يبكى حزنا لمرأى الغابة أسفله » . ويمكننى أن أسمع أمى آنذاك تقول للخدمة « إذا أخذت مس نورا أفضل غرفة خالية فعلينا أن نضع السيد ... »

ربما سبب تذكرى للمشهد بهذا الوضوح ، يرجع الى أنه كان الرمية الأخيرة للورد فى لعبة خسرتها فعلا ، فقد رفض الناشرون الذين حاولت معهم . روايتين لى ، وكنت مصمما إذا فشل هذا الكتاب أيضا ، أن أتخلى نهائيا عن الظلموح السخيف فى أن أصبح روائيا ، وأركن الى الحياة الوادعة المنتظمة كمحرر مساعد فى الغرفة الثانية لجريدة التايمز ، وفى خلال عام ستنتهى فترة الاختبار ، وسيرتفع مرتبى الى تسعة جنيهات فى الاسبوع ، ويمكننى أن أتزوج ، وظيفة ثابتة كالوظائف الحكومية ، فلم يسبق أن فصل أحد من عمله فى التايمز ، وسيكون لى فى النهاية معاش وجائزة هى ساعة حائط منقوش عليها إسمى .

وما حدث ، أنى لم أنتظر طويلا للحصول على الساعة ، فبعد سنة من زواجى كنت أمتلكها ، ولفترة طويلة بعد تركى العمل فى التايمز ، كان ينتابنى إحساس بالذنب أمام ذلك الوجه الجامد للساعة وهو يذكرنى بالساعة المعلقة على المدخل الرئيسى فى شارع كوين فيكتوريا ، والتى كانت تبدو وكأنها تشير دائما إلى اقتراب الرابعة بعد الظهر حيث ينبغى أن أكون فى طريقى للانضمام إلى زملائى فى الغرفة رقم ٢ .

ترددت عدة أيام قبل كتابة تلك الجملة الافتتاحية ، كان عهدا أخذته على نفسى ، ألم أبأشر العمل مرتين من قبل ولعدة شهور ، حتى بدا لى أنه لن ينتهى ؟ أليس من الأسهل أن أكيف نفسى وأتخلى عن كل فكرة للهروب ؟ لماذا الهروب ؟ ومم أهرب ؟ ألم أكن سعيدا فى التايمز !

أنهيت روايتى الأولى - الفاشلة - وأنا مازلت طالبا فى إكسفورد ، بعد عمل طائش قمت به وهو نشر ديوان من الشعر ، إنه الآن غالى الثمن لهواة جمع الكتب .

كان موضوعها ، كغيرها من الروايات الأولى ، الطفولة والتعاسة . يصف الفصل الأول مولد البطل فى منزل ريفى قديم ، بدا لى آنذاك كقطعة أدبية مؤثرة ، وصف على غرار ايقاع العصر اليعقوبى لنثر والتر دى لامير أكثر من أن يكون تعبيرا عن تجربة شخصية . حكيت قصة صبى أسود ولد لأبوين من البيض كوارث الجينات من أجداد قدماء ، وكان ذلك تطبيقا خاطئا لنظرية مندل .

ثم تحدثت عن طفولته المقيدة وحياته المنعزلة ، بسبب اللون ، فى المدرسة ، وتبدو لى النهاية الآن غير متقنة ومتقائلة بشكل غريب يختلف عن مزاجى ، فقد جعلت الشاب يجد نوعا من الرضا بالتحاقه بسفينة كنوتى ، وبهذا يهرب من طبقته المتوسطة ، ومن إحساسه كمنبوذ ، الهروب ثانية .

شجعنى أ. د. بيترز ، وهو وكيل أدبى جديد فى المهنة أن أصدق أن الكتاب سيجد ناشرا ، ومرت الشهور ، وتغيرت نغمة خطاباته من الحماس إلى البرود ، وأخيرا مات الأمل فى نشرها ، لكنى آنذاك كنت أكتب رواية ثانية .

كنت أقرأ وقتها كتاب كارليل « حياة جون ستيرلنج » ، العمل الوحيد لذلك الكاتب الاسكتلندى المزعج ، الذى إستمتعت به ، وقدم لى كتاب كارليل إطار رواياتى الجديدة ، ميدان ليسستر فى لندن الفيكتورية ، وتتبع لاجئ أسباني من حروب شارل ، شاب إنجليزى آخر يتشوق للهروب من طبقته ، كالولد الاسود فى الرواية السابقة ، ويتورط فى مؤامرات ضد الحكومة الأسبانية .

لقد أوحى والتر دى لامير (المتأثر بهنرى جيمس) لجوزيف كونراد بإطار روايته « السهم الذهبى » حين كان يكتب تحت التأثير نفسه ، الثورة وخلفية أسبانية ، لقد حددت - وأنا بعد تلميذ - قدر ويلفورد ايوارت فى تلك الرواية والذى أصيب بطلقة طائشة أثناء انتفاضة بانشوفيل فى المكسيك ، وبدأت لى تلك النهاية رائعة فى بلد رائع . ولقد خفت حدة إعجابى بأمريكا الأسبانية والموت العنيف حين شاهدت بنفسى

بعد سنوات حاملي المسدسات هناك ، والذين وصفتهم في كتابي « طرق لا قانونية » .

لا أذكر الآن القدر الذي أحاط ببطل ، الذي قسّم وقته بين بيت والديه وحانات اللاجئين سيئة السمعة في سوهو ، كل ما أذكره ان هناك قصة حب استوتحت بدرجة كبيرة تلك المرأة غير المحتملة التي ابتدعها كونراد « دونا ريتا » . ولا أعتقد أن البطل ذهب إلى أسبانيا أو وصل أبعد من ميدان ليسستر ، فقد كنت منتبها جدا إلى وحدة المكان ووجهة النظر بعد دراستي لكتاب بيرسي لوبيوك « صنعة الرواية » . أسميت الرواية إسما كئيبا « حادثة عارضة » ، وقد كانت فعلا حادثة عارضة . لم تجد ناشرا قط ، ورفض بيترز ، الوكيل الأدبي ، حتى أن يتصفحها ، وكم شكرته على عمله هذا بعد ذلك .

قبل عودتي إلى بيت الأسرة للنقاهة بعد العملية ، وأنا مستلق في عنبر عام في المستشفى ، عبرت في الزمن إلى الوراء ، أيام لاجئى حروب الملك شارل إلى أيام المهريين في سسكس . ولوسالت نفسي لماذا هذا الرجوع إلى الوراء لما عرفت الاجابة ، ربما لأنى أدرك بنصف وعى أنى أعرف القليل عن العالم المعاصر لاتعامل معه ، وأن الماضي أكثر وضوحا لأنه موجود في الكتب ، كتاريخ المهريين الذى قرأت عنه وأنا في سرير المرض . ونجحت رواية « الرجل الذى بداخل » - وهى الرواية الثالثة التى كتبتها - نجاحا مؤقتا ، كالذى يحدث أحيانا للروايات الأولى بمساعدة المراجعين المحبين للمؤلف .

بعد عشرين سنة ، قام سدنى بوكس بتحويلها الى فيلم ملون ، لم أكن قد بعث له حقوق تحويلها إلى فيلم ، لقد بعث تلك الحقوق ، بمبلغ مقطوع ، لمخرج أفلام تسجيلية عملت معه مرة في كتابة فيلم دعائى عن شركة خطوط جوية . أخبرنى أنه من الممكن بروايتى أن أتيح له فرصة إخراج أول فيلم روائى له . لكنه باع حقوق إخراج الرواية الى سدنى بوكس محققا من وراء ذلك ربحا كبيرا ، وقام بوكس بإخراج الفيلم بسيناريو غريب عن الرواية ، أظهر فيه التعذيب بالأداة التى توسم بها الحيوانات كجزء من نظام القرن التاسع عشر القانونى . وكان الفيلم ، بعكس الكتاب ، لا يعانى من حماقة الشباب أو السذاجة ، وقد تلقيت رسالة من شخص تركى في استامبول يمدح الفيلم لجراته في تناول

موضوع اللواط ، ويسألنى هل كرسيت روايات أخرى لهذا الموضوع
الطريف ؟!

بعد هذه التجربة ، بدأت أضيف فى عقود بيع حقوق تحويل رواياتى
إلى أفلام ، فقرة تنص على منع بيع هذه الحقوق ثانية الى مستر بوكس .
ولقد تأذيت بطريقة ما من هذه الخيانة للنص الأول الذى كتبتة أكثر
من ضيقى بالخيانة الأخيرة من جوزيف مالنجيفتز الذى أخرج فيلما عن
روايتى (الأمريكى الهادى) ، فقد كنت على اقتناع بأن الرواية الأخيرة
ستبقى الفيلم حيا ، بينما فيلم الرجل الذى بداخلى مأخوذ عن أصل
ضعيف . ولو كنت مستشارا لناشر ، كما أصبحت بعد عدة سنوات ،
لرفضت نشر هذه الرواية دون تردد ، ومع ذلك هناك لغز مازال يحيرنى ،
كيف يمكن لكاتب كالدوس هكسلى أن يكتب عنها بتعاطف شديد فى
خطاب له إلى أحد أصدقائه ويفضلها على رواية فرجينيا وولف الأخيرة ؟
ثم لماذا تسبب فى صداقتى مع شخصيتين لا يمكن نسيانهما هما السيدة
موريل ومسر لوندنيز . ولماذا اختارها جاك مارتين لينشرها فى فرنسا فى
سلسلة تضم أعمال جوليان جرين ؟ لقد وافقت جاك مارتين على حذف
عدة أسطر من مشهد جنسى ، وقد بدا لى اقتراح الرقيب الفرنسى بشطب
أسطر من روايتى أنذاك كأنه وسام على صدرى .

وهناك سبب آخر يجعلنى أذكر « الرجل الذى بداخلى » ، فكتابة رواية
تشبه وضع رسالة فى زجاجة والقائها فى البحر ، وقد تقع فى أيدي
أصدقاء أو أعداء غير متوقعين . ان مترجمتى الفرنسية ، دنيس
كليروين . أصبحت صديقة لى ووكيلا أدبيا . وكنا نتجول فى باريس
باحثين عن المتاعب ، ولكن حين جاءت المشكلة الكبرى وسقطت فرنسا فى
الحرب الثانية ، أصبح الاتصال بيننا مستحيلا ، ولم أعرف إلا بعد
إنتهاء الحرب إنها عملت فى فرنسا المحتلة مع المخابرات البريطانية ،
ففى سنة ١٩٤٢ فى فريتاون حيث كنت أعمل مع المخابرات نفسها ،
تسلمت أخبارا من لندن أن هناك جاسوسا مشتبهها فيه ، رجل أعمال
سويسرى ، يسافر على سفينة برتغالية الى ليزبون . وبينما كان ينتظر فى
طابور لتدقيق جوازات السفر ، جلست فى غرفتى الخاصة ، أطبع بسرعة
وبأصبع واحد ، الأسماء والعناوين الموجودة فى مفكرته والتى تركها
بإهمال فى قمرته ، وفجأة وسط كل تلك الأسماء التى لا تعنى شيئا

بالنسبة لى قرأت اسم وعنوان دنيس ، منذ تلك اللحظة خفت على سلامتها ، ولم اعرف إلا بعد إنتهاء الحرب انها ماتت بعد أن عذبت فى معسكر اعتقال المانى .
مكتب أمى ، قصة عاطفية لشاب ، غرفة بسطح من الصفيح فى فريتاون ، معسكر إعتقال المانى .
مراحل على طريق طويل .

٢

رواييتى الثانية « اسم العمل » التى نشرت سنة ١٩٣٠ ، ورواييتى الثالثة « إشاعة عند هبوط الليل » سنة ١٩٣١ ، يمكن للمرء أن يجدهما فقط فى مكتبات بيع الكتب القديمة ، وبسعر مرتفع ، فقد أوقفت إعادة طباعتها . وهما من الرداءة بحيث أنهما تحت مستوى النقد أو حتى مجرد استشارة أى ناقد .
السرد فيهما مسطح ومتكلف ، وفى حالة رواية « إشاعة عند هبوط الليل » فهناك إدعاء ولغة طنانة (للأسف كنت وقتها أعيد قراءة وأعجب بأسوأ رواية لكونراد السهم الذهبى) ، ويمكن القول أنه لا يوجد فيها خلق للشخصيات الروائية .

الشخصيات الرئيسية فى رواية ما . لابد بالضرورة أن يكون لها صلة بالمؤلف ، فهى تخرج منه كما يخرج الطفل من الرحم ، ثم يقطع الحبل السرى وتترك الشخصيات لتنمو مستقلة ، وكلما عرف المؤلف نفسه أكثر ، إستطاع أن يبعد نفسه عن شخصياته المبتكرة وأن يتيح لها مساحة أكبر لتنمو خلالها . بهذه الروايات المبكرة لم يكن الحبل السرى قد قطع بعد ، والمؤلف فى سن السادسة والعشرين كان زائفا بالنسبة لنفسه ، رغم التحليل النفسى الذى تعرض له وهو فى سن السادسة عشرة ، كزيف شخصية أوليفر شانت بطل رواية « اسم العمل » بالنسبة للقارئ . شانت كان حلم يقظة فى ذهن المؤلف الرومانسى الشاب ، وقد مرت سنوات من الحضانة والشعور بالاثم ونقد الذات والتبرير لها

ليستطيع أن يزيح عن الأعين تشوش الآمال والأحلام والطموحات الزائفة . كنت أحاول كتابة أول رواية سياسية دون أن أعرف شيئا عن السياسة ، وأمل أنى قمت بذلك بطريقة أفضل عند كتابتى « الأمريكى الهادىء » بعد سنوات ، وكم هو قليل ذلك الذى تعلمته خلال ثلاث سنوات عن الحياة والسياسة فى غرفة مساعد التحرير فى جريدة التايمز .

حتى اطار الرواية العام فى « اسم العمل » كان خياليا . تخيلت ديكتاتورا أسس دولة فى « تريير » وهى بلدة فى ألمانيا زرتها بعد أن تخلت قوات الاحتلال الفرنسى عن فكرة تكوين مملكة مستقلة فيها ، يتصل الشاب المثالى الغنى شانت بالمنفيين من تلك الدولة فى لندن (صدى لروايتى حادثة عارضة التى لم تطيع) ، ويذهب الى تريير ليقابل قائد المعارضة وهو شاعر يهودى ، ويقابل زوجة الديكتاتور فى ظروف غير معقولة تماما ، ويقع فى حبها ، ويدعى الى القصر على غير توقع ، ويبدى إعجابا رومانسيا بالديكتاتور ، وينام مع زوجته التى تنقذه من الضجر وإلحاح الشهوة . وتبوح له بالحقيقة وهى أن زوجها عني ، وحين رفضت هجر زوجها ، يبوح شانت لقائد المعارضة بعجز الديكتاتور الجنسى ، وتهرب الأسلحة التى إشتراها شانت بنقوده من إنجلترا على مراكب لنقل البضائع من كوبلنز ، وتقوم الثورة ، والشاعر اليهودى يكتب قصائد ساخرة عن الديكتاتور تغنى فى الشوارع ، وتنتهى الرواية بمغادرة شانت للبلدة فى قطار تحت رعاية المهزومين والجرحى والديكتاتور الغائب عن الوعي . وماذا حدث للزوجة ؟ منذ شهور دفعت نفسى لقراءة الرواية ثانية ، ونسيت قدرها ، وهكذا كانت حياتها غير مهمة .

واعجب الآن كيف قُبل الكتاب للنشر ، حتى أنى تلقيت برقية تهنئة من الناشر شارلز إيفانز صاحب دار هاينمان بعد قراءته للمخطوطة ، ربما كان ساذجا وعاطفيا كالمؤلف ، فقد أخبرنى ذات يوم أنه أستثير جنسيا مرة واحدة عند قراءته لرواية « مدموزيل دى مويان » .

وها هى ذى أمثلة من أسلوبى فى تلك الأيام المبكرة ، وسوء استخدامى المزعج للتشبيه والاستعارة ، حتى أفضل الكتاب من الممكن أن يفسد أسلوبهم ، ولقد أفسدت فعلا بقراءتى الكثيرة للشعراء الميتافيزيقيين .

مثلا كتبت « المسدس يتدلى مثل زهرة جافة على الرصيف » (أرغب أن أعكس التشبيه : زهرة جافة تتدلى كمسدس على الرصيف) ومثلا « وقع الأصوات البعيدة يسقط فوقه مثل بذور الخشخاش تبعث الراحة في الجسد » .

وماهى ذى جملة فخمة تعلمتها من أسوأ ما عند كونراد : « الساعة تتخلل عن حملها من الساعات » وفي رواية تتكون من ٢٤٤ صفحة لا أجد إلا مشهدا واحدا صالحا ، إثنتا عشرة صفحة من الرعب المعقول وذلك حين مرت المركب بحمولتها من البنادق المهرية عبر الجمارك ، وشخصية واحدة صالحة ، الأمريكى الذى يتعامل بالسلاح والذى ظهر خلال ثمانى صفحات ، ولقد وجد له مكانا فى روايتى الأمريكى الهادىء بعد ذلك بربع قرن .

« إشاعة عند هبوط الليل » الرواية الثالثة التى نشرتها ، بدت أفضل من سابقتها وإنتهت بتشاؤم أكثر . كنت لا أعرف شيئا عن أسبانيا حيث تجرى أحداث القصة (فى سن السادسة عشرة قضيت يوما بين فيكو وكورونا) ، وكل ما عرفته عن حرب شارل عرفته من كتاب كارليل حياة جون ستيرلنج ، مرة أخرى هناك مشهد واحد يستطيع المرء إحتمال قراءته ثانية ، وهو فى الفصل الأول حين يتقمص كولونيل عجوز متعب دور قسيس ويتلقى إعراف أحد رجاله الذى جرح فى كمين ، مشهد ربما يعكس اعتراف رجل العصابات الأمريكى فى روايتى « القوة والمجد » بعد ذلك .

وكما فى رواية « الأمريكى الهادىء » كانت الشخصية الرئيسية فى الرواية مراسل صحفى ، ولكنها كانت شخصية غير واقعية كتلك التى فى « الأمريكى الهادىء » .

لقد باعت « إشاعة عند هبوط الليل » ١٢٠٠ نسخة ، بينما باعت « الرجل الذى بداخلى » ٨٠٠٠ نسخة .

وفتح نقد « فرانك سونيرتون » غير المتعاطف ، عينى على نواقص ما اعتقدت أنه الفن الجيد .

وهكذا انفجرت الحقيقة ، الحقيقة المباركة ، فى شكل قلق مالى ، فزوجتى على وشك الانجاب ، وقد تركت العمل فى صحيفة التايمز بعد نجاح « الرجل الذى بداخلى » ، ورفضت التايمز إعادتي إليها وفق المبدأ

الذى تعمل به بعدم إعادة من يتركها .
 ماذا أجد الآن حين أعيد قراءة تلك الرواية ؟
 المؤلف يهتم كثيرا بالأسلوب ، وهو أسلوب ردىء ومتصنع ، بعد
 سنوات قليلة كنت أهاجم شارلز مورجان على الخطيئة نفسها التى وقعت
 فيها وتركتها .

الرواية غامضة ، تلقى بظلال كثيرة دون وضوح ، بعيدة عن التركيز ،
 صورها غير واضحة ، تشبيهات واستعارات مبالغ فيها كرواية اسم
 العمل ، مثلا : « كتلة الورق الصغيرة تنتشر كالشتاء عبر البتلات
 المتناثرة على البساط » ، وهناك الكثير جدا من الصفات ، وشروح كثيرة
 للدوافع ، لا ثقة فى فهم وإدراك القارئ ، وصف مطول وحوار مبهم ،
 مع أن الحوار فى الرواية كما فى المسرحية لابد أن يكون شكلا من الفعل
 والاسراع فى الفعل . هنا فى هذه الرواية الحوار لابد أن يُشرح للقارئ .
 وجدت أن كلمة « فكر » تكررت عشر مرات فى عشر صفحات متوالية .
 ذكرتني بالروائي ستيفنسون فى شبابه حين كان يعلم نفسه الأسلوب
 بالتقليد . وكنت أقد أسلوبا رديئا .

ربما معظم الكتاب يتطرون ، بطل رواية « اسم العمل » كان اسمه
 شانت ، بطلا « إشاعة عند هبوط الليل » شيز وكرين وجميعهم يبدأون
 بحرف « سى » وفشلت الروايتان ، وكان الفشل يتركز حول الحرف
 « سى » ، فهجرت حرف « سى » فى أسماء الأبطال ، ولقد هبط على
 إحساس كيوم الحساب حين أسميت الشخصية الرئيسية فى روايتي
 « العامل الإنسانى » « كاسل » ، وحاولت قدر جهدى تغير الاسم ، لكن
 هناك صفة سحرية فى الأسماء ، لتغير الاسم معناه أن تغير
 الشخصية ، وكان لابد أن يبقى « كاسل » ، ومضيت قدما وإحساس
 بخطر الفشل يسيطر على .

* * *

٣

لقد نشرت الآن ثلاث روايات ، نجحت أولاهما بعض النجاح ، وفشلت
 الاخرى بجدارة ، وشعرت بمرارة عزلة الهزيمة ، وغدوت كجريح تركوه
 ونسوه .

لكن المجيء المفاجيء لشاعر نرويجى لزيارتى ، وهو الذى لم اكن اعرفه ، بدا لى غير قابل للتعليل فى تلك الظروف . كانت زيارته كحلم يقظة ، ومشجعة بطريقة غير معقولة كظهور ثلاثة غربان على بوابة . كان « نوردال جريج » فالأ حسنا ، وأسطورة ، حتى موته أثبت أنه أسطورة ، فلا أحد يستطيع القول متأكدا : « فى هذا المكان مات » ، لقد أصيب فى غارة جوية على برلين سنة ١٩٤٣ ، أستطيع أن أتذكر بوضوح ثلاثة لقاءات معه ، كل لقاء يفصله عن الآخر بضع سنوات ، ومع ذلك لا أتردد فى القول بأن صداقة ربطت بيننا ، بل نوع من المحبة ، لم اكن أستطيع قراءة كتبه ، لأن واحدا منها فقط هو الذى ترجم إلى الانجليزية (وعلى كل حال فإن شعره يستعصى على الترجمة) ، ولقد أثر فى نفسى لا كزميل فى مهنة الكتابة ، ولكن كصديق نشأ معى وأستطيع أن أحدثه وأناقشه فى كل شيء فى هذا العالم .

لا أذكر فيما تحدثنا فى أول لقاء ، لقد قال بوضوح « انه جاء فقط لزيارتى » ، وذلك فى بيت صغير إستأجرته أنا وزوجتى فيفيان فى قرية « شبنيج كامبدن » وعلى الفور وقعت فى حياثل الألفة التى أثارها خاصة أنها بلا غرض ، يمنحها كضوء الشمس . جو صداقته هذه الذى يشبه الحلم ، استمر عن طريق رسائله ، دافئة ودية مشجعة ومنتقدة ، والمررة الوحيدة التى زرت فيها النرويج كان يقيم فى ليننجراد . لكن ظلت رسائله متواصلة ، ولم يعدم وسيلة لارسالها . كان نوردال جريج كالمملك لا تنقصه الوسائل .

وكننت أحيانا أنسأل ألم يترك رُقَيَات فى الأماكن التى زارها ، وجرتنى اليها بعد ذلك بفترة طويلة ؟ فكل مكان زاره وحديثى عنه برسائله ، ذهبت اليه بعد ذلك . لماذا قمت بزيارة منفردة لاستونيا فى الثلاثينات ؟ لأننى كنت أتتبع خطواته ؟ وموسكو فى الخمسينات ، ولم يكن هناك جدوى من الذهاب إلى غرفة ٣١٣ فى فندق فوفوموسكوف ، حيث العنوان الذى أرسله لى فى حالة « ما إذا وجدت نفسك فى موسكو يوما » ، كان شبحه قد غادر منذ زمن ، لدى رسالة كتبها لى من استونيا بعنوان مجرد « بوست ريستانت » دون ذكر للسنة كعادته دائما . كما لو أن تاريخ اليوم هو المهم فقط « وأؤكد لك إن عاجلا أو أجلا ستأتى إلى استونيا ،

فأحضر الآن من فضلك ، انها بلدة ساحرة ، لم تفسد بعد ، كما انها ، أرخص بلد في العالم ، فأنا مؤلف فقير جدا ولكنى هنا أستطيع الحصول على كل شيء تقريبا ، إحساس غريب ورائع .. وإذا كان الجو بديعا فسنستأجر قاربا ونخرج في نزهة وسط الجزر .. ويقطع قليلة من الشيكولاتة يمكننا شراء ما نريده من الفتيات المواطنات .. تعال » . ولكن مضى وقت طويل قبل أن أستطيع السفر هناك . ومن الغريب أنه كان يتحدث عن روسيا ستالين ، فمن منا الآن في أيام بريجينيف يستطيع أن يمكث في موسكو عدة أشهر وقيم في شقة شاعر روسي ؟ يقول في رسالة « لقد رجعت لتوى الى موسكو من الريف ويسعدنى أن ألقاك هنا فسأمكنك طوال شهر مايو ، وهناك احتمال أن أسافر بعد ذلك إلى تفليس والقوقاز . في تلك الحالة أتأتى معي ؟ » وفي خطاب آخر « استعرت شقة الكاتب بوريس بليناك الذى كتب الفولجا ينتشر في بحر قزوين (معظم الكتاب الروس يسمون كتبهم بأنهار ، فهم أسوأ من الانجليز الذين يختارون قولاً مأثوراً أنيقاً كعنوان) .

وإني خطة كانت تبدي بعد قراءة رسالة من رسائله ممكنة التنفيذ ، لكن ذلك لا يستمر إلى ساعات محدودة .

ومع الظلال التى هبطت فوق أوروبا ، وقبل سنوات من الغارة على برلين والتى قتلتها ، عاد الى النرويج ، كتب لى « لقد بدأت بإصدار مجلة يسارية لمحاربة الموجة الصاعدة من الفاشية وردود فعلها في النرويج ، وكنت من البجاجة بأن وضعت إسمك ضمن المشاركين في المجلة في المستقبل ، هل أنت غاضب ؟ إذا سامحتنى من أجل أيامنا الماضية ، فأرسل لى مقالا يوقف الشعر ، أيامى في موسكو إنتهت . كتبت مسرحية تهاجم بعنف حيادنا خلال الحرب الماضية ، والذى تسبب في آلام كثيرة . أعيش في بيت صغير في منطقة تزلق على الجليد في غابة في أوسلو ، إذا رغبت أنت وزوجتك في الحضور فهناك دائما مكان لكما » .

وكم رغبت لو أنى إستدنت ، أو تسولت أو حتى سرت المبالغ الضرورية التى تتيح لى تلبية دعوة واحدة من دعواته .

و ذات يوم . بدل أن أتلقى رسالة منه ، سمعت صوته في التليفون ، كنت في وزارة الاستعلامات في ذلك الوقت أودى عملا غبيا لا فائدة منه ، والغزو الألمانى للنرويج قد إبتدأ ، كان قد وصل من « نارفك » ، وشدنى

صوته من البناية الضخمة الميتة للاستعلامات إلى غرفة نومه في فندق كروس المملوء بمواطنيه ، كانت حكايته أنه إستيقظ يوما في أوصلو على صوت إطلاق النار ، نظر من النافذة فرأى السفن الحربية الألمانية على الشاطئ ، ليس بسرعة وخرج إلى الجبال ، وهناك قابل دورية عسكرية ، ووجد نفسه مجندا في الجيش بلا زى أو سلاح ، كانت الدورية تحمل حقائب تحتوى على الذهب الموجود في بنك النرويج ، وكلف بقيادة فرقة لاىصال الذهب إلى « نارفك » على بعد ٥٠٠ ميل في رحلة طويلة عبر الجبال ، لم أعرف تفاصيل تلك الرحلة قط ، فقد كان لديه أشياء كثيرة أخرى يتحدث عنها ، وصل إلى نارفك بسلام ، جندى غير رسمى بلبس ملابس صياد ومعه الحقائب المملوءة بالذهب ، وقدم تقريره الى ضابط بحرى أنيق كان بالمصادفة صديقا مشتركا لنا ، هو مترجم رواية « الرجل الذى بداخل » إلى النرويجية نيلزلى . وقد طلب من نوردا أن يصطحب الذهب على ظهر مدمرة إلى الشواطئ الإنجليزية ليسلم إلى بنك إنجلترا . قال إنه يرغب في البقاء في النرويج ليحارب ، ثم ماذا سيقول الإنجليز إذا أرسل كل هذا الذهب مع جندى غير رسمى ، وهكذا منحوه رتبة ما ، وغادر إلى إنجلترا . عند وصوله الشاطئ الإنجليزى ، أخذ القطار من « هارويش » وقد رسمت طبيعته الرومانسية مشهد وصوله إلى بنك إنجلترا وإستقبال المحافظ له ، لكن وصوله لم يكن يشبه ما تخيله على الإطلاق . فقد كان في إنتظاره على رصيف المحطة مخبر بملابس مدنية ، ولم يكن ممكنا الذهاب إلى البنك دون حضور الموظف المختص ، وكان هذا الموظف قد ذهب لناظر المحطة ، لأن جامع التذاكر لم يسمح له بعبور الحواجز إلى الرصيف دون تذكرة دخول ، ورفض موظف البنك أن يحط من كرامته بشراء تذكرة ، وهكذا إنتظر الشاعر والمخبر مع الذهب النرويجى حتى ملَّ نوردا . فترك المخبر وحده مع الذهب وأخذ عربة أجرة إلى فندق كروس .

بعد لقائنا في الفندق ، اختفى عن ناظرى ، وسافرت بعد ذلك في رحلة إستغرقت ١٥ شهرا إلى غرب إفريقيا في محاولة للحصول على المعلومات من مستعمرات فيشى . وقبل أشهر قليلة من وفاته ، تقابلنا مرة أخرى . وقضينا أمسية طويلة مع أصدقاء آخرين من النرويج ، ولم أكن أتخيل أنها المرة الأخيرة التى أراه فيها ، ولا أذكر من تلك الأمسية إلا الحديث

النفقش ثم صفارة الإنذار بغارة جوية ، ثم معاودة الحديث ثانية ، حيث يكون نورداال ، تكون هناك المناقشات دائما ، دون أثر للغضب . كان الرجل الوحيد الذى قابلته ويمكنك أن تختلف معه بعمق حول الدين - السياسة ، وتشعر طوال الوقت بعقله المتفتح وشعوره الودى نحوك ، - الأكثر من ذلك أنه كان يفترض المشاعر الودية فى معارضه أيضا ، فى الحقيقة كان لديه محبة للآخرين أكثر قيمة من ذهب البنك الوطنى . وبالنسبة لى فقط زودنى بجرعة من الأمل سنة ٣١ حملها إلى ككأس منعش فى الزقاق الموحد الذى كنت أقيم فيه فى شيبينج كامبدن .

× × ×

٤

فى تلك السنة سنة ١٩٣١ بدأت عن عمد - لأول وأخر مرة فى حياتى - فى كتابة كتاب يسر الآخرين . ومع الحظ قد يتحول إلى فيلم . ولأن الشيطان يعتنى باتباعه . فإن رواية « قطار اسطنبول » نجحت فى الهدفين ، مع أن ظهور الفيلم آنذاك بدا كحلم غير مرغوب فيه ، فقبل أن أتمهى من الرواية ، ظهر فيلم مارلين ديتريتش « شنغهاى إكسبريس » كما أنتج الإنجليز فيلم « روما إكسبريس » ، حتى الروس أنتجوا فيلمهم عن القطارات ، « تركيا إكسبريس » ، وجاء الفيلم الذى أنتجته فوكس للقرن العشرين عن روايتى ، بعدها . وكان أسوأها ، لكن ليس أسوأ من الانتاج التلفزيونى الأخير للرواية ، والذى قامت به الـ بى . بى . سى . اعتقد أن النجاح الجماهيرى لفيلم « جراند أوتيل » أوحى لى بكيفية كتابة عمل ناجح ، لكن بما أنى لم أقض فى القسطنطينية أكثر من ٢٤ ساعة منذ عدة سنوات فى جولة فى المنطقة ، فقد وقعت على عاتقى مهمة ثقيلة . لم أكن أتحمّل - ماديا - مغادرة كوخى فى « كوتسوالد » وأخذ القطار إلى إسطنبول ، أقصى ما كان يمكننى عمله هو شراء إسطوانة « هوينجر » باسيفيك ٢٣١ ، على أمل أن سماعها كل يوم ، يمكن أن يأخذنى بعيدا عن كوخى القشى ، وكلب يعانى من الهستريا ، وبعض أشجار التفاح ، وزقاق طينى ، وصف من نبات الخس .

وإشتريت أيضا . على مخصص ، تذكرة بالدرجة الثالثة تصل إلى الحدود الألمانية ، وفي هذه الأيام السعيدة ، قبل الحقبة الهتلرية ، كان يحق للكاتب أن يجتاز الحدود بالقطار دون فيزا ، وهكذا كان بإمكانى السفر بعيدا إلى كولون التى عرفتها من قبل سنة ٢٢ فى ظروف غامضة شريحتها فى مذكراتى عن سنواتى المبكرة « نوع من الحياة » . وقد ساعدتنى إسطوانة هوينجر . وإسطوانة أخرى لديليوس « أخط إلى الجنة » وإن كانت بدرجة أقل ، أكثر مما ساعدتنى الرحلة من كاليه إلى كولون .

سيلاحظ القارئ ، بلاشك ، أن هناك تفاصيل أكثر فى هذا الجزء من الرواية عن الجزء الأخير ، والسبب إنى حين جلست أنظر من نافذة الدرجة الثالثة كنت أدون ملاحظاتى عن كل ما أراه طوال ساعات النهار . ولذا يمكنك التأكد أن ما وصفته فى هذا الجزء كان كما هو سنة ١٩٣١ ، وهبط الظلام على قطار الشرق السريع قبل أن نصل ليج ، وعلى القارئ ألا يقتنع بدقة وصفى حتى الحدود اليوغسلافية عند سابوتكا . (منذ عدة سنوات قمت برحلة إلى إسطنبول ، وكان الوقت ليلا حين وصلت سابوتكا . وكنت على درجة من النعاس لم أتأكد فيها من دقة سردى التى نسيته تماما) .

حين وصلتنى الأنباء أن « جمعية الكتاب الانجليزى » قد إختارت روايتى « قطار إسطنبول » ككتاب العام ، أيقنت أنى أنقذت مؤقتا على الأقل . لكن القدر كان يختزن لى ضربة أخيرة ، جاءنى إنذار من جيه . بيه . بريستلى الكاتب المعروف بأنى شهّرت به فى روايتى ، وكنت لم أقابله قط ، وقد أعتبر شخصية « سافورى » فى الرواية تمثله ، لقد وصفت الشخصية بأنها روائى معروف يكتب على طريقة ديكنز ، وكان بريستلى قد أصدر حديثا رواية هلا لها النقاد وكانت بعنوان « الرفاق الطيبون » . وقارنه بعض المراجعين بديكنز .

وكان لابد أن أعرف ، فى السنوات التالية ، كم هى خطرة قوانين القذف بالنسبة للكاتب . وفى حالة بريستلى كنت متأكدا تماما أنه مقتنع بأن هذا الكاتب المجهول يهاجمه ، وكان يتصرف بإيمان راسخ ، والإيمان الراسخ للآخرين يكون غالبا أكثر مدعاة للحيرة . بعد النجاح المعتدل لقطار إسطنبول . بدأت أعتبر ككاتب يدر أموالا

على الناشرين (لا إنذارات بالقذف ترفع ضد كتب فاشلة) .
 فيما بين ١٩٢٤ - ١٩٢٨ سحب لى كتاب واحد من السوق « رحلة
 بلا خرائط » ، ودفعت تعويضا صغيرا لطبيب لم أعرف حتى بوجوده
 بتهمة التشهير أيضا ،

وجاءتنى إنذارات بالقذف مرتين لمراجعات كتبها في « السبكتاتور » ،
 وأخيرا قضية شيرلى تمبل ، وقد كان عمرها تسع سنوات آنذاك ، أرسلت
 لى إنذارا عن طريقة شركة فوكس للقرن العشرين ، بأننى شهرت بها في
 النقد الذى كتبته عن فيلمها « وى ويل ونىكر » في مجلة الليل والنهار .
 في تلك الايام السوداء للمؤلفين - والتي إنتهت مع الحرب بتغيير
 قوانين التشهير والقذف - كانت هناك شركة من المحامين الذين يحثون
 الناس على إرسال إنذارات بالتشهير ، كانوا يقارنون بين أسماء
 الشخصيات الروائية وأسماء الأشخاص المدرجين في دليل تليفونات
 لندن . أحد معارفى ، جاءه محام من هذه الشركة يحمل بيده رواية تحمل
 إحدى شخصياتها السيئة إسما كاسمه (وكلما كان الاسم غير شائع
 كان الخطر أكبر ، وقد دفعنى هذا ، في روايتى « الممثلون الهزليون » -
 إلى إختيار أسماء شخصياتها الرئيسية من الاسماء الشائعة كبراون
 وجون وسميث) ، وقال المحامى لصديقى أنه إذا رغب أن يقيم دعوى
 قضائية ، فإن شركته التى تعمل للمصالح العام يسعدها أن تخدمه ، وإذا
 خسرت القضية فلن يتحمل أية تكاليف ، وأكد له أنه من غير المحتمل أن
 يصل الأمر إلى المحكمة ، فالناشر سيدفع ، فحماس الناشرين قليل
 لخوض القتال ، فهم يفضلون دفع مبالغ مالية والانتهاى بتسوية معقولة .
 في حالة قطار إسطنبول أعدت صياغة عشرين صفحة ثانية بسبب
 إنذار بريستلى ، وخصمت شركة هانيمان للنشر تكاليف إعادة طبع هذه
 الصفحات من حقوقى أو بالأحرى إضافتها إلى الديون التى تستحق على
 وعلى كل حال فعلى المرء ألا يضخم الخطر أو يشكو كثيرا منه ، فلكل مهنة
 مخاطرها .

أثارت قطار إسطنبول بعض الاهتمام الاكاديمى ، كما ظهر الراقص
 الشاب كورال ماسكر على المسرح الملكى في نوتوتش كشخصية كتبها في
 رواية « بندقية اللبيع » ، واستطعت أن أكتشف في كلا الكتابين تأثير
 عشقى المبكر للكتابة المسرحية التى لم تمت بداخلى .

في تلك الأيام ، كنت أفكر بكتابة الرواية بمصطلحات مسرحية ، بمعنى أني قيل أن أكتب أجدول المشاهد على الورق (الفصل الأول : يحدث كذا وكذا) وغالبا ما تحتوى هذه المشاهد على شخصيتين منفردتين ، في حظيرة للسكة الحديد في رواية « قطار إسطنبول » ، في بيت منعزل في رواية « بندقية للبيع » كما لو أني أحاول الهرب من سهولة الرواية الواسعة ، وأقيم أعظم المشاهد المهمة في منطقة ضيقة حيث يمكنني توجيه كل حركة لشخصياتي . مشهد كهذا يوقف تقدم الرواية بذروة درامية ، كاللقطات القريبة في فيلم حيث تبدو كأنها توقف حركة الفيلم . توقفت بعد ذلك عن إستخدام ذلك التقسيم على الورق ، وراقبت طريقتي تلك في رواياتي بعد ذلك ، ويمكنني القول أني وصلت الذروة في رواية « القنصل الفخري » حيث معظم أحداث الرواية تدور في كوخ خبا المختطفون فيه ضحيتهم .

أكثر من أربعين سنة تفصل رواية قطار إسطنبول عن القنصل الفخري ، لم يكن هتلر قد أتى إلى السلطة حين كتبت قطار إسطنبول ، كان عالما مختلفا ويمكنني القول أيضا أني كنت مؤلفا مختلفا . كنت في العشرينات من العمر . ولا أجزم أني اكتشفت كثيرا من الأمل في عملي ، عدا شخصية كولونيل هاربت رئيس البوليس ، لقد أحييتها في عالم العمة أوجستا في كتاب « رحلات مع عمتي » ، وحين قرأت الفصل الأخير الذي تدور أحداثه في إسطنبول . ورأيت شخصية كاليدمان موظف الفندق ، ومستر شتاين رجل الأعمال المحتال ، مقدمة بايجاز واتقان تام ، فإن الكاتب العجوز يرفع يده تحية للكاتب الشاب ، باحترام جدير به .

× × ×

٥

أشفق دائما في العودة بالذاكرة إلى الوراء ، فهي كمن يقترب من الموت ويستعجل النهاية . لكنه يعيش فترة أخرى . بدأت أكتب رواية « إنه ميدان المعركة » في وقت كنت أمر فيه بأزمة مالية كبيرة .

ناشر روائيتى ، الانجليزى والأمريكى كفلا لى ستمائة جنيه سنويا ، لمدة ثلاث سنوات كحقوق نشر ، ساعدنى هذا المبلغ على ترك عملى فى جريدة التايمز ، والإقامة فى بيت صغير فى شيبينج كامبدن ، ولكن سنة ١٩٣٢ حين إنتهت السنوات الثلاث ، لم يكن قد تبقى معى سوى عشرين جنيها ،

فقد فشلت روائيتى الثانية ثم الثالثة ، ولم تحققا لى أى دخل ، وروائيتى الرابعة مازالت مخطوطة ، كما رفض الناشرىون الكتاب الذى كتبتة عن سيرة الشاعر إيرل أوف روشستر .

وفى اليوميات التى احتفظ بها عن تلك الفترة ، تستطيع أن تقرأ ، اسبوعا بعد اسبوع ، عن الليالى المؤرقة التى عشتها وعن حالة الكآبة التى إستولت على نفسى . ومحاولاتى المتتالية للبحث عن عمل فى جرائد الأحد ، أو كمدرس فى الجامعة ، فلا عجب إذن أن يسير العمل فى رواية « إنه ميدان المعركة » ببطء شديد .

كنت قد بدأت رواية قبلها عن التمسك بالروحانية ، لكنها لم تعجبنى فأهملتها ، كما حاولت كتابة قصة طويلة بعنوان « أرض براندون » ، اختفت وضاعت من ذاكرتى تماما .

وفى يوم كئيب ، إشتريت تذكرة قطار إلى لندن ، وذهبت لأناقش أمورى مع شارلز إيفانز مدير دار هانيمان للنشر ومع ممثل دار نشر « دويلداى » الأمريكية .

وافق إيفانز أن يمد عقدى لمدة سنة أخرى ، بينما وافق الناشر الأمريكى على مد العقد لمدة شهرين فقط حتى يتسنى له قراءة مخطوط رواية « قطار إسطنبول » .

وكانت الشروط مجحفة ، عفا ، لكتابين لن تدفع اية حقوق عنهما إذا حققا خسارة ، إلا بعد تغطية هذه الخسارة ، بكلمات أخرى عدت إلى البيت بضمان شهرين من المصروفات على أن أكتب روائتين بعد « قطار إسطنبول » دون أية حقوق على الإطلاق .

وأنقذتنا رواية قطار إسطنبول فى اللحظة الأخيرة . (هناك نقطة أخرى توضحها يومياتى غير الأرق والقلق ، وهى تفهم وشجاعة زوجتى التى لم تشك أبدا رغم هذا المازق الخطير الذى قدتها إليه بعد الحياة الآمنة أثناء عملى فى جريدة التايمز)

بدأ لي أن البدء في كتابة رواية « أنه ميدان المعركة » في هذه الظروف عمل مدمر للنفس ، ولم يكن هناك مفر .
لم يكن لدى أوهام بأن تصبح هذه الرواية جماهيرية ، في الواقع ظلت هذه الرواية أقل كُتبي إقبالا من الجمهور وقابلية للقراءة ، مع أن ذاكرتي تحتفظ بصفحات جيدة منها (كالمقابلة بين ميلي وزوجة رجل البوليس القتل ، أو ملاحقة كونراد لمساعد مفوض الشرطة بمسدس محشو بطلقات زائفة) .

وقد أوحى لي بموضوع الرواية ، حلم رأيته ، ثمرة أسابيع القلق التي عشتها ، يحكم فيه علىّ بالموت بسبب جريمة ، وقد وجدت في يومياتي قطعة من الشعر الخشن توضح كيف طرأت فكرة الرواية على ذهني .
نادرا ما تواتنني الشجاعة لاعادة قراءة كتاب من كُتبي أكثر من مرة ، ويحدث ذلك عادة بعد طباعته ونشره . حيث أراجع لأصحح الأخطاء المطبعية وأعدل ما أراه مناسبا ، وأحتفظ بالنسخة المصححة جاهزة لطبعة جديدة إذا طُلبت .

كسرت هذه القاعدة في رواية « إنه ميدان المعركة » ، لاحظت أن هناك مشهدين تسربا خطأ إلى الكتاب ، أهمها فقرة لا تمت أحداثها للحدث الرئيسي - ظلم عدالة الإنسان - حين يصطحب مفوض الشرطة مدير المباحث لاعتقال القاتل الرئيسي ، كان تصرفا غير مناسب من مفوض الشرطة ، وهكذا بعد ست سنوات من الطبعة الأولى للرواية سنة ١٩٣٤ ، بدأت أراجع الكتاب لطبعة جديدة شعبية (ذات غلاف ورقي) ، وحذفت هذا المشهد كله ، لكن حين نشرت الرواية في طبعتها الجديدة ، وقرأتها ثانية ، تبين لي أن المشهد الذي حذفته أساسي في الرواية وليس كما بدا لي من قبل ، وأن عنوان الرواية بدون هذا المشهد يفقد إلى اعطاء الإحساس بالعنف والإضطراب ، وتصبح الاستعارة سياسية وليست ساخرة كما أردتها .

المشهد الثاني المزيج ، والذي يتطلب معالجة بحذف بعض الجمل وتغيير البعض الآخر ، كان مشهد إجتماع لأحد فروع الحزب الشيوعي للإصغاء لمحاضرة مستر ساروجات أحد الأعضاء المثقفين ، وقد سبق لي أن شهدت إجتماعا شيوعيا كبيرا مرة واحدة في باريس سنة ١٩٢٣ في وقت حملت فيه بطاقة عضوية في الحزب لمدة أربعة أسابيع ، وهذه

التجربة غير كافية كأساس لمشهد بدا لي أنه يفتقد الأصالة .
 من النادر أن أستخدم في رواياتي شخصيات تتطابق مع أشخاص
 أحياء أعرفهم ، وإذا فعلت يكون ذلك في الشخصيات الثانوية وليس
 الرئيسية ، لكن في رواية ميدان المعركة كنت واعيا تماما لحضور ليدي
 مورين كخلفية لليدي كارولين في الرواية ، وفكرتني عن ميدلتون موري
 كانت مسئولة بشكل ما عن شخصية مستر ساروجات ، كما أن عمى
 جراهام جرين ، والذي كان سكرتيرا في البحرية تحت إمرة تشرشل في
 الحرب العالمية الأولى ، أعار قليلا من إستقامته وصلابته لمساعد الشرطة
 في الرواية . بالطبع لم تكن لعمى تجربة في الشرق الأقصى كالشخصية ،
 أو مثلي بعد عشرين سنة ، تنبؤ غريب !
 إذا كان إستقبال هذا الكتاب ، الذي أضاف إلى فشلي فشلا آخر في
 عيون الناشرين ، لم يحبطني فذلك لأسباب ثلاثة :
 الكلمة الممتازة التي كتبها ف . إس . برتشت عن الرواية ، كلمة مديح
 طيبة من أرزا باوند ، ثم الثناء الذي كتبه فورد مادوكس فورد .
 ماذا يهم إذن بعد ذلك ؟ رأى المراجعين العاديين ؟ أو رأى القارئ
 المجهول ؟
 لقد تلقيت ما يشجعني ويحثني على العمل ، ومازلت أعتقد أن
 الصفحات الستين الأخيرة في الرواية ، ناجحة تماما كأي شيء كتبته بعد
 ذلك .

× × ×

٦

هناك نقطة ضعف في قلبي تجاه روايتي الخامسة « انجلترا
 صنعتني » (شعور لم يشاركني فيه الجمهور) . ومع ذلك فلا أذكر عن
 ظروف كتابتها إلا القليل . أذكر تلك السنوات ٣٣ - ١٩٢٧ كسنوات
 وسطى لجيلي ، يظللها الكساد الذي ساد البلاد وألقى بظله على الكتاب ،
 إضافة إلى صعود هتلر إلى الحكم في ألمانيا ، فكان من الصعب تلك الأيام
 ألا يكون المرء ملتزما ، ومن الصعب أيضا أن تسترجع تفاصيل حياتك

الخاصة ، وميدان المعركة الهائل يعد حولنا ، لكنى اخترت موضوعات عن توأم (أخ وأخت) أنتونى وكيت تدور في ذهنيهما أفكار عن علاقة بينهما ، لكنها لم تصل إلى درجة الزنا بالمحارم ، تدور أحداث القصة في السويد ، ولم أكن أعرف شيئاً عن السويد ، واعتقد أنها المناسبة الوحيدة التى اخترت فيها بلداً لا أعرفه عن عمد كخلفية لبروايتى ، ثم زرت بعد ذلك ، مثل فريق الكامير ، لأخذ المناظر الثابتة .

(بعد سنوات عدة زرت الكونغو البلجيكي لسبب مشابه ، لكن الكونغو كان مصطلحا جغرافيا اخترعه المحتلون . فقد كنت أعرف إفريقيا السوداء من سيراليون ونيجيريا وكينيا وليبيريا) الصور التى إلتقطتها فى السويد كانت دقيقة بشكل جيد ، وتمثل ما أردته ، والآن وأنا أعرف ستوكهولم جيدا ، لا أخاف كثيرا عند إعادة قراءة الكتاب ، فاحتفالات منتصف الصيف ، وليلة رأس السنة حين يذاب الرصاص فوق النار للتنبؤ بالمستقبل ، والقطعة المعدنية التى ألقيتها فى الطاسة وشكلت علامة استقهام ، كل هذا لا يوجد فى الرواية ، ولا البط المتجمع على الجليد خارج جرانده أوتيل ، أو طعم الجعة فى المسارح ، أو بحيرات داليكاريا ، ولا تلك الجزيرة فى الأرخبيل حيث كنت أخرج كل صباح لاحتضار الماء للظهو ، وكبرى مرحاض يستقر فى ممر فى الغابة كشئ سريالى يطن الناموس حوله . هذه الانطباعات سويدية بالنسبة لى الآن ، وربما يصاب الإنسان بالأسى عند قراءته الرواية فهى كخطاب قديم يحتوى على تقدير سطحي لامرأة أحبها المرء منذ عشرين سنة .

لدى ذكريات قليلة عن تلك الزيارة التى قمت بها للسويد مع أخى هيج فى أغسطس ٢٤ ، أوضح تلك الذكريات والتى لم تمحها الأيام ، مرتبطة بسفينة مزخرفة برسوم دقيقة حملتنا من جوتنبرج إلى ستوكهولم (والتى تخيلتها كخلفية لقصتى) تبادلنا أنا وأخى الغزل مع فتاتين إنجليزيتين إحداهما فى السادسة عشرة والأخرى فى العشرين ، وحين توقفت السفينة فى هويس ، سار كل منا مع فتاته . ولسبب غير مفهوم ، إنتابنا القلق لتأخر أخى فى العودة مع فتاته ، وكانت الأم - وهى سيدة مثقفة فازت مرارا فى المسابقات الأدبية لمجلة تايم أند تايد - مقتنعة بأن الإثنين قد غرقا فى القتال . وذات مساء فى ستوكهولم وعلى حدود البحيرة ، صفعتنى رفيقتى فى ظروف مشابهة كذلك التى صفعت فيها لو أنتونى فى

روايته لقولى لها أنى أعتقد إنها مازالت عذراء .
 بعد ذلك جلسنا باحتشام فى حديقة ستوكهلم العامة وسط الصخور
 الرمادية والأشجار الفضية ، لكن أغسطس ليس الوقت المناسب لرؤية
 ستوكهلم للمرة الأولى ، فقررنا الذهاب إلى أوسلو .
 وأعجب الآن من تهورى فى رسم مشهد فى رواية فى مدينة لا أعرفها
 إلا قليلا . هل يمكننى الآن كتابة الرواية بشكل أفضل ، حيث أجد فى
 ذاكرتى نموذجا لكروج رجل الصناعة الذى رفض بعناد - فى تلك
 الفترة - أن يكون شخصية حية فى الرواية ؟ أشك فى ذلك . ففى معظم
 كتبى ، ومهما كنت أعرف المشهد الذى أكتبه جيدا ، تظل هناك شخصية
 ترفض بعناد أن تصبح شخصية حية ، وتوجد فقط من أجل الرواية .
 مثلا شخصية كروج فى إنجلترا صنعتنى ، خادم البار فى صخرة
 برايتون ، ويلسون فى لب القضية ، سميت فى نهاية المسألة ، الصحفى
 باركنسون فى حالة ميثوس منها . والحقيقة المؤسفة هى أن الرواية ليس
 فيها متسع إلا لعدد محدود من الشخصيات الرئيسية . لو حملتها
 بشخصية ناجحة أخرى ، تصبح كالقارب الذى يحمل أكثر من طاقته
 فيغرق . وهذا هو الخطر غير المتوقع الذى واجهته فى رواية « إنجلترا
 صنعتنى » ، كنت مقتنعا تماما برسمى لشخصية أنتونى ، ألم أعاشره
 لعدة سنوات ؟ كان صورة مثالية لأخى الأكبر هربرت ، وكنت بنفسى قد
 شاركت فى كثير من تجارب أنتونى ، ولقد عرفت « أنيت » الصغيرة
 اللاذعة التى أحبها أنتونى ، وكنت مقتنعا « بكيت » شقيقة أنتونى ،
 والتى تبدو لى كأفضل شخصية رسمتها باستثناء سارة فى رواية نهاية
 المسألة . كان أنتونى وكيت هما قلبى الرواية ، وكروج كان هناك ليعالج
 قصتهما ، أما الآخرون فكانوا شخصيات ثانوية ولا ضرورة لشخصيات
 رئيسية أخرى .

وفجأة مال القارب لأن « منتى » صعد إلى السطح ، كان غير متوقع
 على الإطلاق حين انبثق من اللاوعى ، رجل يعيش فى الخارج على أموال
 تآتية من الوطن ، قادم متأخر فى نهاية الجزء الثانى من الرواية ، لكن
 كيف حدث ذلك ؟ افترضت من أجل إكمال قصة أنتونى ، إنى أحتاج
 لشخص من مواطنيه كى يكشف العنصر المحتال فيه ، ولم يكن فى نيتى
 أن أقدم شخصية ماكرا ، مثيرة للشجن أنجلو كاثوليكية ربما فكرت فى

تابع متواضع لسير جون بتمان ، لكنه سرق كل المشاهد التى لعب فيها دورا ، وسرق حتى كيت فى وداعها لجنازة أخيها ، وكانت له الكلمة الأخيرة ، لقد إمتعزت من هذه الشخصية ، ومع ذلك لم أستطع أن أسقطها .

كان الموضوع - بغض النظر عن الخلفية الاقتصادية للثلاثينات وتأرجع الرأسمالية بين أزمة وأزمة ، موضوعا بسيطا بعيدا عن السياسة . أخ وأخت على شفا الوقوع فى حفرة العلاقة بالمحارم . ولقد دهشت حين قرأت أخيرا فى مجلة شهرية مقالا عن رواياتى الأولى ، ووجدت كاتب المقال ينبش هذا الموضوع ، ويتحدث عن الإيهام والغموض فى المعالجة ، وكيف أن الكاتب كان خائفا من موضوعه أو ربما غير واع لطبيعة هذا التعاطف بين الأخ وأخته ، واستشهد بمقاطع من الرواية ليبين كيف ينقطع الحوار بين الاثنين فجأة فى لحظة خطيرة ، لينتقل إلى أشياء لا علاقة لها بالموضوع وإتهمنى بالتهرب من الطبيعة الحقيقية لموضوعى .

كم هو خطر على الناقد الا يكون لديه وعى فنى بتركيب الرواية ، وكم كان هنرى جيمس محقا بمقدماته العظيمة لرواياته ، حين يحدد طريقة الروائى ووجهة نظره بما لا يدع مجالا للبس ، وبشكل يتعذر تجاهله أو إزالته ، لم يكن هناك غموض فى ذهنى وأنا أكتب الرواية ، كان الغموض فى ذهنى بطل الرواية أنتونى وكيت اللذين إختترتهما للتعبير عن وجهة نظرى ، كان دائما على وشك اكتشاف حقيقة الرغبة التى تجتاحهما ، لكن غريزة حفظ النفس كانت تجعلهما يتفاديان ذلك بالحديث عن ذكريات زائفة أو غير كاملة أو عن موضوعات لا تتعلق بلحظة الكشف التى يرواغانها ، وكانت كيت أقرب إلى إدراك ذلك من أنتونى ، وقد استخدمنا حبهما الجنسى الغامض مع أشخاص آخرين ، كيت مع كروج ، وأنتونى مع لو ، ليتجنبنا الشيء الحقيقى الذى أوشكا أن يقعا فيه .

المراوغة الجبابة التى يصفها الناقد ، لم تكن منى ، إنها تخص الإثنين بطل الرواية .



من الممكن أن تكون الصداقة من أهم الأحداث في حياة المرء ، وإحدى سبل الهروب من روتين الحياة اليومية والاحساس بالفشل والخوف من المستقبل ، بالضبط كالكتابة أو السفر . من المؤكد أن لقائي بهربرت ريد كان حادثة مهمة في حياتي ، كان الطف رجل عرفته ، لكن لطفه أختبر في أسوأ تجربة في جيله ، تجربة الحرب .

فلتخيل ذلك الضابط الشاب ، الذي فاز بالصليب العسكري ووسام لشجاعته على الجبهة الغربية ، يحمل معه لكل ذلك الطين والموت انطولوجيا روبرت بريديج « روح الإنسان » ، وجمهورية أفلاطون ورواية دون كيخوته . لا شيء تغير فيه ، إنه الرجل نفسه بعد عشرين سنة ، والذي يمكن أن يدخل غرفة مزدحمة بالناس ولا يلحظه أحد ، لكنك تحس أن جو النقاش قد تغير ، وأن علاقة الفرد بالآخر تغيرت ولم يعد حديث أحد يشد الإنتباه ، وتنظر حولك لتجد تفسيراً لذلك ، فتجده هو .. إستقامة وإخلاص مطلق نابع من تجربة كاملة ، دخل الغرفة وجلس على مقعد دون تطفل .

لا أذكر أين ولا كيف قابلته ، أعتقد أنه في سنة ١٩٣٥ السنة التي صدرت فيها روايته الوحيدة « الطفل الأخضر » ، وفي رواية أضعها وسط أعم قصائد هذا القرن مع رواية ديفيز جونز « بين الأقواس » . كنت معجبا ومتحمسا لكتابة « أسلوب النثر الإنجليزي » والذي يجب أن يقرأه كل من يود أن يصبح كاتباً ، كما لم يكتب أحد معروفا وكاشفا شخصية وردزورث كما كتب عنه في كتابه « وردزورث » ، أما كتابه « العين البريئة » عن طفولته في يوركشير ، فهي واحدة من أعظم السير الذاتية في اللغة الانجليزية .

أعظم شخصيتين في شبابي كانتا هربرت ريد ، وت . س . اليوت (فهما يعنيان لي أكثر من جيمس جويس ، أما أزا باوند فكان دائما بعيدا جدا بحيث لا يتأكد المرء من تواجده في مكان ما في لحظة ما) . لم تكن لدى الجراة للاقتراب من اليوت وريد وحدي ، ماذا سيثير

إهتمامهما في روائى شاب وغير ناجح ؟
وهكذا كانت المصادفة هى التى قادتنى إلى لقائى الأول بريد ، لقد
غمرنى الفخر والإندهاش وقليل من الرهبة حين تلقيت دعوة على العشاء
من هريبرت ريد .

« البيوت سيأتى ولكن لا أحد غيره ، وكل شىء سيكون طبيعيا دون
رسميات » .

كنت كمن تلقيت دعوة من كوليدج يقول فيها « وردزورث قادم
ولا أحد غيره » .

أوضح لى كيف أصل إلى منزله بارشارات دقيقة مع خريطة صغيرة
تبدو كأنها رسم لخدق على الجبهة الغربية على ورقة قطعت من مفكرة
ضابط شاب ، ثم تتقلب عليه بساطة الرجل الريفى مؤلف العين البرينة
وهو يقول « أعنى بالمدق حجر ضيق عبر بوابة مزدوجة » ، وشعرت أنى
قريب من يوركشير أكثر من حديقة بلسايز القريبة .

بعد سنتين وحين أصبحت محررا مشاركا فى المجلة الإسبوعية « الليل
والنهار » ، واقتنى الجراة أن أطلب من مؤلف « الفن الآن » أن يكتب لى
مراجعات منتظمة للروايات البوليسية ، ولقد وافق فوراً . (على ذلك
العشاء مع البيوت تحدثنا عن أرسين لوبين ، وهو موضوع جعل البيوت
يسترخى ويأخذ راحته فى الكلام وهو يشعر أنه بمأمن من السيدات
اللواتى يرحن ويجئن يتحدثن عن مايكل أنجلو) .

أول مراجعة كتبها أرفق بها أبياتا من الشعر بالحبر الأحمر تحية لى
سعدت بها جدا . أتمنى يوما أن أرى هذه المراجعات منشورة فى كتاب ،
فهى تعطى صورة أخرى لهريبرت ريد تختلف عن الصورة المألوفة لريد
المثقف ، كانت أول مراجعة فى ٧ يوليو سنة ١٩٣٧ عن رواية دودوئى
ساير « شهر غسل سائق الباص » وتحتوى على نقد عنيف للرواية
تستحقه ، كان عطوفا مع بيتر شينى ثم أصبح يتحامل على رواياته ،
ولكن كان يكن الود لروايات أجاثا كريستى .

اعتقد صادقا أنه كان يستمتع بكتابة تلك المراجعات أكثر من كتابته
تلك السلسلة الطويلة من كتب الفن التى أخفت عن عيون الكثيرين
موهبة الشعرية الفذة ، ونقده الأدبى ، وكونه كاتب سيرة ذاتية ممتازا .
وكان يعرف أنى لا أهتم كثيرا بكتبه عن الفن ، ولم يكن ييستا من

ذلك ، حتى حين وضعت مشاعري تلك مطبوعة ، كان كل ما علق به ، جملة كتبها « لقد جعلت خبزي وزبدي تفه المذاق » .
مراجعاته في مجلة الليل والنهار ، كانت بالنسبة اليه - على ما أظن - إجازة من كتاباته الجادة ، وكان مزاجه المرح يسرى فيها لينفجر بحدة وهو يستشهد بكلمات مؤلفين من الدرجة الثانية لم يتعلموا بعد دروس « أسلوب النثر الانجليزي » .

باللخسارة ، إنتهت مجلة الليل والنهار في أواخر عام ١٩٣٧ ، وكان هربرت ريد قد بدأ يظهر ككاتب ساخر في مقاله « حياة بلا لبيسة أحذية » تحت اسم جيمس مارجاترويد ، ولقد إعتزضت على هذا الاسم المستعار ، وطلبت منه أن يكتفى بالتوقيع باسم مارجاترويد ، لكنه كتب لي يقول « إنه إسم حقيقي تماما ، ولو ولدت في الغرب بدلا من الشمال لربما كان ذلك إسمى ، وهل يضر لو أعطيته إسم مسيحيا مثل جيمس ؟ على أية حال أرفض أن أوقع باسم برثرام ميد مثلا ، عرفت مرة رجلا في وزارة العمل إسمه كذلك ، أريد شيئا فكها ، مثيرا للذكريات بشكل غامض ، يشي بعيون برمائية ناتئة ، متعب وصبور كضفدع في تيار هواء . إذا أمكنك الانتظار ليوم الثلاثاء . فسأحاول أن أفكر باسم بديل ، لكن إذا كان لابد من الاستمرار مع هذا المخلوق فليكن له إسم ملهب مثل مارجاترويد .

وهكذا فقد كان يخطط لسلسلة من المقالات الساخرة ، لو أتمها لكان عتدنا كتاب ثرى على غرار كتاب « يوميات لا أحد » ، أمن الممكن أن توجد بعض هذه المقالات بين أوراقه ؟

أكتب فيما يبدو عن أشياء تافهة ، لكن حين يحب المرء رجلا كما أحبته ، فإن هذه الأشياء الصغيرة هي التي ينساها الآخرون أو لم يعرفوها أصلا ، وهي التي ترد على الذهن قبل إنجازاته الخالدة : الطفل الأخضر ، وردزورث ، نهاية الحرب ، التجربة المتناقضة ، وذلك المقال الذي تحدث فيه عن الهوى المسيطر الذي يربط هذه السير الذاتية بخيط من الصلب : البحث عن المجد . « المجد كلمة تشوهت سمعتها ، ومن الصعب أن نعيد لها هذه السمعة ، لقد فسدت لربطها الشديد بالعظمة العسكرية ، لقد إختلطت معانيها مع الشهرة والطموح ، لكن المجد الحقيقي هو فضيلة خاصة ، تدرك تماما في العزلة والوحدة ؟

لقد عرف المجد العسكري من الخطر وبؤس خط النار الأول ، وحين
جلجل الجرس في كانتربرى في ١١/١١/١٩١٨ معلنا النصر ، استدار
الى الحقول بقلب خائف حذر ، وإبتعد عن كل إتصال إنساني ، كان
يسير في إتجاه المجد الذى يعرف في العزلة ، ويحققه أخيرا في السنوات
الأخيرة بين التلال والمستنقعات وهو يصغى إلى تيار طفولته في كتابه
« العين البريئة » .

لا شيء يمثله أفضل من نهايته المؤلة ، ربما كانت معاناة الشاب
الصغير في فرنسا من الغاز وإنفجار القنابل ، أقل من معاناته في نهايته .
لكن الشجاعة في مواجهة سكرات الموت لم تنقص خلال خمسين عاما ،
وإحساسه العميق بالسعادة السماوية الذى أحسه في بدايته كصبي
وحيد في شارع ليدز ، ظل محتفظا به خلال معاناته القاسية في النهاية .
حدق في الموت بالعيون نفسها الواضحة الناقدة الطيبة التى يلتفت بها إلى
صديق - في الأشهر الأخيرة من حياته كان يخطط - بعد أكثر من عملية
جراحية - أن يسافر ويمكث فترة في بيت صغير كنت أملكه في « أنا
كابرى » ، ولقد كتب لى مرارا وبحميمية في تلك الفترة أكثر من أى وقت
مضى « يسيطر على فكر فرويد ، هل قرأت كتاب جونز عن حياته ؟ أنا في
الحالة نفسها التى كان يمر بها وفي المكان نفسه .. لا أعتقد انى أهتم
بما بقى لى من سنوات على الأرض ، كل ما يشغلنى هو ترك لودو وحيدا .
لكنى أريح نفسى بفكرة أن لدينا أطفالا مخلصين » .

ثم جاء الخطاب الأخير فجأة ، آخر ما كتب ، ليقول لى أنه تخلى عن
فكرة الإقامة في أنا كابرى « إستفحلت بداخلى تدريجيا روح لوريدز
وسأحج إلى هناك فستكون علاجا شافيا » . الإشارة إلى « لورديز » حيث
تجلت العذراء ، من هذا الأكثر إيمانا بين اللا مؤمنين ، ولم يكن مدهشا
لى .

الم يكتب في سيرته الذاتية عن ركن أساسى آخر يعبر عن فكرته عن
المجد أو السعادة السماوية « في لحظات معينة يحمل المرء بعيدا عن
نفسه العاقلة ، إلى مجال أخلاقى آخر ، حيث يحكم على أعماله بمقاييس
جديدة ، والدافع الذى يحركه إلى عمل لا يتفق مع العقل أسميه حس
المجد » .

في سنة ١٩٣٥ اندفعت لأحيى موضوع كتابي التالي « رحلة بلا خرائط » ، منذ ٤٥ سنة كان يمكنني العزف بسعادة بالغة على أبعد الذكريات وأكثرها غموضا في طفولتي ، لم تكن الأحداث باهتة وبعيدة كما تبدو الآن .

كانت تلك الفترة ، مرحلة انجرف فيها الكتاب الشبان للقيام برحلات متعبة بحثا عن مادة غريبة ، فذهب بيتر فليمنج إلى البرازيل ومنشوريا ، ايفلين وو إلى غيانا البريطانية وأثيوبيا ، وتأجلت رحلاتنا إلى أوروبا ، فقد بدت وكأن المستقبل كله لها ، فهي يمكن أن تنتظر ، وكانت صدمة لنا سنة ١٩٤٠ أن نرى باب أوروبا قد أغلق في وجهنا ، وكانت لدى ذكريات عن المكسيك وليبيريا أكثر مما لدى عن فرنسا ، وبالنسبة لاييطاليا ، كل ما أعرفه عنها ليلة قضيتها في نابولي ، كنا جيلا نشأ على قصص المغامرات ، وفاتنا التحرر من الوهم في الحرب العالمية الأولى لصغر السن ، فذهبنا نبحث عن المغامرة ، واعتدت في صيف ١٩٤٠ أن أقضى ليالي السبت في ساوث أند توقعا لغارة جوية ، دون أن أدرك اني بعد بضعة أشهر سأخذ كفايتي من الغارات على لندن ليلا ونهارا . في ذلك الوقت ، ١٩٣٥ ، لم أكن قد خرجت من أوروبا ، بل لم أكن قد غادرت إنجلترا إلا فيما ندر ، وأن أختار ليبيريا للسفر إليها ، وأورط ابنة عمي بربارا ، وهي فتاة في الثالثة والعشرين ، في هذه المغامرة ، عمل أقل ما يوصف به أنه عمل متهور .

ويمكن تفسير دعوتي لها لمرافقتي ، بأنني كنت قد سكرت تماما في حفلة زفاف أختي « هوج » ، ولم أتصور قط أنها ستقبل هذه الدعوة . وبذلت قصارى جهدي بعد ذلك ، لاثنيها عن عزمها وتثبيط هممتها ، أرسلت لها تقريرا صادرا عن عصبة الأمم يشرح الأحوال السيئة داخل تلك المناطق ، وعن الأمراض المجهولة التي تفتك بالناس ، وعن حملة الكولونيل ديفيز الوحشية ضد قبائل الكرو ، وعن تصدير العبيد الذي قام به الرئيس كنتج إلى فيرناندويو ، لقد جعلني التقرير عصبيا ، كما أن وصف السير هاري جونستون لرحلاته داخل تلك البلاد ، والصعوبات المتواصلة التي واجهها مع الحمالين الذي كان يستأجرهم من قرية إلى أخرى ، جعلني أدرك أن الرحلة ستكون مغامرة قاسية وعسيرة على شباب لم يذهب أبعد من أثينا في رحلة للأثار الهلينية ، وشعرت بحاجتي إلى

رفيق ، ولكن حين ذهب تأثير الشمبانيا ، ذعرت من اختياري لهذا الشريك .

لحسن الحظ ، أن ابنة عمي لم تتأثر بقراءة المادة التي أرسلتها لها ، أقول لحسن الحظ لأنها أثبتت انها رفيقة جيدة بقدر ما سمحت به الظروف . وكلماً فكرت بالشجارات التي كان يمكن أن تنشب بيني وبين رفيق من الرجال .. أرتعد ، لقد تركت لى ابنة عمي اتخاذ كل القرارات ولم تنقذني حتى حين اتخذ قرارا خاطئاً ، ولاختلاف الجنس كنا مضطرين أن نسيطر على أعصابنا المتوترة ، قرب نهاية الرحلة كنا نلتزم بفترات طويلة من الصمت ، لكن ذلك أفضل من النقاش والأصوات المرتفعة . شيء واحد فقط خبيت فيه ظننى ، أنها كتبت كتاباً عن رحلتها تلك ، لكن كرمها كان واضحاً في ذلك أيضاً ، فقد انتظرت عدة سنوات حتى نشرت كتابى (الذى اختفى فقد سحب نتيجة لانهذار بالقذف من طبيب مجهول) ، ثم نشرت كتابها « أرض داهمها الليل » . لم أعرف انها كانت تكتب ملاحظاتها أثناء الرحلة ، فقد كنت مشغولاً بملاحظاتي . قبل أن أبدأ كتابة الكتاب ، بدا لى الأمر سهلاً ، لكن حين عدت وواجهت المادة التي أعدتها ، داهمتنى لحظة من اليأس ، ورغبت فى التخلي عن المشروع . يوميات كتبها شخص متعب بقلم رصاص فى حوالى ثمانين صفحة كوارتر من كراسة مفككة ، قطعة ورق دونت عليها حسابات الحمالين التي دفعتها (رئيسهم يأخذ عادة ٩ بنسات ومعظم الآخرين ٣ بنسات فى المرة الواحدة) ، بعض ملاحظات من حاكم مقاطعة تابى تى . ومن الكولونيل ديفيز أمر قوات الحدود الليبيرية ، بعض النشرات السياسية فى منروفيا ، مختارات من الصحف الليبيرية ، بعض السيوف من قبائل البوارى ، وآلات موسيقية (ضاعت وكانت ذات قيمة آنذاك) ، عدة صور فوتوغرافية إنقطت بكاميرا كوداك قديمة صغيرة ، وذكريات عن الجرذان ، وعن الاحباط ، والملل العميق فى رحلة الغابة الطويلة البطيئة ، كيف يمكننى أن أكتب كتاباً فى كل ذلك ؟ ولكنى أنفقت كل ما أعطانيه ناشرى من نقود وقدرها ٣٥٠ جنيهها ، ولن أستطيع أخذ المزيد حتى أنهى الكتاب .

المشكلة التي كانت تتطلب حلاً قبل الكتابة ، كانت أساساً مشكلة الشكل . كنت مشبعاً بالكتب التي تسير على وتيرة واحدة مملة من الألف

إلى الياء ، هذا الكتاب لا يمكن أن يكتب بطريقة كتاب رحلة إلى أوروبا ، فليس هناك مبان معمارية يمكن وصفها ، ولا تماثيل مشهورة ، ولا هو كتاب سياسى كما كان كتاب أندريه جيد « رحلة إلى الكونغو » سياسيا ، ولا هو كتاب مغامرات على غرار كتب بيتر فيلمنج ، لو كان الكتاب مغامرة فهو مغامرة ذاتية فقط ، ثلاثة شهور من الصمت الفعلى ، فى بعدك عن أن يتصل بك أحد . أعطانى هذا التفكير مفتاحا إلى الشكل الذى أحتاحه ، هذه الرحلة - البطيئة التى تفرح القدمين من المشى فى مناطق داخلية غير معروفة - ستكون مثيرة للإهتمام فقط إذا وانتهت رحلة أخرى . وانها ستفقد تفاهتها بكونها يوميات لرحالة فقط ، إذا أصبحت شخصية تماما .

وليس ميزة أن يكون - الأنا - الراوى فى هذا الكتاب شخصية غير خيالية ، والطريقة الوحيدة للتعامل مع الأنا هو أن تجعله مجردا ، وعلى ما يبدو فقد تجاهلت رفيقتى فى هذه الرحلة وزودت السرد الذى بلا أحداث بالذكريات ، والأحلام وتداعى الأفكار ، وإذا أصبح الكتاب أكثر ذاتية من ناحية ، فقد أضحت الرحلة أكثر عمومية إذا صدقنا كلام يونج بأننا نتقاسم أحلامنا . لم يكن هذا الشكل جديدا بالنسبة لى ، فإن فكرة كتابة كتاب من الألف إلى الياء كانت دائما تخيفنى ، فالتسلسل الرتيب يزعجنى ، ودائما أكسر استمرار أو تواصل القصة بذكريات شخصيتى الرئيسية ، بالضبط كما أفعل الآن بكسر تواصل الرحلة بذكريات الأنا عنها .

مرت أكثر من أربعين سنة منذ كتبت ذلك الكتاب ، ولا أستطيع الآن تحمل قراءته كاملا مرة ثانية (آخر مرة قرأت فيها الكتاب بدقة كانت سنة ١٩٤٥ بعد عودتى من مدينة فريتاون حين كتبت مقدمة لطبعة جديدة) .

فكرت الآن أن أقوم بتجربة نفسية صغيرة ، توضح كيف أن حادثة مسجلة فى يومياتى ، قد تغيرت عند كتابتى للكتاب ، ثم كيف بدت هذه الحادثة نفسها من وجهة طرف ثالث هو ابنة عمى . ثلاثة أطراف لأنى أنا كاتب اليوميات غير أنا كاتب الكتاب ، لقد كنا شخصين مختلفين . قرب نهاية الرحلة ، بين جانتا والبحر ، وقعت مريضا . كنا لا نمشى أقل من ١٥ ميلا فى اليوم ، وكنت غير معتاد على الجو الذى كان حارا

خائفا خلال ساعات النهار ، وفي الليل تكون البرودة شديدة حتى أن بطانيتين لا تكفيان رغم نومنا داخل كوخ من أكواخ سكان المنطقة . أصررت على المشى ، لأن الأمطار كانت تهددنا ، وإذا هطلت يصبح من الصعب اجتياز وسط ليبيريا ، لم تدرك ابنة عمى ضرورة الإسراع ، وظننت أن هذا المشى الذى أجبرها عليه هو أحد أعراض توتري العصبى المرتبط بمرضى ، وذات ليلة عند وصولنا لحدى القرى وقعت مريضا . وهذا ما وجدتنى قد كتبتة فى يومياتى :

« يوم طويل متعب حتى وصلنا بلدة زيغى ، بدأنا الساعة ٦,٤٥ واستغرقنا ثمانى ساعات ونصف الساعة فى رحلة طويلة بطيئة سيرا على الأقدام ، بط فى بركة ماء . ارتفعت درجة حرارتى وذهبت إلى الفراش . ارتفعت أكثر وأنا فى الفراش . كنت أعرق طوال الليل وأنا أنام عاريا وسط البطاطين . أخذت جرعة قوية من أجل معدتى . عاصفة رعدية . ظل على الناموسية ، مصباح الأعصاب بضوئه الشاحب ، زجاجة الويسكى الفارغة فوق صندوقه المجوف .

لم أكتب الكثير ، لكن يوميات اليوم التالى كانت أقل :
« العلبة الأخيرة من البسكويت ، العلبة الأخيرة من اللبن ، القطعة الأخيرة من الخبز » .

فلنقرأ ما كتبتة ابنة عمى فى كتابها عن تلك الليلة التعيسة :
« كان جراهام يترنح حين وصلنا بلدة زيغى . يتعثر كأنه مخمور . لا يتركه الحمالون يستريح طالما بقى مستيقظا ، كالعادة يأتون إليه بكل مشاكلهم ، رتبت الأمر باقناعه بالذهاب إلى الفراش ، حرارته مرتفعة جدا ، أعطيته المزيد من الويسكى وأملاح ابسوم ، وغطيته بالبطاطين راجية الله أنى أفعل الصواب .

تعيششت وحدى بينما صوت الرعد يدوى ، وكان الأولاد يخدموننى بوجوه مقطبة ، فالفكرة نفسها تدور فى أذهاننا جميعا ، جراهام سيموت ، ولم أشك لحظة واحدة فى ذلك ، فهو يبدو كالميت فعلا ، الجو العاصف أصابنى بالصداع وأصاب أعصاب الرجال بالتوتر ، كنت أسمعهم يتراشقون بالكلمات اللاذعة ، ولم أتدخل .

قست درجة حرارة جراهام ثانية ، وجدتها قد ارتفعت أكثر ، واستولى على هدوء غريب لفكرة موت جراهام ، وذعرت لعدم احساسى بأية مشاعر

نحو موته ، وأوحى لى عقلى انى مضطربة وغير طبيعية ، لكنى بالفعل كنت متعبة جدا ، وساعدنى على ذلك التركيز على الجانب العملى من المسألة ، كنت عاجزة عن الإحساس بأى شىء آخر . خططت بهدوء كيف سأدفنه ، وكيف يمكننى الوصول إلى الشاطئ ، وإلى من سأرسل برقيات ، لم أكن خائفة من الإستمرار وحدى ، لأنى أدرك انه بوجود الدليل « أميدو » سأكون آمنة تماما . أقلقنى أمر واحد فقط وبشكل غير طبيعى ، جراهام كان كاثوليكيًا ، وخطر على ذهنى المضطرب المتعب انه يجب أن أوقد شموعا ، ولا أدري لماذا ، لكنه إحساس غامض انتابنى بأن روحه لن تجد السلام إذا لم أفعل ذلك . وشغلت ذهنى هذه الفكرة طوال الليل ، وبدت لى مهمة لدرجة كبيرة .

خرجت أتمشى فى القرية ، كانت قرية صغيرة وجميلة ، أستمتع بمشاعر الود التى يبديها الاهالى نحوى ، جاء معى لأمينًا ومارك ، أخبرتهما أنى فى حالة لا تسمح لى بالحديث ، ويفهم يحدان عليه تراجعًا عشر ياردات خلفى ، مسافة تعطينى احساسًا بأننى وحدى ، وفى الوقت نفسه تشعرنى بأنهما هناك لحمايتى . وبقي أميدو قرب جراهام على مسافة تتيج له أن يسمعه لو تكلم .

كانوا جميعًا يبذلون جهدهم لاشعارى انه مهما حدث فهم لم ينسوا أنهم أعطوا كلمة فى فريتاون بحمايتنا حتى نهاية الرحلة . وفى تلك الليلة فقط ، فى قرية زيجى ، أدركت كم أنا مهتمة بهؤلاء الاولاد ، وكم هم أصدقاء مخلصون ومفيدون ، وانفجرت العاصفة ، فأسرعت إلى الكوخ والمطر ينهمر . كان الكوخ كبيرًا وينقسم إلى غرفتين ، قبل ذهابى إلى الفراش القيت نظرة على جراهام ، كان فى إغفاءة قلقة ، يتمتم لنفسه ، وغارقًا فى عرقه .

فى الصباح ، ولدهشتى الكبيرة ، وجدت جراهام لم يمت ، ذهلت وحملت فيه للحظات دون كلام . دخلت غرفته متوقعة أن أراه يهذى أو يعانى سكرات الموت ، لكنى وجدته مستيقظًا ومرتبًا ملابسه ، كانت خدوده غائرة ، وهالات سوداء تنتشر تحت عينيه ، ولحيته القصيرة لا تصيف جمالا لصحته المتوقعة ، لكنه كان أكثر طبيعية ، فقد اخفى البريق الغريب القاسى الذى لمع فى عينيه فى اليوم السابق ، قست درجة حرارته فوجدتها دون المعدل الطبيعى ، قال : يجب أن نسرع بالسير فانا

بصحة جيدة .

سألته : ألا تستريح ليوم واحد فقط ؟

قال بنفاد صبر : لا . يجب أن نهبط إلى الساحل . كان يتوق للوصول إلى الساحل كالحاج الذى يتوق للوصول إلى المدينة المقدسة .

خرجت وجمعت الأولاد وسألتهم عن المسافة إلى « جراند باسا » .

قال مارك : يومان ، وقال لامين : أسبوعان .

قلت يا إلهى وسألت رئيسهم كم تبعد جراند باسا ؟ ابتسم ابتسامته الغامضة الجميلة وقال بلطف : بعيدة جدا .

وردد الحمالون ككورس غاضب : « بعيدة جدا .. بعيدة جدا » .
لا بد لى أن أعترف ان سرد ابنة عمى أكثر احتفاظا بشكل قصة المغامرة من بضعة الأسطر التى كتبتها بالقلم الرصاص ، لأن الرحلة العبية التى بدت لى مملة جدا آنذاك ، كانت عند استعادتها تبدو كمغامرة لشاب فى الحادية والثلاثين لم يسافر قط إلى أفريقيا . وقتاة مثله فى الثالثة والعشرين . ولكن كيف كان انعكاس هذا الحدث على « الانا » الثانى حين رويته فى الكتاب ؟

وجدت لدهشتى - لأنى الآن لا أذكر إلا القليل عن تلك الليلة - أن الانا قد شاركت ابنة العم خوفها ، هاهى ذى الفقرة التى كتبتها فى كتابى « رحلة بلا خرائط » عن تلك الليلة :

« لا أذكر شيئا عن الرحلة الطويلة البطيئة إلى قرية زيغى ، وأذكر القليل عن الأيام التالية . كنت منهكا لدرجة أنى لم أكتب إلا أسطرا قليلة فى يومياتى . أمل ألا أكون متعبا بهذه الدرجة مرة ثانية . أذكر انطبعا عن غابة لا نهائية ، وتلال تبرز فجأة حتى يمكننا أن نلمح من فوقها طرفى الغابة الضخمة كحوت كبير يتجه إلى الشاطئ . وهناك مجرى ماء خارج بلدة زيغى يشق منحدرًا ، وبضع بطات تعوم تضفى جوا انجليزيا حولها بشكل مدهش ، أذكر أنى حاولت أن أجلس لأستريح قليلا لكن كان على أنى أتعامل مع زعيم البلدة من أجل الطعام للحمالين ، وحين حاولت أن أستريح ثانية أجبرت أن أؤجل ذلك للبحث عن قطع النقود من ذات الثلاثة بنسات (حيث أن الحمالين فى ليبيريا لا يعرفون قيمة أعلى منها .. كما انهم يطلبون أن يكون على القطع صورة الملكة فيكتوريا) التى يحتاجها الطباخ لشراء دجاجة ، واضطر للقيام ثانية

لأعالج تقرحات في قدم أحد الحمالين ، لم أستطع الوقوف بعد ذلك ، شربت ملعقتين من ملح ابسوم مع كوب من الشاي الثقيل (أنهينا حليبنا المملح منذ فترة طويلة) وتركت لأبنة عمى معالجة أى مشكلة تنثور . كانت درجة حرارتي عالية ، ابتلعت عشرين حبة من الكوينين مع كأس من الويسكى ، خلعت ملابسى ولففت نفسى بالبطاطين تحت الناموسية وحاولت النوم .

هبت عاصفة رعدية ، وهى الثالثة التى تواجهنا فى أيام قليلة ، لم يكن لدينا وقت لنضيقه إذا أردنا وصول الشاطئ فى وقت مناسب . استلقيت فى الظلام خائفا كما لم أكن من قبل . لم يكن هناك جردان ، لكنى أمسكت ببرغوث ضخم عند أصبح قدمى الكبيرة حين حاولت تجفيف نفسى ، فقد كنت أعرق كما لو أنى مصاب بالأنفلونزا ، لم أبق جافا لأكثر من ١٥ ثانية ، لم يكن حولى سوى المصباح الذى يرسل ضوءا خافتا فى صندوقه المجوف . وبجانبه زجاجة ويسكى قديمة مملوءة بالماء الدافئ المقطر .

الحت على ذكرى فان جوخ وجسمه يشتعل بالحمى ، قال إن عليك أن تبقى مستلقيا أسبوعا على الأقل فلا خطر من الملاريا إذا استلقيت فترة كافية ، لكنى لا أحتفل فكرة البقاء أسبوعا هنا ، الملاريا أو غيرها لأبد من السفر فى اليوم التالى ، وكنت خائفا .

لم تدعن الحمى أنام على الإطلاق ، ولكنها فى الصباح كانت قد خرجت مع العرق ، وغدت درجة حرارتي دون المعدل الطبيعى ، والأهم أن الملل الذى انتابنى فى رحلة السير الطويلة البطيئة كان قد زال ، كما اكتشفت أثناء الليل ، شيئا لفت انتباهى ، واثارتى ، اكتشفت أنى أحب الحياة ، وكنت أظن قبل ذلك أنى أرغب فى الموت ، وبدا لى تلك الليلة أن هذا اكتشاف مهم ، بدا لى أنه تحول فى شخصيتى ، ولم يسبق لى أن جربت تحولا من قبل (لم أتحول إلى الإيمان الدينى بل اقتنعت عقليا بمناقشات نوعية معنوية بذلك) .

لولم تكن تلك التجربة جديدة على ، لعرفت انها لن تستمر ، وحتى لو استمرت فلن تكون أكثر من ذرة صغيرة مترسبة فى قاع المخ ، ولكن لهذه الذرة قيمة ، فتذكرها يعطى بعض القوة فى حالة الطوارئ ، يمكننى القول وقتها أنى فى بلدة زيجى قد اقتنعت تماما أن مجرد الحياة

فقط شيء جميل ومرغوب فيه .

هل تعلمت درس بلدة زيجي ؟ أشك في ذلك .

كان من عادة الروائيين الفيكثوريين أن يعطوا موجزا لمصائر شخصياتهم الثانوية ، بالنسبة للشخصيات في هذا الكتاب لم أفعل إلا القليل ، وهذا القليل لم يكن سارا ، لا مواليد ولا زيجات سعيدة . بعد ست سنوات حين عدت إلى فريتاون زمن الحرب ، قابلت يوما « لامينا » . لم يعد ولدا صغيرا يلبس الشورت ويضع على رأسه « كابا » مزينا بشارة قرمزية ، كنت قد بحثت عبثا عن « اميدو » الذي كان مشرفا على الأولاد ، الذي جعل الرحلة ممكنة وكان بالنسبة لي بلا أخطاء ، لكن أول ما سألت عنه كان الطباخ العجوز الذي لم أستطع تذكر اسمه ، والذي كنت أراه فقط كشبح في لباس طويل أبيض يتلاشى ببطء وهو يخطو عبر الدغل وفي يده سكين المطبخ ، فكرت بأنه لابد أن يكون عجوزا جدا هذا لو كان حيا ، قال « لامينا » منفجرا بالضحك من سخرية الحياة : الطباخ العجوز بخير ولكن « اميدو » مات .

ثم شخصية أخرى عرفتھا ، ذلك الألماني الغامض الذي ظنه مدير البوليس في كايلاهون خطأ دليلا من ليبيريا جاء ليرشدنا إلى « بولاهن » . « مرت فترة طويلة قبل أن يفكر أحد في سؤاله إذا كان هو الدليل الليبيرى ، ولكنه لم يكن ، اختفى الدليل الحقيقى ، والغريب أن الألماني كان يبحث عن مكان ينام فيه ، أسقط في كايلاهون وكأنها قرية ألمانية فقط كان متأكدا أن بوسعه أن يجد فندقا ، كان بريئا وكتوما ولطيفا ، قال انه جاء من الجمهورية وهو عائد إلى هناك ، ولم يعط سببا لماذا جاء ولماذا يعود ، أو ماذا يفعل في أفريقيا على الاطلاق . اعتبرته منقبا عن الذهب ، لكن ثبت أخيرا أن ليس له علاقة بالتعدين لا في الذهب أو الماس ، كان فقط محبا للمعرفة وجاء ليتعلم . يجلس في كرسيه لا يلقي بالا إلى أحد ، وإذا سألته سؤالاً يضحك ضحكة مبتسرة ولا يرد (فتظن أن سؤالك سخيف أو غير معقول) ، ثم يجيبك بعد أن تكون قد نسيت السؤال . كان صغير السن على الرغم من لحيته ، وكان يثير حوله جوا رستقراطيا رغم لباس البحر الذى يرتديه ، كان أحكم من أى فرد منا فهو الوحيد الذى كان يعرف ما الذى يريد أن يتعلمه ، ويعرف مدى حدود جهله بالضبط . كان يتحدث بلغة المندو ويتعلم لغة قبائل البوزى ويتكلم قليلا

من لغة البيلي .. وكل ذلك يستعرق وقتا .
ومرت سنوات كثيرة قبل أن أعرف مصيره . ووصلتني أخباره غامضة
كأفعاله ، كان ذلك سنة ١٩٥٥ ، كنت أجلس في فندق في بلدة كراكو في
بولندا ، أشرب مع روائي بولندي وأتحدث بحذر ، لم يكن جومولكا قد
استلم السلطة بعد ، كانت ماتزال بولندا الستالينية ، كان الوقت
متأخرا ، وقد جفنا حين دخل رجل علينا ، فقد خطر بذهننا الإنطباع
نفسه انه البوليس السرى ، كان واضحا أن الرجل ألماني ، نظر إلينا
واحدا بعد الآخر ثم سألني : مستر جرين ؟ قلت : نعم .
قال : أنت عرفت أخى في ليبيريا .

بحث في ذاكرتي عثا ، قال : سار معك إلى بولاهن . تذكرت وسألته
أين هو الآن ؟ قال : لقد قتل على الجبهة الروسية سنة ١٩٤٣ .
واضطرنى الذوق أن أطلب منه أن ينضم إلينا على زجاجة الويسكى ،
فلم تكن لدى الرغبة في الجلوس مع ألماني في بولندا وذكرى الحرب تحوم
فوقنا ، رغم أن رفيقى الروائى والذى كان ضابطا بولنديا وعضوا في
المقاومة السرية ، كان أقل حساسية من رفقة الألمانى ، كنا قد ذهبنا ذلك
اليوم إلى « زاكوبين » وأخبرت الرجل بذلك فعلق على جمال المكان بقوله :
« مكثت هناك سنتين أو ثلاثا خلال الحرب » قالها بطريقة عرضية
كانجلىزى يتحدث عن اجازة قضائها في سويسرا . وأثبت الرجل انه
غامض كأخيه ، من الغريب أن يمكث جندى ألماني في مكان واحد هذا
الوقت الطويل أثناء الحرب ، لكن كانت هناك مهمات أخرى غير الجيش
للألمان في تلك الفترة . وسألته : ولماذا رجعت إلى بولندا ؟
قال : لأرسم لوحات .

٢

أربع سنوات ونصف السنة من مشاهدة الأفلام عدة مرات
أسبوعيا ، أكاد لا أصدق هذه الحياة في تلك الأيام البعيدة من
الثلاثينات . طريقة حياة تكيفت معها برغبتى تماما وباحساس من
المتعة . أكثر من أربعمئة فيلم وكانت ستصبح أكثر ، لو لم أعان في

الفترة نفسها من ضغوطات أخرى . كان لابد من انجاز أربع روايات عدا كتاب رحلات عن المكسيك أخذنى بعيدا عدة أشهر عن تلك المتع الساحرة من الترف والتبذير ، وأتساءل متعجبا كيف كتبت كل تلك المراجعات لتلك الأفلام .

أذكر حين كنت أفتح المظاريف التي تحوى الدعوات المذهبة لحضور عروض الافتتاح الصباحية المخصصة لرجال الصحافة ، بإحساس من حب الإستطلاع والتوقع ، رغم أنى فى تلك الصباحت أكون مشغولا بعمل آخر ، لكن هذه الأفلام كانت هروبا ، نعم هروبا من تلك المشكلة الجهنمية فى معالجة الفصل السادس وتلك الشخصية الثانوية فى الرواية والتي ترفض بعناد أن تصبح حية على الورق . هروب لمدة ساعة ونصف الساعة ، من الكآبة التي تتساقط بإلحاح حول الروائي الذي عاش أشهراً عدة فى عالمه الروائي الخاص .

واتتني فكرة كتابة مراجعة للأفلام فى حفلة كوكتيل ، بعد الكأس الثالثة الخطرة ، كنت أحدث إلى ديريك فيرشويل المحرر الأدبي لجريدة السيكتاتور ، وكانت الجريدة قد أهملت حتى ذلك الوقت الكتابة عن الأفلام ، وفكرت انه إذا قبل اقتراحي ، فسيكون من الممتع أن أكتب مراجعات لأسبوعين أو ثلاثة ، ولم أتخيل قط أن ذلك المزاج سيستمر لأربع سنوات ونصف السنة ، وينتهي فقط فى عالم مختلف ، عالم الحرب .

وحين عدت إلى ملاحظاتي عن تلك الفترة ، وجدت أن مراجعاتي انتهت فجأة بالكتابة عن فيلم « لنكون الشباب » ، وإذا كان هناك « سرحان » فى كتابة تلك المراجعة ، فلأنى ما أن بدأت كتابتها فى صبيحة يوم ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ حتى دوت أول صفارة انذار بغارة جوية ، فالتقيت بالورق جانبا وهرعت لألقى نظرة على الخراب الذى سيحل بلندن ، رأيت امرأة تسير وهى تسحب كلبا وتتمهل قليلا عند عمود نور ، ثم صفارة الأمان وعدت إلى هنرى فوندا .

لم تكن هذه المراجعات هى أول ما كتبته عن الأفلام ، فأثناء دراستي فى اكسفورد ، عينت نفسى ناقدا سينمائيا لمجلة « اكسفورد اوكلوك » وهى مجلة أدبية كنا نصدرها مرة واحدة فى الفصل الدراسى . كتبت فيها نقدا لأفلام مثل ظلال منذرة ، ضباب الخريف ، طالب فى براغ ، وكلها

أفلام صامطة من العشرينات مازلت أذكر مشاهد كاملة منها ، كما كنت قارئاً متحمساً لمجلة « كلوز أب » التى كان يحررها ماكفرسون وبرابر ، وتطبع فى سويسرا ، وكان مارك اليجر مراسلها فى باريس ، كما كان يودفكين يشارك بكتابة مقالات عن المونتاج . أرعبنى ظهور الأفلام الناطقة ، بدت لى أنذاك انها نهاية للفيلم كشكل فنى ، بالضبط كما نظرت بشك مماثل للأفلام الملونة بعد ذلك ، فكتبته سنة ١٩٣٥ بأن الألوان تسبب أضرارا فادحة لوجوه النساء ، فكلهن ، صغارا وكبارا ، لهن البشرة الصحية نفسها التى لوحتها الشمس .

وللطرافة ، فإن ما جعلنى أتحمس للأفلام الناطقة ، فيلم مقتبس عن قصة بوليسية لشستر موريس ، ولأول مرة بدأت أنتبه للأصوات ، فحتى ذلك الوقت كان كل حذاء يصدر صوتا ، كل أكرة باب لها صرير ، حتى توقعت عند رؤية الفيلم الذى نسيه الجميع الآن « بيكى شارب » ، أن عهد السينما الملونة أضحى قريبا .

عند إعادة قراءة هذه المراجعات التى مضى عليها أكثر من أربعين سنة ، أجد أن هناك تحاملا فى كثير منها .

كانت لى تحفظات أساسية على جريتا جاربو التى شبهتها بمهر عربى جميل ، وعلى ألفرد هتشكوك لإحساسه غير الكامل بالواقعية ، كان يؤرقنى ، ومازال ، افساده لفيلم « ٣٩ درجة » بلا مبرر ، ومازلت أعتقد انى على حق (مهما كان رأى السيد تروناو) فيما كتبت بأن « أفلامه تتكون من سلسلة من المواقف الصغيرة الميلودرامية والمسلية : زر القاتل يقع على لوحة لعبة البكاراه ، يد عازف الأرغن المخنوق تطيل النغمة فى الكنيسة الخالية .. يبنى بشكل ميكانيكى دون حماس هذه المواقف الخادعة دون أن يلقى بالا لتنافرها وتعارضها ونهاياتها الفضفاضة ولعبة التحليلات النفسية العبثية ، ثم يلقى بكل ذلك ، مواقف لا تعنى شيئا » ولا تؤدى إلى شيء .

وكانت الثلاثينيات أيضا فترة انتاج أفلام السير المحترمة رودس زولا ، باستير ، بارنيل .. وما شابه ، والأفلام التاريخية الرومانسية ، التى عبرت عن الحياة بشكل ساخر على يدى سيسيل دى ميل . كنت أفضل أفلام الجريمة ، وأفلام الغرب الأمريكى ، والفارس ، والأفلام التجارية ، وسعدت أنى وجدت فى إحدى المراجعات لأحد الأفلام

التجارية ترحيبا حارا بظهور نجمة جديدة هي أنجريد برجمان . واكتشفت آنذاك أن هناك مخاطر لعملية النقد السينمائي . ففي إحدى المناسبات ، فتحت خطابا لأجد بداخله قطعة خراء ، ولازمني وهم بأنها قطعة من خراء ارستقراطي ، فقد كتبت قبل أن يصلني الخطاب بفترة قصيرة مقالا ساخرا وقاسيا عن ماركيز فرنسي أنتج فيلما تسجيليا لعب فيه دور البطولة .

بعد ثلاثين سنة من الحادثة وعلى عشاء برجوازي في باريس جلست قبالة ذلك الماركيز وسحرني حديثه ، وفكرت أن أسأله عن الحقيقة ولكني تهييت من فخامة المكان والأثاث . ثم هناك الإنذار بالتشهير والقذف من شيرلى تمبل . كانت مراجعتي لفيلم « وى ويلي وينكى » الذى قامت ببطولته ، هى التى دفعت شركة فوكس للقرن العشرين لرفع القضية ضدى ، وكنت قد اتهمت شركة فوكس بأنها تستغل مس شيرلى تمبل (كان عمرها آنذاك تسع سنوات) لأغراض غير أخلاقية ، وقلت « ان لديها غنجا مغريا يفتن الرجال متوسطى العمر » ، وأرسل قاضى القضاة أوراق القضية إلى المدعى العام ، ومنذ ذلك الحين فتحت لى ملف فى سكوتلانديارد كانت الدعوة من شيرلى تمبل وإدارة شركة فوكس وأصحاب شركة فوكس ضد مجلة الليل والنهار وأصحاب المجلة والطابعين والناشرين للمجلة ، وبالطبع ضدى بسبب مقال كتبه مستر جرين ونشره فى عدد المجلة فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٧ .

وقد تمت تسوية بين المجلة وشركة فوكس ، أعلنت التسوية فى المحكمة ، وهى تقضى بأن مس شارلى تمبل تنازلت عن القضية مقابل ٢٠٠٠ جنيه لها ، و١٠٠٠ جنيه لإدارة شركة فوكس و٥٠٠ جنيه لأصحاب الشركة ، وقال الادعاء : أن أصحاب مجلة الليل والنهار التى تطبع فى لندن ، والناشرين والطابعين شركاتهم محترمة وسمعتها لا يرقى إليها الشك وهم بالتالى غير مسئولين فى هذه القضية . وأما مقال جرين فهو مقال بذىء ومرعب ولا يمكن قراءته فى المحكمة ، ويكفى النظر إلى الصورة المرفقة مع المقال لتفهم ما كتب عن الطفلة ، ومن الحق القول ان كل موزع محترم للجرائد فى لندن رفض توزيع هذا العدد من المجلة . ولا يجب أن تؤخذ القضية ببساطة ، فالطفلة دخلها كبير وشركة فوكس ثرية ، ولذا فإن مبلغ الـ ١٥٠٠ سيخصص للأعمال الخيرية ،

والـ ٢٠٠٠ جنيه التي حكم للمس شيرلى بها ستكون تحت حساب تكاليف القضية ، ولو اقتصر الأمر على النقود لكان من الصعب تقدير المبلغ الحقيقي للتعويض ، وقال الدفـلـع : انه يرغب نيابة عن موكله فى التعبير عن اعتذاره العميق لمس تمبل للألم الذى يمكن أن يسببه لها المقال لو أطلعت عليه (لم تكن شيرلى تمبل تعرف شيئا عن المقال) ، ويعتذر أيضا لشركة فوكس ، ويعترف بأن نقد الفيلم كان قاسيا وظالما ، وأن رب كل أسرة يستطيع اصطحاب عائلته لمشاهدة الفيلم ، ويعتذر أيضا نيابة عن مستر جرـين ، ويؤكد بأن الناشرين لم يروا أو يقرأوا المقال قبل نشره .

وسأل القاضى : من كاتب هذا المقال ؟

- السيد جراهام جرـين .

- هل هو ضمن سلطتنا القضائية ؟

- لا أعرف يا سيدى القاضى .

وقال محامى دار الطباعة بأنه يعترف بأن المقال ما كان يجب أن ينشر ، وأن التصريح بتوزيع الفيلم عالميا يدحض ما جاء فى المقال وأنه على استعداد للقيام بما يطلب منه لإصلاح أى ضرر على قدر استطاعته .

وسأله القاضى : أين مستر جراهام جرـين ؟

- ليس لدى معلومات عن ذلك .

- هذا المقال لا أخلاقى وانتهاك لحرمة القانون لكنى أوافق على

ما جاء فى التسوية المرفقة . سحبت الدعوى .

* * *

بين نقد الأفلام وكتابة السيناريو لها ، خطوة صغيرة فقط ، ولكل مخاطره بالطبع ، لكن بالنسبة لى كان ضرورة أنذاك ، فلدى زوجة وطفـلـان على أن أعيلهم ، كما انى ظلت مدينا للناشرين حتى بداية الحرب . دأبت على مهاجمة الأفلام التى ينتجها الكسندر كوردا بشكل متواصل ، حتى أصبح لديه حب استطلاع لمقابلة عدوه . فطلب من وكيل الأدبى أن يحضرنى إلى استديوهات دنهام ، حين أصبحنا وحدنا ، قال لى : هل عندك فكرة فيلم ؟

لم يكن لدى ، لكنى بدأت أرتجل له فكرة لفيلم مربع « فى الساعات الأولى من صباح أحد الأيام ، وعلى الرصيف رقم ١ فى محطة بادنجتون ،

والرصيف خال إلا من رجل ينتظر آخر قطار إلى ويلز ، نشاهد تيارا من الدم ينساب من تحت معطف المطر الذى يرتديه مكونا بركة صغيرة على الرصيف » .

فوقفت قليلا لأفكر ، فقال : ثم ؟
قلت : سيستغرق سردها وقتا طويلا. ثم أن الفكرة تحتاج لمزيد من العمل .

تركته بعد نصف ساعة ، لأعمل فى اعداد ذلك الفيلم ثمانية أسابيع نظير مرتب كبير ، وهكذا ظهر أول اسوأ أفلام كوردا وأقلها نجاحا (كل ما أذكره من الفيلم الآن هو عنوانه البيغاء الأخضر) ، لكن بدأت بينى وبينه صداقة متينة ، استمرت وتعمقت حتى وفاته ، على الرغم من مراجعاتى التى استمرت فى عدم تعاطفها مع أفلامه . لم أقابل شخصا مثله يحمل من الخبث أقله ، وهو منتج الأفلام الوحيد الذى عرفته والذى يمكن أن تقضى معه أياما وليالى فى نقاشات طويلة دون أن يأتى ذكر للسينما فى الحديث ، لذلك تعاطفت معه وأحببته .

بعد سنوات حين انتهت الحرب ، كتبت له فيلمين « المعبود الذى هوى » « والرجل الثالث » وأمل أن أكون قد عوضته قليلا عن الفيلم الفاشل الذى كتبته له .

لوبيت ناقدا للأفلام ، لكنت تجربتى القصيرة المضحكة فى هوليوود ذات فائدة كبيرة لى ، لأنى تعلمت أول ما تعلمت ما الذى يفعله المنتج بالمخرج ، والمدى الذى يتحمل فيه المخرج آراء المنتج أحد أصعب أعمال الناقد ، هو نجاحه فى توجيه مدحه أو قدحه إلى الرجل المناسب - المنتج أو المخرج - .

اشتري ديفيد سلزنك - الذى اشتهر بإنتاجه أحد أعظم الأفلام ، ذهب مع الريح - حقوق توزيع فيلم الرجل الثالث فى أمريكا ، وبنص العقد الذى وقعه مع كوردا ، كان على مخرج الفيلم أن يأخذ رأيه فى السيناريو قبل بدء التصوير بستين يوما . وهكذا سافرت مع كارول ريد مخرج الفيلم إلى أمريكا لمقابلة سلزنك . كانت المقابلة غير مشجعة ، ومازال الحوار الذى دار بيننا حيا فى ذاكرتى كيوم حدوثه ، بعد تحيات قصيرة ، بدأ النقاش الحاد .

قال . أنا لا أحب عنوان الفيلم .

قلنا : لا تحبه ! ظننا ..

- اسمعوا يا أولاد .. من سيذهب بحق الجحيم إلى فيلم اسمه الرجل

الثالث ؟

قلت : انه عنوان صغير ويسهل تذكره .

هز رأسه وهو يقترب منى : يمكن أن تختار إسما أفضل يا جراهام ..

أنت كاتب وكاتب جيد وأنا لست كاتباً وما أريده الآن .. ليس صواباً ، هل تفهم ؟ بالطبع ليس صواباً ، فأنا لا أقول انه صواب ، ولكنك كاتب وأنا لست كذلك .. ما أريده شيئاً .. مثل « ليلة في فيينا » عنوان سيشد الجمهور .

قاطعه كارول ريد بسرعة : أنا وجراهام سنفكر في الأمر .

وهي جملة يكررها ريد كثيراً للتخلص من مثل هذه المواقف ، كما أن العقد لا يلزمه بالأخذ بنصيحة سلزنك بل بالتشاور معه فقط .

وأضاف سلزنك : كما أن القصة لن تنجح يا أولاد ..

لن تنجح .. انها مجرد سفسطة .

- سفسطة !!

- ذلك الذى تتعلمونه في مدارسكم الإنجليزية .

قلت : لا أفهم قصدك ..

قال : هذا الرجل الذى ذهب إلى فيينا بحثاً عن صديقه .. فوجد أن

صديقه قد مات .. صبح ؟ لماذا لم يرجع إلى بلده وينتهى الأمر ؟

بعد كل تلك الأشهر من الكتابة ، فإن وجهة النظر المدمرة هذه تركتني

لا أخرى جواباً .

هز رأسه الرمادى وهو يتجه نحوى « انها مجرد سفسطة يا بنى »

وبدأت أناقشه بغير حماس « ولكن هذه الشخصية لديها دافع الإنتقام

لقد ضربه شرطى من البوليس الحربى » ثم عرفت على الورقة الأخيرة

قائلاً « ثم انه خلال ٢٤ ساعة وقع في حب فتاة صديقه هارى لايم » .

فهز رأسه بأسف قائلاً : « لماذا لم يعد إلى وطنه قبل ذلك ؟ » .

وكان ذلك فيما اعتقد نهاية اجتماعنا في اليوم الأول ، وانتقل سلزنك

إلى هوليوود وتبعناه إلى جناح فخم في سانتا مونيكا . وخلال اللقاء التالى

مرت أوقات بدا لي فيها أن هناك سبباً وجيهاً .. وقاسياً أيضاً في نقد

سلزتك . بالتأكيد هناك خطأ ما في التتابع أو المواصله في السيناريو ، نسيت مؤقتا الدرس الذى تعلمته كناقذ سينمائى وهو أن التتابع المنطقى للأشياء غالبا ما يكون مخالفا لطبيعة الحياة ، وقد قال جان كوكتو مرة أن الأخطاء في التتابع المنطقى في فيلم ما تنتمى إلى اللاوعى الشعرى للفيلم . كانت هناك سكرتيرة تجلس بجانب سلزتك متأهبة بقلمها . حين أكون على وشك الموافقة على نقطة ما ، كان كارول ريد يتدخل بسرعة قائلا : « سأفكر أنا وجراهام في الأمر » .

وهناك لقاء أتذكره على وجه الخصوص لأنه كان الأخير قبل أن نغادر إلى انجلترا . كانت السكرتيرة قد كتبت ٤٠ صفحة من الملاحظات لم يكن فيها تنازل واحد من جانبنا . بدأ اللقاء كالعادة في العاشرة والنصف مساء وانتهى في الرابعة صباحا ، وحين وصلنا سانتا مونيكا مقر اقامتنا كان الفجر يطلع على الباسيفيك .

قال : هناك شيء لا أفهمه في السيناريو يا جراهام .. لماذا بحق الجحيم يقوم هارى لايم بعمل ..

وأخذ يسرد بعض الأفعال الغريبة التى قام بها لايم .
قلت : ولكنه لم يفعل ذلك .

نظر إلى لحظات صامتا في ذهول ، ثم قال :

- يا للمسيح يا أولاد .. اختلط على الأمر بسيناريو آخر . استلقى على الكنبه ، ومضغ حبة من البنزدرين ، في عشر دقائق كان نشطا كعادته .. عكسنا تماما .

نظرت إليه بعطف قبل أن نغادره ، وظلت الصفحات الأربعون في ملفات المخرج كارول ريد دون أن تفتح ، وبما أن الفيلم قد حقق نجاحا ، فإننى أشك أن سيلزتك قد نسى أن ملاحظاته لم تنفذ . حين ذهبت إلى نيويورك بعد ذلك ، دعانى على الغداء لمناقشة مشروع لديه ، قال : جراهام .. لدى فكرة عظيمة لفيلم .. فيلم لن يستطيع كتابته غيرك . كنت حذرا هذه المرة ألا أتناول كأسا ثالثة من المارتينى .

قال : حياة مريم المجدية .

قلت : أسف . لا . إن ذلك ، في الواقع ، ليس خطى . لم يحاول أن يناقشنى ، لكنه قال : لدى فكرة أخرى ستوافقك ككاتوليكي ، أنت تعرف أن العام القادم سيكون ما يسمونه السنة المقدسة في روما ، أريد أن

أنتج فيلما اسمه « السنة غير المقدسة » أفصح فيه كل المحتالين .. وتلك
الجلبة التى يصنعونها ..
قلت : فكرة طريفة .

قال : وسنصوره فى الفاتيكان .
- أشك أن يسمحوا لك .

قال : تأكد انهم سيسمحون .. سنضع شخصية طيبة واحدة فى
الفيلم .

هذه كانت حال تلك الأيام . أسفت على الأفلام الصامتة حين ظهرت
الأفلام الناطقة ، وأسفت على الأفلام غير الملونة حين غزت الأفلام الملونة
الشاشة ، وهذه الأيام وأنا أشاهد الأفلام التى تحوى الدعارة الناعمة ،
أتشوق أحيانا إلى الثلاثينيات المنقضية ، إلى سيسيل دى ميل وحروبه
الصليبية ، إلى الأيام التى كان يمكن أن يحدث فيها كل شىء .

* * *

٣

أنقذتنى رواية « قطار اسطنبول » من العوز مؤقتا ، لكنى بددت
مدخراتى بكتابة رواية « انه ميدان المعركة » التى برغم مديح باوند
وبريشت - ظلت تقريبا غير مقروءة . تليها فى لامبالاة الجمهور رواية
« انجلترا صنعتنى » ، كان ضرورة ملحة ، أن أكتب رواية ناجحة
كروايتى الأولى لو إستطعت . ولم تكن القضية قضية نقود على كل حال .
لقد استمتعت دائما بقراءة الروايات المثيرة ، وبكتابتها أيضا ، كانت
كتبى المفضلة فى فترة مبكرة من شبابى ، روايات جون بوخان ، ولكن
حين عدت إلى كتبه وجدتنى لا أجد المتعة نفسها فى مغامرات بطله
ريتشارد هانيه ، دك من الحوار والمواقف التى انقضى عهدها ، فإن
المناخ لم يعد مناخ صباى . الوطنية فقدت جاذبيتها حتى لتلاميذ
المدارس ، وأول ما تثيره لفظة الامبراطورية فى الذهن حروب بيفر بروك

٥٠

الصليبية ، وكان صعبا أثناء سنوات الكساد تلك أن نؤمن بالأهداف العليا لمدينة لندن أو الدستور البريطاني ، المتظاهرون الجوعى بدوا أكثر حقيقة من السياسيين ، لم يعد العالم عالم روايات بوخان .

الرجل الذى يبحث عن الطرائد فى « بندقية للبيع » الرواية التى بدأت أكتبها ، كان رافن لاهانيه بطل بوخان ، رجلا خرج لينتقم من كل الوسائل القذرة فى الحياة لالينقذ بلده .

بالنسبة لموضوع الرواية لا أذكر الآن اسم أو طبيعة الهيئة التى كانت تحقق آنذاك فى صناعة السلاح الخاصة والمقاجرة به ، هل أصغيت لبعض ما تردد لأنى كنت أكتب بالفعل روايتى ، و أن الفكرة و انتتني بعد أن سمعت تلك الأقاويل ؟ كل ما أذكره هو تلك الأقاويل التى تناثرت حول تلك الاستجابات لبعض الشركات الكبرى التى كانت متورطة فى الموضوع ، أسئلة مهذبة وواهنة وتأجيل بعد تأجيل لعدم توافر الأدلة أو لفقد بعض الأوراق ، كان هناك جو من التراخي من السلطة .

وفى الوقت نفسه كتب شخص ما قصة حياة سير بازيل زاروف ، رجل وغد لكنه مقبول اجتماعيا فى مثل تلك الأيام أكثر من بطل بوخان فى روايته « ٣٩ سلمة » ، لم يكن سير ماركوز فى روايتى هو سير بازل لكنه التشابه فى محيط الأسرة لكليهما واضح .

لم أقابل نموذجا لشخصية ديفيز عميل سير ماركوز فى الرواية ، ولم أقابله قط ، ولكن بعد كتابة الرواية قابلت للمرة الأولى فى حياتى تاجر سلاح متجولا ، كنت أحد راكبين لطائرة صغيرة تطير من ريجا إلى تالين عاصمة جمهورية استونيا آنذاك ، وكنت ذاهبا إلى هناك لأشء سوى الهروب إلى مكان جديد . وحدث أنى كنت أقرأ رواية لهنرى جيمس الرواية نفسها التى أقرأها ، وكان من النادر آنذاك أن تجد شخصا يقرأ هنرى جيمس. وحين ألقىت نظرة على مرافقى فى الرحلة وجدته يقرأ كما يحدث الآن . والتفتت عيوننا كل إلى كتاب الآخر وبدأنا تعارفنا فى الحال . كان رجلا أكبر منى بكثير ، وكان يعمل قنصلا لبريطانيا فى تالين ، وحيث انه لم يكن مشغولا جدا ، وغير متزوج ، فقد قضينا وقتا طيبا معا ، خاصة حين لم أكن منهمكا فى البحث عن ماخور كانت تديره عائلة واحدة بالتوارث فى البيت نفسه ولدة ثلاثمائة سنة (صدمنى القنصل بخوفه من النساء) ، لم يكن المرء ليتوه فى بحثه فى تلك المدينة

الصغيرة الرائعة ، ومع ذلك فشلت في العثور على البيت وحين سألت أحد السقاة في فندق تالين الفحم . حار لاهتمامى بالبيت الأثرى وقال . كل ما تريده يمكن ترتيبه هنا .

كان رجلا فريدا بين تجار السلاح ، لأنى أشك في أن أحدا من زملائه في بيع السلاح ، كان سيدعى انه سيس انجليكى سابق ، وانه أصبح قسيسا في الجيش حين بدأت الحرب العالمية الأولى ، ثم تحول إلى الكاثوليكية ، وكان على وشك أن يستقبله رئيس أساقفة زغرب في الكنيسة الرومانية ليصبح عضوا فيها ، لولا حدوث غارة جوية دفعت رئيس الأساقفة للهروب إلى القبر . حين انتهت الحرب وأصبح بلا عمل ، ولرغبته في شيء أفضل ، أصبح تاجر سلاح .

كان رجلا لطيفا جدا ووحيدا جدا ، وكان هنرى جيمس سيجد فيه شخصية جيدة (كان سيلفه بطيات من الغموض) ، شيء يشبه قليلا شخصية رالف توشيه بطل رواية صورة سيدة التى كنت أقرأها في الطائرة .

كان يتقاضى مبلغا يعادل ستمائة جنيه استرلينى كقنصل ، لكن في تلك الأيام كانت تكاليف المعيشة في تالين منخفضة جدا ، كان لديه شقة صغيرة في العاصمة ، تعتنى بها خادمة يومية ، وبيت صغير في الريف ، ومع ذلك كان يترك نصف دخله مع أمه في إنجلترا .

أصبحنا أصدقاء حميمين لمدة خمسة عشر يوما والفضل لهنرى جيمس ، ولا أعرف ما حدث له بعد ذلك ، لابد أنه فقد بيته حين تقدم الروس ، كانت أياها محفوفة بالخطر وعيون الجميع على ألمانيا .

وعلى غير انتظار ، بعد ثلاثين سنة من ذلك التاريخ ، تلقيت رسالة منه ، يذكرنى باهتمامنا المشترك بهنرى جيمس ، وأنه قد بلغ الثمانين من العمر ويود أن يهدينى روايات جيمس في طبعتها الأولى ، وكان ذلك تنويجا لأحد اللقاءات السعيدة - التى حدثت بالمصادفة - في حياتى .

الجزء الأكبر من أحداث رواية « بندقية للبيع » يدور في بلدة نوتوتش ، والتى استخدمتها في وقت لاحق كمكان لمسرحيتى « السقيفة » ، فُتوتش بطبيعة الحال هى بلدة نوتنجهام ، حيث عشت مدة ثلاثة أشهر ذات شتاء ، مع كلب صغير هجين ، أتدرب في صحيفة نوتنجهام كما سردت في كتابى « نوع من الحياة » عن سنواتى المبكرة .

ولا أدري لماذا أحمل حبا خاصا متعصبا لنوتنجهام ، كالحب الذي انتابني لفريتاون بعد ذلك ، كانت أبعد نقطة في الشمال الإنجليزي يذهب إليها وأول مدينة غربية أقيم فيها وحدي بلا أصدقاء .

الشخصية الرئيسية في الرواية هي « رافن » القاتل ، ويبدو لي الآن انه كمخطط أولى لشخصية « بنكى » في رواية « صخرة براييتون » ، كان بنكى هو رافن وقد تقدم في العمر دون أن يبدو عليه الكبر .

المجرم المحروم من العدالة ، يحتفظ في قلبه دائما بحس لانتهاك العدالة ، فجرائمه لها عنده ما يبررها ورغم ذلك يطارده الآخرون ، مع انهم ارتكبوا جرائم أسوأ من جرائمه ، ويزدهرون . العالم ملئ بهؤلاء ، وهم يرتدون أقنعة النجاح ويعيشون في أسر سعيدة ، ومهما كانت الجريمة التي يدفع لارتكابها ، فإن الطفل داخله ، لا يكبر أبدا ، ويظل بطل العدالة العظيم : « العين بالعين ، أعطهم جرعة من دوائهم » . ونحن أطفال عانينا جميعا عقوبات عن أخطاء لم نرتكبها ، لكن سرعان ما يندمل الجرح ، مع شخصية كرافن أو بنكى فإن الجرح لا يندمل أبدا .

إذا كان رافن هو بنكى وقد كبر في العمر ، فإنني أتخيل شخصية « مائر » كضابط بوليس تدرب تحت إشراف المفوض المساعد في رواية « ميدان المعركة » ، ففيه بعض من مزاجه ووقاره ، ولكن ليس في عزوفه عن الزواج .

ماذا يمكنني القول عن باقي شخصيات الرواية ؟ د . يوجيل فيه شيء من طبيب شرطة ذهب إليه مرة في شبابي خائفا من اصابتي فيما كان يسمى آنذاك بتعبير لطيف ساخر مرض اجتماعي ، أخبرني ألا أكل الطماطم ، تحذير مازلت أتبعه حتى اليوم .

غرفته القذرة في شقة في بناية وسط صف من البنائيات المتشابهة ، وطريقته الفظة الماكرة ، كل ذلك علق بذهني وأعتقد اني ألبستها لشخصية د . يوجيل في الرواية .

هناك مشاهد معينة تعجبني في هذا الكتاب ، مثلا ، مشهد التدريب على الغارة الجوية في نوتوتش والذي أتاح لرافن التسلل إلى مكاتب مستر ماركونز . كتبت المشهد سنة ١٩٣٥ ، ولم تكن الحكومة قد وصلت إلى هذه الدرجة من الاستعداد ، الذي أصبح مطلوبا بعد أربع سنوات

أحببت أيضا شخصية أكي وهو الكاهن الذي جرد من سلطته ،
 وشخصية زوجته ، عجوزان شريران عاشا معا بحب مجرد ، لم أختار
 كاهنا إنجليكيا بقصد سيء ، لكنني شككت أن يوجد حب نقى كذلك
 الحب بين قسيس كاثوليكي محروم من الكنيسة وزوجته . رسمت
 شخصية أخرى بعد ذلك في رواية « القوة والمجد » ، شخصية الأب
 جوزيه ، لكنني كإنسان أفضل شخصية أكي المسكين ، فهو لم يكن من
 أولئك الخطاة الذين يقومون بأعمال القديسين ، فإحساسه بالذنب دفعه
 إلى إرسال خطابات لا حصر لها إلى أسقفه ، لتبرير ذاته أو اتهامها ، هو
 ينتمي إلى العالم نفسه المملوء بالجروح والذنوب ، عالم كرافن وبنيكي .

* * *

٤

بدأت كتابة رواية « صخرة برايتون » سنة ١٩٣٧ كقصّة بوليسية ،
 وظلت تعتبر كذلك ، وفي رأيي أن ذلك حكم خاطيء .
 فحتى نشر هذه الرواية ، كنت كأى روائى آخر ، أمدح أحيانا إذا
 نجحت ، وأذم أحيانا كلما أخطأت في مهنتي ، ولكنني فوجئت بعد نشر
 هذه الرواية بلقب بغیض يطلق على بآنى كاتب كاثوليكي . وبدأ
 الكاثوليكيون يعالجون بعض أخطائي برقة متناهية كما لو أنى عضو في
 عشيرة أو جماعة ولا يصح التنكر لى ، بينما بعض النقاد غير الكاثوليك
 اعتبروا أن إيمانى يعطينى - بشكل ما - ميزة لا أستحقها ، على زملائى
 من المعاصرين . لقد أصبحت كاثوليكيّا سنة ١٩٢٦ ، وكل كتبي - عدا
 ذلك الديوان من الشعر المؤسف الذى نشرته وأنا فى اكسفورد - كتبتها
 وأنا كاثوليكي ، ولكن لم يلاحظ أحد المذهب الذى انتمى إليه قبل نشر
 صخرة برايتون وحتى اليوم فإن بعض النقاد يضع حدا فاصلا بين
 الروايات المبكرة والروايات اللاحقة التى كتبت بعد تحولى إلى الكاثوليكية
 (والنقاد كفئة ليسوا أكثر حرصا على الحقائق من الصحفيين إلا فيما
 ندر) . وقد اضطررت أن أعلن عدة مرات منذ نشر هذه الرواية بآنى
 لست كاتبا كاثوليكيّا ولكنى كاتب تصادف انه كاثوليكي .

٥٤

ولقد وضع نيومان الكلمة الأخيرة في موضوع الأدب الكاثوليكي أو الدينى في كتابه « فكرة الجامعة » قائلا :

« إذا كان الأدب موضوعا يدرس الطبيعة البشرية ، فلا يمكن أن يكون لدينا أدب كاثوليكي ، لأن في ذلك تناقضا في استخدام المصطلح ، فكيف نحاول كتابة أدب بلا خطيئة عن إنسان خاطيء . يمكنك أن تكتب أو تجمع شيئا عظيما وعالى القيمة وأرقى من أى أدب عرفناه ، وحين تفعل ذلك ستجد أن ما فعلته ليس أدبا على الإطلاق » .

ومع ذلك يمكن القول اننى في سنة ١٩٣٧ شعرت ان الوقت قد حان لأضع شخصيات كاثوليكية في رواياتى . وفى رأى أن المرء كى يألف منطقة من عقله يحتاج وقتا أطول من ألفه لمنطقة من البلاد مثلا ، ولكن أفكار شخصياتى الكاثوليكية وحتى أفكارهم الدينية ليست بالضرورة أفكارى .. لقد مضت آنذاك أكثر من عشر سنوات منذ قبولى عضوا فى الكنيسة ، وتم ذلك لأسباب عقلية وليس لأسباب عاطفية ، ومارست الطقوس الدينية الشككية ، أذهب إلى القداس كل أحد ، وإلى الاعتراف مرة فى الشهر ، وفى أوقات فراغى أقرأ فى علوم الدين ، أحيانا بافتتان وأحيانا بسخط ودائما تقريبا باهتمام .

مازلت لا أكسب من كتبى ما يكفى لعاشتى أنا وعائلتى ، لكن كتابتى عن الأفلام بانتظام للسيكتاتور ، ومراجعتى للروايات مرة كل أسبوعين ، كانت توازن الأمور . ثم قذفنى الحظ الحسن بضربتين ، مكثانى أن أنظر قليلا إلى المستقبل . تسلمت عقدا من كوردا لكتابة سيناريو لفيلم ثان (وكان مريعا ، وهو مأخوذ عن قصة جلزورثى القصيرة « الأول والأخير » ، وقام ببطولته لورنس أوليفيه وفيفيان لى .. وقد قاسيا كثيرا ، ولعلهما يغفران لى الكثير مما يحتاج إلى غفران) ، ثم عملى كمحرر شارك مع جون مارك فى مجلة الليل والنهار الأسبوعية . وقد كانت حياتى المهنية وحياتى الدينية ، كل فى غرفة مستقلة تماما ، ولم يكن لدى طموح لجمعهما معا ، لكنها الحياة الخراء بتصرفاتها الغبية هى التى فعلت ذلك ، من ناحية كان هناك الاضطهاد الدينى فى المكسيك ، ومن ناحية أخرى هجوم الجنرال فرانكو على أسبانيا الجمهورية ، وهكذا ربط الدين بالحياة برباط لا انفصام له .

أعتقد انه تحت تأثير هذين الموقفين ، وتأرجحى بين التأييد

ومع قلق وجدت نفسى أعيشه ، ولم يهدأ أبدا ، ورغبة أن أكون شاهدا على التاريخ ، التاريخ الذى شعرت انه يخصنى . حاولت الطيران من تولوز إلى بلباو ، لأن عواطفى كانت مرتبطة أكثر بالكفاح الدينى ضد فرانكو منها عن التنافس الطائفى فى مدريد . حملت خطاب توصية من ممثل جبهة الباسك فى لندن إلى صاحب مقهى صغير فى تولوز ، وكان الرجل يتخطى الحصار حول بلباو بطائرة صغيرة بمقعدين . وجدته يخلق ذقنه فى ركن من المقهى الساعة السادسة صباحا ، ناولته خطاب التوصية مختوما بالشمع ، ولكن بدا أن أى كمية من الاختتام لن تقنعه أن يعاود الطيران بطائرته الصغيرة إلى بلباو ، فقد أثبتت مدافع فرانكو ، فى طيرانه الأخير ، انها فعالة وتقلق راحته .

في المكسيك كنت أكثر حظا ، فقد ساعدتني الدفعة التي دفعها الناشر مقدما لكتابة كتاب عن الاضطهاد الديني هناك ، أن أسافر إلى تاباسكو وشياباس حيث الاضطهاد على أشده بعيدا عن المناطق السياحية ، وفي المكسيك صححت بروفات رواياتي « صخرة برايتون » .

وهناك اكتشفت الإيمان القلبي ، وسط الكنائس الخربة والخالية التي طرد منها القسس ، في القدا سات السرية التي كانت تقام في لاس كاساس دون دق الأجراس ، وسط حاملي المسدسات الذين يمشون مختالين ، لكن عاطفتي الدينية كانت مستيقظة قبل ذلك ، وإلا كيف تفسر أن الكتاب الذي عزمت أن أكتبه كرواية بوليسية بسيطة ، يحتوى على مناقشات واضحة ومباشرة عن الفرق بين الخير والشر ، وبين الخطأ والصواب ، واللغز الغريب لرحمة الله المروعة ، لغز سيكون محورا لثلاث روايات تالية . الصفحات الخمسون الأولى في رواية « صخرة برايتون » ظلت بوليسية . وهى تؤرقنى لو نظرت إليها الآن ، كان يجب أن يكون عندى من قوة الإرادة ما يجعلنى أحذفها وأن أبدأ الرواية ثانية مهما كانت صعوبة المراجعة ، لكن لا الشئ المفقود تجده ثانية ولا الشئ المكسور يمكن إصلاحه .

بعض النقاد ، أرجعوا الأحداث العنيفة في الرواية ، إلى منطقة غريبة عنيفة في ذهني أسموها « أرض جرين » ، وأتساءل أحيانا هل يسبرون في العالم معصوبى الأعين ؟ وأريد أن أصرخ « هذه هى المكسيك فعلا ، هذه هى الهند الصينية ، هذه هى سيراليون موصوفة بدقة وحرص . لقد كنت مراسلا صحفيا كما اننى روائى ، أؤكد لكم أن الطفل الميت والملقى في خندق على جانب الطريق كان موجودا فعلا ، وأن الجثث كانت تطفو فوق الماء في قناة فات ديام » .

ولكنى أعرف أن النقاش لا فائدة منه ، فهم لن يصدقوا عالما لم يلاحظوه ، أو يدركوا أن العالم الذى يعيشون فيه يشبه ذلك . ومع ذلك . فمن الممكن أن يكون إطار رواية « صخرة برايتون » جزئيا مكانا متخيلا ، لكن الأحداث حقيقية والأماكن أيضا ، فمنطقة نيلسون أزيلت منذ بدأت الحرب ، وسباق عصابات برايتون سحق للأبد بناء على رغبة الجميع في لويس أسايز كتهديد خطير وذلك قبل قليل من تاريخ قصتى ، وصالة رقص شيرى قد اختفت ، ولكن كل ذلك كان حقيقيا وموجودا ، وفي منطقة نيلسون الخطرة إختطف رجل في وضح النهار في الثلاثينات ووجدت جثته خارج المدينة مطروحة خارج سيارة ولكن ليس في الظروف نفسها التى اختطفت فيها هيل في الرواية ، حتى كولوئى زعيم العصابة ، كان له نموذجة الواقعى ، وقد أحال نفسه على المعاش سنة ١٩٣٨ وعاش حياة متدنية كريمة في أحد أحياء برايتون ، وظل لاسمه سلطانه فترة من الزمن ، وأذكر أنى رغبت في دخول أحد الأندية الخاصة الصغيرة فى لندن يسمى العش خلف شارع ريجنت ، ولم يساعدنى في الدخول إلا ذكر إسم هذا الرجل - ولقد تذكرته أخيرا حين شاهدت رجل العصابات الأمريكى الشهير ، وهو رجل أنيق ذو شعر أبيض ومن رجال لاكى لوشيانو ، يقضى أمسيات هادئة بين بيازا في كابرى وحمام السباحة الفخم في مطعم كانزون دى لامير في مارينا بيكولا .

على كل حال لابد أن أقر بالذنب لأنى أقمت مدينة برايتون بالشكل الذى تخيلته لا كما هو في الواقع ، وهو ما لم أصنعه حين كتبت عن المكسيك أو الهند الصينية ، لم توجد نماذج حية لرجال العصابات الذين وصفتهم ، ولا لشخصية الساقى التى بقيت تنقصها الحياة ، ولقد قضيت ليلة واحدة في صحبة شخص من عصابة نيكائى ، علمنى اللغة العامية السائدة ولكن هل يتعلم المرء لغة في ليلة واحدة مهما بلغ طولها !

وأبدت سلطات برايتون حساسية قليلة تجاه الصورة التي رسمتها لمدينتهم ، وربما أغاظهم أن يروا كتابي يعلن عنه - بشكل غير متعمد - « إشتروا صخرة برايتون » ، لكن النجاح الجماهيري كان محدودا أكثر مما توقعوا ، فقد بيع من الرواية حوالى ثمانية آلاف نسخة ، بالكاد سددت ديوني للناشرين .

هل كانوا سيمتعضون بشكل أكبر لو علموا أن وصفى لبرايتون كان عملا من أعمال الحب لا الكره ؟ لا توجد مدينة قبل الحرب . لا لندن ولا باريس ولا إكسفورد ، كان لها أثر برايتون على نفسى ، عرفتها أول ما عرفتها وأنا طفل فى السادسة حين ذهبت مع عمى لأنقه من مرض اليرقان على ما أظن ، وفى ذلك الوقت رأيت أول فيلم فى حياتى ، وهو فيلم صامت بالطبع ، وأسرتنى القصة للأبد ، كانت قصة أنتونى هوب « سونى من كرافونيا » ، عن خادمة مطبخ أصبحت ملكة ، حين ركبت الخادمة مع جيشها وسارت عبر الجبال لتهاجم الجنرال المتمرد الذى حاول إنتزاع العرش من زوجها المتوفى . كانت تصاحبها فى زحفها سيدة عجوز تعزف على البيانو ، وظل مشهد ذلك العزف غير المسموع فى ذاكرتى ، بينما تلاشت ألحان أخرى ، وكذلك الزحف الرمادى اللون للملكة الشابة وجيشها .

وهكذا كانت البلقان بالنسبة لى دوما هى كرافونيا ، منطقة المستحيلات غير المحدودة ، وعبر جبال كرافونيا قضيت أصيافا عديدة فى فترات لاحقة ، كنت أحلم بكتابة مثل ذلك الكتاب يوما ، القصة الرومانسية الراقية ، تأسرنا فى شبابنا بالآمال نحلم بها ، والتى تتمخض مع الزمن عن أوهام وخيبة ، فنعود إليها حين نكبر هربا من الواقع الحزين .

كانت رواية « صخرة برايتون » بديلا فقيرا لكرافونيا ، ومع ذلك فهى من أفضل الكتب التى كتبتها .

لماذا استبعدت الكثير من برايتون الحقيقية عن روايتى ؟ لقد كان فى نيتى أن أصف برايتون التى عرفتها وغيّرت الصورة كلها ، (لم أشعر بعد ذلك أننى كنت ضحية للشخصيات التى إبتدعتها) ، إن برايتون التى إبتدعوها وجدت يوما ، لكن فى برايتون التى عرفتها هناك شخصية واحدة ظلت فى الرواية هى شخصية السيد بريويت المحامى البائس

المسكين ، الذى يشاهد بحسد وهو حزين « الطابعات على الآلة الكاتبة يسرن حاملات حقائبهن الصغيرة » - أعتقد أن أحدا لم يلاحظ صدى بياتريكس بوتر فى هذه الجملة .

إن مستر بريويت ، مستوحى ، مع اختلاف طفيف ، من شخص تحدث إلى فى إحدى ليالى ديسمبر قبل عشر سنوات من كتابة الرواية ، فى عشة على شاطئ البحر ، سألنى الصوت بحزن « هل تعرف من أنا ؟ » لكن لم أكن قد رأيت فى الظلام أن هناك أحدا فى العشة .

قال الصوت « أنا مور العجوز » وهو إسم المنجم المجهول الذى مازالت نبوءاته تظهر كل سنة ، أضاف « أعيش وحيدا فى هذا الدور الأرضى أخبز خبزي » .

ثم قال مفسرا - لأنى لم أفهم ما يقصده - « التقويم .. أنت تعرف أكتب تقويم الأيام والأشهر .. الروزنامة » .

* * *

الفصل الثالث

إنها لتجربة غريبة أن تقرأ ماضيك بقلم إنسان ليس هو أنت ؛ فالإنسان منذ أربعين سنة ليس هو نفسه اليوم ، ولقد قرأت كتاب « طرق لا قانونية » كشخص غريب تماما ، لا كتاب كتبته بنفسى ، كثيرٌ من أحداثه دفنت فى اللا وعى ، وكثير منها أستعيده لـلحظات باهتة مرت فى رواية قرأتها ذات يوم وأنا صغير . ومع ذلك فإن كتاب « طرق لا قانونية » ليس رواية ، وإنما هو إنطباع شخصى عن منطقة صغيرة من المكسيك فى فترة معينة - ربيع ١٩٣٨ - بعد وقت قصير من معاناة البلاد على يد الرئيس كاليبس - باسم الثورة - أقصى اضطهاد دينى وقع فى أى مكان منذ حكم إليزابيث ، وقد إستمر هذا الإضطهاد فترة أطول فى

تاباسكو وشياباس . قلت لنفسى كل هذا الذى كتبتة حقائق ، وقد حدثت لى فى سنة ١٩٣٧ و ١٩٣٨ ، أو على الأقل حدثت لذلك الشخص الذى كنته ومات منذ زمن ، ويحمل الإسم نفسه فى جواز السفر الذى أحمله . وكذلك تغيرت المكسيك ، تغيير لم يمس الأساسيات ، ولا العنف والظلم والقسوة . كل الثورات الناجحة ، مهما كانت مثالية ، مع الوقت تخون نفسها ، ولكن الثورة المكسيكية كانت زائفة منذ البداية .

مررت بالمكسيك منذ أكثر من اثنتى عشرة سنة وأنا فى طريقى إلى هافانا ، وتجولت فى الضاحية الجديدة التى بنيت للأثرياء ، كان أفخم بيت فيها لمدير الشرطة ، تلك هى المكسيك التى أعرفها ، حيث الفقر المدقع يعيش فى مناطق لا تبعد عن الفنادق الأمريكية ومحلات السياح إلا شوارع قليلة ، تظاهرت الحكومة المكسيكية بأنها تقدم خدمة لكوبا بتشغيل خط طيران بين مدينة المكسيك وهافانا ، ولكنه خط فى اتجاه واحد ، إذا غادرت إلى هافانا فمن الصعب أن تأخذ تأشيرة عودة إلى المكسيك ، واستخدمت هذه الوسيلة لتقليص عدد الطلبة الأمريكيين الذين يزورون كوبا بطرق لا مشروعة ، فلكى يعودوا إلى الولايات المتحدة عليهم أن يقوموا برحلة دائرية مكلفة عبر مدريد ، وهناك دافع آخر غير هذا يحد من زيارة كوبا ، فحين يخطو المرء باب العبور فى المطار تبرق أضواء الكاميرا ، وتصب صورة كل مسافر إلى هافانا فى ملفات المخابرات الأمريكية أو إدارة المباحث العامة . بعد نقاش طويل ، وبصعوبة شديدة حصلت من السفارة المكسيكية فى هافانا على تأشيرة للعودة عن طريق المكسيك ، صالحة لمدة ٤٨ ساعة فقط . كانت الطائرة فى رحلة العودة تقل ٢٤ مسافرا ، واستغرقت ثلاث ساعات فى منطقة الجمارك للتفتيش ، حتى أن صفحات كتاب ديفيد كوبرفيلد الذى كنت أحمله ، فتشت بدقة شديدة ، وبهذه الطريقة كانت حكومة الثورة فى المكسيك تتظاهر بتأييد كاسترو بأن تمد له يدا ، بينما يدها الأخرى تمتد لمساعدة سلطات الولايات المتحدة الأمريكية أثناء إقامتى القصيرة هناك ، وعلى دعوة عشاء من صديق مكسيكى ، قال لى : لا تحتاج أن تغير شيئا فى كتابك الذى نشرته . فكل شيء كما هو .

حين كتبت طرق لا شرعية . وهو الكتاب الذى كلبنى به الناشر حول الاضطهاد الدينى ، لم يكن فى نيتى أن أكتب كتابا آخر عن المكسيك ،

وحتى عودتى إلى الوطن لم تكن لدى فكرة عن رواية « القوة والمجد »
والتي ستنبثق من ذكرياتى هناك ، فانشغالى برواية « صخرة برايتون »
وتصحیح بروفاتها شغل كل أفكارى . فقد يكون المتطوعون إلى جانب
فرانكو ، والذين رأيتهم على ظهر السفينة الألمانية التى حملتنى إلى
أوروبا ، قد أثاروا تيارا من الأفكار فى ذهنى إنتهى بكتابتى لرواية
« العميل السرى » ، ولكنى حين أعيد قراءة « طرق لا قانونية » الآن ،
أستطيع بسهولة أن أكتشف خلفية كثير من شخصيات « القوة
والمجد » .

الأسكتلندى العجوز د. روبرتو مثلا ، الذى قابلته فى فيلا هرموزا ،
بعقربه المدلل الذى يحتفظ به فى زجاجة صغيرة ، وأخبرنى أثناء سرده
لقصة حياته عن بادريه وزوجته وابنته ولطفهم وسوء سمعتهم والفئران
التى يحتفظون بها فى زجاجة مصباح ، ، مما وضعنى على خطى شخصية
الأب جوزيه فى روايتى . وأرشدنى إلى طريق بنما الذى أجلت زيارته
أربعين سنة ، وأكثر من ذلك لقد ألهمنى شخصية بطل رواية القوة
والمجد حين سألته : هل حدثتنى عن قسيس شياپاس الذى هرب ؟
قال : إنه من نطلق عليه القسيس المخمور أو قسيس الويسكى .. لقد
أخذ أحد أبنائه ليعمده ، ولأنه كان مخمورا فقد أصر على تسمية الولد
بريجيتا .. لقد كان رجلا ضائعا .. مسكينا .

وهناك شخصية أخرى طرأت على ذهنى وأنا على ظهر ذلك المركب
اللعين فى فرونتيرا - الميناء فى المشهد الافتتاحى فى الرواية - طبيب
الأسنان الذى أسميته د. تنش ، والذى كان يتعيش بحشو الأسنان
بالذهب فى ذلك الميناء الصغير المهجور ، كان أمريكيا وليس إنجليزيا كما
فى الرواية ، وكان متزوجا من مكسيكية تمت بصلة قرابة لحاكم الولاية ،
صعد على سطح السفينة هربا من زوجته وأطفاله ، وكان قد لجأ إلى
فندقى فى فيلاهرموزا - لا أعتقد أنه كان هناك فندق آخر - ولكن بعد أيام
كمنت له عائلته فى ممرات الفندق ، أذكره « يكابه » البحرى القديم
الذى يرتديه حتى أثناء تناوله الوجبات ، يأخذ جرعات كبيرة من زيت
الزيتون حفاظا على صحته كما يعتقد ، شخصية لا تحتاج إلى تنقيح ،
كانت شخصية كاملة فى « طرق لا قانونية » كما هى فى رواية « القوة
والمجد » .

وكلما تقدمت في قراءة الكتاب ، قابلتني شخصيات كنت نسيته ،
تبرز في الصفحات تشير ساخرة « هل تصدق انك اخترعتني ؟ » .
مثلا شخصية رئيس الشرطة اللطيف والمرتشى الذى قابلته في فيلا
هرموزا ، ثم شخصية ذلك الرجل المولد الذى قابلته في قرية ياجولين ،
بشاربيه المعقوصين ونابيه الأصفرين ، والصخب الرهيب الذى كان
يثيره ، وضحكته السخيفة التى تظهر لثته الفارغة من الأسنان ، كان
يرتدى قميص تنس مفتوحا من الأمام ، ويمد يده ليحك جسمه من تحت
القميص . بعد اسبوع من صحبة هذا الرجل وجدت من المستحيل
التخلي عنه وهكذا أصبح يهوذا روائيتى .

ثم هناك آل لير ، وهم ليسوا ابتداء خيال ، لأنهم هنا في كتاب طرق
لا قانونية يجيرون مسافرا متعبا بالطريقة نفسها التى عاملوا بها
القسيس العجوز في الرواية . لم يكن هناك شخصيات مبتكرة تماما إلا
القليل . حين بدأت كتابة الرواية أخذت أوزع مصائر متغيرة على أناس
حقيقيين قابلتهم في رحلتى . رحلة لا أتمنى أن أقوم بها الآن ، ركبت
ثلاثة أيام على ظهر بغلة من يا جالون عبر جبال شياباس دون أن أدري
أن هذه ستكون رحلة هروب القسيس المخمور من ضابط البوليس ، في
تاباساكو كانت كل الكنائس مخرية ، أما هنا في نهاية الرحلة عند لاس
كاساس كانت الكنائس مازالت قائمة بل ومفتوحة ولكن دون السماح
للقسس بدخولها . ولأنه كان اسبوعا مقدسا فقد كانت هناك طقوس
غريبة يقوم بها الهنود من التلال المجاورة ، في محاولة لتقليد بعض
ما تعلموه ، فئات من لغة لاتينية طقوس عجيبة غير كنسية . كنت أقل
سعادة في هذه المدينة ، فقد كان المكان مملوءا بحاملي المسدسات
المختالين - وقد اخترت نموذج شخصية ضابط البوليس من وجيهم -
وكان من المستحيل أن تجلس في ساحة عامة دون أن تلحقك إهانة ، أو
تطلب شرابا في حانة دون أن يرفض طلبك ، فقد كانت العلاقات
الدبلوماسية مع بريطانيا مقطوعة تلك الأيام بسبب تأميم شركات
البتترول .

وهكذا فإن مادة الرواية كانت تتراكم دون إدراك المؤلف ، لكن بتعب
والم وخوف ولم يكن الأمر سهلا دائما .
أعتقد أن « القوة والمجد » هى الرواية الوحيدة التى كتبتهاء بناء على

قضية غير مؤكدة ، كنت دائما ، حتى وأنا صبي في المدرسة ، أصغى بنفاد صبر إلى قصص السياح عن فضائح القسس الذين قابلوهم في قرى نائية صغيرة في أمريكا اللاتينية (هذا القسيس له عشيقه وذلك دائما مخمور) ، وكنت دائما أفرق - حتى وأنا بعد في المدرسة التي درست فيها بدقة ما يعتقد الكاثوليك عبر كتب التاريخ البروتستانتية - بين الرجل ووظيفته .

بعد ذلك ، وأنا في المكسيك قرأت وسمعت عن قصص الفساد والرشوة التي قيل أنها كانت التبرير للاضطهاد الديني تحت حكم كاليبس ثم خلفه ومنافسه كارديناس . لكنني لاحظت بنفسى كيف تفجرت الشجاعة والإحساس بالمسئولية تحت هذا الاضطهاد ، لقد رأيت تقوى وتفانى الفلاحين ، الذين يصلون في كنائس بلا قسس ، وشهدت قداسات تقام في غرف علوية مهجورة دون أجراس تدق خوفا من الشرطة ، المثالية والاستقامة التي تمتعت بها شخصية ضابط البوليس في « القوة والمجد » ، لم أجدهما في الواقع في أحد من ضباط الشرطة أو حملة المسدسات الذين قابلتهم ، وكان على أن اخترع صفات ذلك الضابط كمقابل للقسيس الفاشل . ضابط الشرطة المثالي الذي يخنق الحياة في أوج إزدهارها ، والقسيس المخمور الذي يدفع الحياة للاستمرار مهما كان بؤسها . كنت مقتنعا بالكتاب أكثر من أى كتاب آخر كتبت ، ولكنه استغرق عشر سنوات حتى حقق النجاح ، في انجلترا كانت الطبعة الأولى في ٣٥٠٠ نسخة وهو عدد يزيد بألف نسخة عن أول كتاب نشرته ، وذلك قبل شهر من غزو هتلر للأراضي الواطئة . في الولايات المتحدة نشرت الرواية تحت إسم مضلل وصعب « طرق التيه » . وذلك بناء على رغبة الناشر الذى باع منها فيما أعتقد حوالى ٢٥٠٠ نسخة .

بعد انتهاء الحرب ، نجح الكتاب في فرنسا بفضل مقدمة فرانسوا موريك الكريمة ، وأثار المتاعب من جهتين : هوليود والفاتيكان ، فقد أخذ فيلم عن الرواية باسم « الهارب » ، لم أستطع تحمل رؤيته ، فقد أعطى جين فورد كل الأمانة والاستقامة للقسيس ، والفساد لضابط الشرطة حتى أنه جعله والد طفل القسيس . بينما نجاح الرواية في الأوساط الكاثوليكية الفرنسية تسبب فيما نسميه الآن رد فعل معاد ، فقد أرسل القسس إلى روما إدانتهم للرواية مرتين . وبعد حوالى عشر

سنوات من نشر الرواية ، قرأ لى كاردينال ويستمنستر خطابا من المجمع الكنسى يدين الرواية للمفارقة التى فيها ولأنها تتعامل مع ظروف غير عادية . إن ثمن تخطى الآداب العامة ، حتى داخل النظام الكنسى ، يتطلب يقظة دائمة ، لكنى أتساءل هل كانت أى من النظم الشمولية - من اليمين أو اليسار - والتى تقارن بها كنيسة روما ، ستعاملنى بلطف كما عاملتنى الكنيسة حين رفضت تغيير بعض ما فى الرواية بحجة أن حقوق ذلك فى يد الناشر ؟

لم تكن هناك إدانة علنية وتركت القضية لتسقط فى بحور النسيان . بعد سنوات حين قابلت البابا بولس السادس أشار إلى أنه قرأ الرواية ، قلت له إنها قد أدينت من المجمع الكنسى ، قال : من أدانها ؟ قلت : الكاردينال بيسارده .

ردد الاسم بابتسامة ساخرة وقال :
- سيد جرين .. من المؤكد أن بعض أجزاء روايتك تزعج بعض الكاثوليكين .. ولكن عليك ألا تعير ذلك التفاتا .

* * *

٢

كان يدهشنى فى تلك الأيام المبكرة ، أننى أستطيع كتابة الرواية فى تسعة أشهر ، لكن أن أكتب رواية فى ستة أسابيع ؟.. إن رواية « العمل » السرى » كتبتها فى ستة أسابيع سنة ١٩٣٨ بعد عودتى من المكسيك . زودتنى الحرب الأهلية الأسبانية بفرشة الرواية ، لكن إتفاقية ميونيخ هى التى جعلتنى أسارع فى إتمامها ، فى ذلك الوقت كانت الخنادق تحفر فى لندن ، ويجلى الأطفال إلى الريف حاملين أقنعة الغاز فى صناديق كرتونية . وانضم معظفنا من المهنيين والصحفيين وموظفى البنوك والله أعلم من أيضا ، إلى تنظيم غامض سسمى : ضباط الاحتياط للطوارئ ، وحين أقول غامض فإننى أعنى أن دوافعه غامضة كقوى الطبيعة ، وانتهت الطوارئ ، وتركت الخنادق دون إكمال وعاد الأطفال ، لكن بقى

الاحتياط ، وانتابنا القلق ، فإذا قامت الحرب - وبلاشك كانت مسألة أشهر - فسنجد أنفسنا في الجيش يوما تاركين عائلتنا دون معين . كنت أكافح في كتابة « القوة والمجد » ، وهى رواية - كما أنتبأ - من الكتب التى لا تجلب النقود ، وبالتأكيد فإن زوجتى والطفلين لن يستطيعوا الحياة على ريع كتاب لا يبيع بينما أنا أرضى ضميرى الوطنى في الجيش . فصممت أن أكتب رواية تسلية أخرى بأسرع وقت وذلك في أوقات الصباح ، بينما أكتب بعد الظهر في رواية القوة والمجد براحتى ، ولكى أوفر جوا مناسباً للعمل ، بعيداً عن جرس التليفون وصياح الأطفال ، إستأجرت مكاناً في ميدان ميكلنبرج ، وكان آنذاك ميداناً جميلاً من القرن الثامن عشر ، ولكن معظمه بما فيه المكان الذى إستأجرته دُمّر قطعاً بعد سنتين .

وهكذا وقد هيات المكان ، وبقيت الفكرة . كان المشهد الافتتاحى بين عميلين متنافسين على ظهر مركب تقطع القتال ، أسميتهما دال ولام لأنى لم أرغب في جعل صراعهما محلياً . كان ذلك كل ما في ذهنى إضافة الى طموح غامض أن أخلق شيئاً أسطورياً من رواية رعب معاصرة . الرجل المطارد الذى يصبح بدوره صيادا ، الرجل المسالم الذى يتحول حين يجد نفسه في وضع حرج إلى إنسان آخر ، الرجل الذى تعلم أن يحب العدل يعانى من الظلم . ولكن عم ستكون الأسطورة ، أو كيف أكتبها بمصطلحات حديثة ، لم يكن لدى فكرة . ووقعت لأول وآخر مرة في حياتى ضحية للبنزدين . ولدة ستة أسابيع كنت أبدأ يومى بحبة منه . ثم أجدد الجرعة في منتصف النهار وكل يوم أجلس للكتابة وليس لدى فكرة عما ستؤول اليه الأحداث ، أكتب بآلية اللوحة التى تكتب بمجرد اللمس بمعدل ألفى كلمة يوميا ، بدلا من المعدل العادى ٥٠٠ كلمة ، وفى العصارى تتقدم القوة والمجد بالمعدل البطيء دون أن تتأثر الرواية النشطة الصغيرة التى تغلبت عليها .

« العميل السرى » إحدى رواياتى القليلة التى عنيت بإعادة قراءتها بعد الإنتهاء منها ، ربما لأنى شعرت إنها ليست قصتى تماما ، كما لو أن رجلا آخر هو الذى كتبها . كانت الرواية تسير بسرعة لأنى لم أتوقف عن المشاكل التقنية الخاصة ، كنت كمن يؤلف رواية لكاتب عجوز سيموت بعد فترة قليلة ، وينسف المكان الذى يعمل به ، وكل ما أستطيع

قوله ، أن العميل السرى كرواية إثارة ، أفضل من روايات فوكس مادوكس فورد حين كتب هذا النوع من الروايات .

كنت أجبر نفسى على زيادة سرعة الكتابة ، وعانيت من ذلك ، ستة أسابيع من استخدام البنزدرين تركت أعصابى ممزقة ، وعانت زوجتى من النتيجة . أعود إلى البيت فى الخامسة مساء ، بأيد مرتجفة وكأبة تتساقط فوقى كانتظام الأمطار الإستوائية ، أجد فى كل كلمة إهانة ، وأسبب الأذى للآخرين بلا سبب .

وكان علىّ بعد انتهاء الأسابيع الستة ، ولادة طويلة ، أن أستمّر فى جرعات أقل وأقل حتى أحطم عادة الإدمان . إن لمهنة الكتابة جحيما يشكل بصيغ غريبة ، وحين أتطلع إلى الوراء أعتقد أن تلك الأسابيع الستة من الإدمان هى المسئولة بدرجة أكبر عن تحطيم زواجى من مشاكل البعد فى الحرب أو خياناتى لزوجتى .

القلق الذى دفعنى لأكتب بتلك السرعة إنتهى بطريقة ساخرة ، فلقد استدعيت للتوزيع على أحد فروع الجيش كإحتياطى فى شتاء ١٩٣٩ ، واستغرق الأمر عدة أسابيع قبل أن تصل السلطات لحرف جى أول حرف فى إسمى . كنت قد شفيت من الإدمان وتوقفت يدأى عن الإرتجاف فاجتزت الكشف الصحى بنجاح ، ثم أدخلت على اللجنة المكونة من ميجر جنرال وإثنين من الكولونيلات لتوزيعى ، كان يبدو انهم فى حيرة ، ويعرفون قليلا مثلى عما يمكن أن يفعله ضباط إحتياط غير مدربين ، وسألنى الجنرال بطريقة مثيرة للشفقة .

« أين تتخيل نفسك ضمن ضباط الإحتياط . »

تمتت بشئ ما عن الإعلان الخاص بضباط الإحتياط ، وعن أن الصحفيين ضمن المطلوبين لذلك ، وأنى كنت صحفيا ذات يوم .

قال الجنرال بلا اهتمام : نعم .. نعم .. لكن أين ترى نفسك ؟ كان الثلاثة يراقبوننى بقلق ، كنت منتبها لتنفسهم البطيء ، وشعرت ببعض التعاطف معهم لما قاموا به من جهد يوما بعد يوم ، مع زملائى من ضباط الإحتياط من الألف حتى الجيم .. وأدركت إنهم سيفزعون لو ذكرت لهم كلمة المخابرات ، فكل من سبقنى كان يقولها ولم يرغب أحد فى دخول سلاح آخر فى الجيش ، إندفعوا إلى الأمام قليلا فى مقاعدهم وانتابنى إحساس أنهم يمدون لى فى يأس حزمة من ورق اللعب لأختار ورقة

يريدونها ، فقررت أن أساعدهم ، وأخذت الورقة التى يريدونها قلت :
« أتخيل نفسى فى سلاح المشاة » .

تتهاد أحد الكولونيلات بارتياح ، وقال الجنرال بسعادة ظاهرة :
- لا أعتقد أنه من الضرورى أن نسأل مستر جرين أسئلة أخرى
ليس كذلك ؟

لقد رأيت أنى أرحتهم . وفكرت أنه يمكننى أن أطلب منهم معروفا
دون خوف ، قلت أحتاج لأشهر قليلة لإكمال روايتى القوة والمجد هل
يمكن تأجيل إستدعائى قليلا ؟

إبتسم الجنرال إبتسامة مشجعة ، وقال بالطبع يمكنك أن تتال هذه
الأشهر الثمينة .. هل نقول حتى يونية القادم .. لكن حافظ على لياقتك فى
الوقت نفسه .. ما أعنيه هو .. (تردد بحثا عن الكلمة المناسبة) ..
أعنى .. مثلا بدل أن تركب الحافلة .. سر على قدميك .

وكما حدث بعد ذلك ، لم يصعب عليهم فى سلاح المشاة إكتشاف عدم
لياقتى ، وحتى وأنا فى المدرسة كنت أعنى من الاستعراضات الهامة
لفشلى فى السيطرة على تثبيت الحربة مثلا ، وفى سنة ١٩٤١ تخلوا عن
فكرة تعليمى ركوب الدرجات البخارية بعد أن حطمت إثنين وقرروا
إدخالى دورة تدريبية فى المخابرات . ليس من السهل أن تهرب فى الحرب
من أذرع المخابرات المتعددة .

هناك أشياء معينة أحببتها فى رواية « العميل السرى » ، مثل ورطة
العميل مع فكرة الشك ، فحزبه لا يثق فيه ، وهو يدرك أن حزبه على حق
فى عدم الثقة به ، وفى الرواية كان المازق يتعلق بالعميل الشيوعى (رغم
أن دال لا يحمل بطاقة الحزب) . وككاتب كاثوليكي لا أستطيع إلا أن
أتعاطف مع أى إنسان يتمسك بعقيدته بإخلاص مهما كانت هذه
العقيدة . وكنت سعيدا حين استشهد كيم فيليبى بهذه الرواية ، بعد
عشرين سنة ، ليفسر موقفه من الستالينية . ويبدو أنى لم أخطئ كثيرا
خاصة أنى حين كتبت الرواية لم أكن أعرف شيئا عن عمل المخابرات .
وهناك لحظات أخرى فى الرواية تنتمى لفترة لاحقة وكأنه نوع من
التنبؤ ، فالعصابة المنتهكة للقانون فى ولبتن والتى ساعدت دال فى
تخريب المنجم ومصانع أبائهم من أجل المرح فقط ، من الأشياء التى
تنتمى لفترة ما بعد الحرب ، وكذلك الفندق الرهيب فى ساوثكرول المسمى

الليدو ، ببرامج اللهو المنظم فيه ، يشبه معسكر تبلىن لقضاء الأجازات في كلاكتون ، والذي أقيم بعد فترة لاحقة للرواية .

كتب « دن » في كتابه « تجربة مع الزمن » عن الأحلام التي تأخذ رموزها من المستقبل كما الماضي . أمن الممكن أن الروائي يفعل الشيء نفسه . حيث أن معظم عمله يأتي من مصدر شبيه بالأحلام ؟ إنها فكرة مزعجة ، هل كان زولا وهو يكتب عن عمال المناجم الذين حوصروا في منجمهم وماتوا اختناقاً بالغاز السام ، يستلهم شيئاً من ذاكرة المستقبل عن موته الخاص الذي حث نتيجة لاستنشاقه الغاز السام الصادر من موقده الذي يعمل بالفحم ؟

من العدل إذن ألا يعيد الكاتب قراءة رواياته ثانية ، فهناك إشارات كثيرة عن مستقبل غير سعيد . لماذا كتبت سنة ١٩٣٨ أن دال يصغى إلى لراديو وهو يعرض لمشكلة الهند الصينية ؟ كانت هناك أيامها مشكلة خطيرة كهذه يتحدث عنها راديو لندن ؟ مرت ست سنوات قبل أن تبدأ لحرب الفرنسية في فيتنام ، وثمانى سنوات أخرى لتصبح مشكلة الهند الصينية حيوية بالنسبة لى حين وقفت بلا حراك قرب كاتدرائية فان ديام لأرقب القناة المليئة بجثث الفيتناميين .

* * *

خلال الرحلة أنهيت كتابا صغيرا بعنوان « دراميون بريطانيون » ،
وسط الحراسات اليومية ، طائرة تحرسنا من الجو وغواصة من البحر .
بعد عشرة أيام من إبحارنا من بلفاست وصلنا آخر خط عرض على
الأرض ، شمالا قرب إيسلندا ، وبذا بدا شاطئ إفريقيا الغربى بعيدا
جدا . أحضرت معى صندوقا من الصلب مليئا بالكتب ، على أن يكفينى
حتى أنتهى من الخدمة بعد سنتين ، لذلك بدأت أقرأ الكتب الموجودة فى
مكتبة السفينة . أحد تلك الكتب كان بقلم مايكل إنز - مؤلف لم أكن قد
عرفته قبل ذلك ، فلم أكن أهتم بالقصة البوليسية الإنجليزية بكل
مراجعتها الموثقة بعناية وجداولها وتقنياتها وجغرافيتها وخطتها الكاملة ،
كنت أجدها تقتفر إلى الواقعية ، فيها الكثير من الشخصيات التى يحوم
الشك حولها بإرتكاب الجريمة ، وعادة ما يكون المجرم منتميا إلى
ما يسمى بالطبقة المجرمة . أما خارج هذه الطبقة فإن دوافع القتل هى
الجنس أو الجشع ، ولكن الكاتب البوليسى الإنجليزي مُنع من التطور
بسبب فجاجة جمهوره الدائمة ، وهى صفة لا تمنع تعامل أستاذ جامعة
مثلا مع العاطفة الجنسية بشكل واقعى ، وهكذا يضطر الكاتب لاشراك
قرائه بقصة تحتوى على وصايا مزيقه ، وأشخاص مجرومين من
الميراث ، ووارثين بخلاء وبالطبع جداول مواعيد القطارات لأرضاء
الجمهور .

لكن كتاب مايكل إنز كان يقدم شيئا مختلفا ومدهشا ، كانت رواية
بوليسية طريفة وغريبة .

أثناء الليل وأنا مستلق فى سريرى ، بنصف أمل أن أسمع صفارة
إنذار تكون مقدمة للعودة إلى إنجلترا ، راودنى خاطر أن أكتب رواية
فكهة وخيالية ومرعبة ، إذا استطاع إنز أن يفعل ذلك فلماذا لا أستطيع
أنا ؟ وقدمت الظروف المعاصرة - ديسمبر سنة ١٩٤١ واليابان قد ضربت
بيرل هاربور قبل وقت قصير ، والقوات الألمانية تشق طريقها نحو موسكو ،
وكنا نصغى للأنباء كل ليلة من جهاز الراديو الخاص برئيس الخدم ،
حبكة روائيتى « وزارة الخوف » ، وبدأت الرواية طريفة ، رجل تبرئه
المحكمة من تهمة قتل زوجته ، يجد نفسه مطاردا بسبب جريمة هو بربىء
منها تماما ولكنه يعتقد أنه ارتكبها ، طبعاً تبدو القصة غير واضحة حين
أرويها بكلمات قليلة ، لكنى قبل أن أنهيا بفترة أدركت أنها ليست فكهة

رغم أن فيها مزايا أخرى .

ولم تكتب الرواية في ظروف سهلة ، بعد أشهر من التدريبات وجدتنى مسئولا عن مكتب لا أحد فيه غيرى في فريتاون (بعد حوالى أربعة أشهر جاعتنى سكرتيرة) ، لم أفكر في بدء الكتاب في لاجوس حيث تزدهم أيامى بالارسال بالشفرة ثم حل الشفرة ، وفى الليل أفضى الوقت مع زميل فى بيت قديم مهمل للشرطة على شاطئ نهر يعج بالناموس ، وللترفيه عن أنفسنا إعتدنا اصطلياد الصراصير على ضوء البطاريات ، ونضع بقلم رصاص على الحائط درجة لموت الصرصور المؤكد . ونصف درجة إذا إنزلق داخل حوض التواليت ، وقد وصفت هذا بعد ذلك فى رواية « لب القضية » . أما فى فريتاون فإن البيت الذى أقمت فيه ، يقوم على أرض مسطحة أسفل محطة هل ، فى مواجهة معسكر تجنيد نيجيرى يجذب الذباب والنسور . كان البيت قد بناه شخص سورى ويتميز بأن له سلما يؤدى إلى دور أول فى هذه البلاد ذات البيوت من الطابق الواحد . وكان قد تقرر عدم صلاحية البيت للسكنى من طبيب الجيش المسئول عن الصحة ، ولكن لم يكن سهلا الحصول على بيت فى فريتاون حيث فرق من المشاه والبحرية والطيران تعسكر هناك . حين سقطت الأمطار عرفت السبب فى عدم صلاحية للسكنى ، فقد أصبحت الأرض التى بنى عليها مستنقعا كبيرا ، تمتد بينه وبين البحر عدة أفدنة من الشجيرات الصغيرة . كانت تستخدم كمراحض يقضى فيها سكان الأحياء الفقيرة من الأفارقة المقيمين فى الجوار حاجتهم .

استيقظ فى السادسة صباحا وأتناول إفطارى ، كانت أدوات المطبخ محدودة ، وقد استيقظت ذات صباح على صراخ طباخى (الذى جن أخيرا) وهو يطارد الخادم بفأس قصيرة لأن الصبى استعار عليه السردين الفارغة التى يسلق لى فيها الطباخ البيض . كان الحياة تختلف عن الحياة فى لندن تحت الغارات الجوية حيث تدور أحداث روايتى ، ولكن دائما من السهل وصف شئ أنت بعيد عنه . فى السابعة أركب عربتى الموريس الصغيرة وأتجول فى فريتاون ، واشترى ما أحتاجه ، وأخذ البرقيات التى وصلتنى من قسم البوليس الذى أنتمى إليه شكليا كغطاء لعملى فى المخابرات . تصل البرقيات مكتوبة بشفرة غير مفهومة للشرطة ، وتسلم لى باليد من مفوض الشرطة نفسه ، وهو رجل فى أواخر

سنوات منتصف العمر ، وقد ملت اليه كثيرا .
أعود إلى البيت وأحل شفرة البرقيات وأجيب عليها قدر استطاعتي ،
ثم أكتب تقاريرى أو أنظم تقارير الآخرين بشكل مقبول ، وعند موعد
الغداء يكون العمل قد انتهى إلا إذا جاءت برقية عاجلة ، أو حقية
مرفقة مع قافلة عسكرية يجب فتحها والتعامل مع ما جاء فيها من
الأوراق .

بانتهاى الغداء ومع حرارة الجو العالية ورطوبته ، أنام قليلا ، لكن
تقلق نومي حركات النسور الثقيلة على السطح الحديدى فوقى (رأيت
سنة منها تجثم على السطح كمظلات قديمة مكسورة) ، وحين يطير
أحدها أو يهبط يبدو صوت قدميه ككص يحاول اختراق السقف ، فى
الرابعة والنصف أتناول الشاى ، ثم أتمشى وحيدا على خط سكة حديد
مهجور أستخدم ذات يوم من الأوروبيين ، يقع فى منتصف الطريق على
المنحدرات أسفل محطة هل . كنت أشرف على منظر واسع لخليج فريتاون
حيث كانت ترسو هناك أحيانا السفينة كوين مارى فى ملاذ كما لو أنها
خطفت من شمال الأطلنطى ، وتبدو السفينة المسماة « اندنبرج كاسل »
وهى جانحة على الشاطئ فوق مجموعة كبيرة من الزجاجات الفارغة ،
يأكلها الصدا ، وتستخدم الآن كمخزن للذخيرة .

حين تبدأ الشمس فى الغروب ، تتحول الممرات الصخرية إلى لون
الورود ، وكانت تلك الساعة وذلك المكان هو ما أفضله . عند الغسق
يكون موعد العودة إلى البيت قد حان ، وأسميه بيتا لأنى اعتدت عليه بعد
سنة من الإقامة فيه .

أخذ حماما قبل هبوط الليل فجأة فى السادسة مساء ، وتلك الساعة
أسميها ساعة الفئران ، فلقد أقمت ممرا بين المطبخ والبيت مما شكل
قنطرة للغزاة من الفئران ، وذات مرة فى السادسة والنصف وجدت فأرا
يقضى حاجته على حافة التواليت (الفئران دقيقة دائما) ، ولم أستحم فى
وقت متأخر عن ذلك أبدا . ومن الممكن أن أستيقظ بالليل لأرى الفئران
تتأرجح بستائر غرفة النوم ، من المؤكد أن كل ذلك سلب روح المرح من
رواية « وزارة الخوف » والذى حاولت أن أضفيه عليها ، ومع ذلك فإنى
أقسم أنى كنت سعيدا فى الأشهر الستة الأولى من إقامتى هناك . كنت
فى أرض أحبها ، ولقد كتب كبلنج « لدينا عذرية واحدة نفقدها ، وحيث

نفقدها تظل قلوبنا متعلقة هناك » . وفي القرن التاسع عشر قام هنرى جيمس برحلة إلى أوروبا وفقد قلبه مرة وإلى الأبد في حب إيطاليا « لا أحد أحب روما كما يحبها المرء في شبابه ، ويرغب في التوقف عن حبها » .

ولقد فقدت قلبي في إفريقيا الغربية في ليبيريا وأنا في الحادية والثلاثين من عمري .

وهكذا ، لا يتبقى وقت كثير للكتابة ، ففي أى فترة من النهار يمكننى أن أحشر وقت الكتابة ؟ أليكون بين موعد تناول الشاي والنزهة على خط السكة الحديد ؟ أوبين مشروب الساعة السادسة والعشاء ؟ من المؤكد أن كأس الويسكى الذى أتناوله في السادسة لا يستغرق وقتا ، كان لدى تموين من الويسكى عبارة عن زجاجة واحدة تصرف لى كل شهر مع زجاجتين من الجن وست زجاجات من البيرة ، وبعد فترة مؤلة من الحرمان ، إستطعت بمساعدة ضابط في المخابرات الجوية أن أحصل على عدة زجاجات اضافية من النادى الكندى ، وعن طريق ضابط في الأسطول كان يأخذ سفينة الحراسة المضادة للغواصات كل شهر إلى بيساو في غيانا البرتغالية ليحضر بريد القنصل ، استطعت الحصول على دمجات من النبيذ البرتغالى الممتاز الأبيض والأحمر ، أستمتع بتذوقه بكل ما في الكلمة من معنى حيث أنه معفى من الرسوم الجمركية أيضا . بقيت مشكلة الجن ، وقد ثبت أن الجن الكندى خطير ويسبب التسمم ، وأمر الأدميرال بالقائه في القمامة ، وإرتفع كوم الزجاجات التى تستريح عليها السفينة « إدنبرج كاسل » .

حين اكتملت الرواية بشكل ما ، وأتوقف قليلا عند كلمة شكل ما ، لأن إتمام الرواية أزاح كل تلك العقبات التى اعترضتنى وضايقتنى ، عقبات بعضها كنت أرحب به مثل تلك الرحلة الى داخل البلاد بالقطار ، على خط صغير يسير قرب الحدود الليبرالية وغيانا الفرنسية ، وكنت قد ركبت هذا القطار منذ سنوات عند بدء رحلتى الطويلة التى وصفتها في كتابي « رحلة بلا خرائط » ، لا شيء قد تغير بعد سبع سنوات ، على المرء أن يستأجر خادمه الخاص ، وأن يتزود بالمعلبات ، وبالكرسى والسرير وحتى المصباح الذى يعلقه بخطاف في مقصورته . يتوقف القطار عند بلدة « بو » حيث توجد إستراحة حكومية ، ثم يصعد القطار الجبل ببطء إلى

« بندميو » ، وتوجد هناك أيضا إستراحة حكومية مهمة نوعا ما من الرقيب المحلى ، ولذلك فضلت تناول وجباتى فى القطار . صادفتنى مشكلة بسبب تكاليف هذه الرحلات ، لكن ليس بالشكل المفترض أن تحدث به . إعتدت أن أنفق خمسة شلنات كل يوم وهو معدل انفاق ضابط فى المستعمرات بما فيه فرق السعر بين الطعام المعب والمطازج ، طبعا السفر والاقامة مجانا ، تلقيت برقية شديدة بالشفرة من لندن تخبرنى بأن « النفقات اليومية لضابط فى رقبتي يجب ألا تزيد عند ثلاثة جنيهات ، ومن فضلك كيف نفسك على ذلك وأثبته فى الدفاتر » . أطعت بنشاط ، فتحت خزانة المكتب وحولت مبلغ أربعين جنيها إلى جيبى ، وأرسلت بالشفرة أن كل شيء تمام ومثبت .

كما واجهتني عقبات تفسد أقل بهجة ، مثلا علاقتي مع الضابط المسئول عني فى لاجوس ، والتي تبعد عن المكان الذى أقيم فيه بألفى ميل ، كانت علاقات محبطة . لقد تبادلنا الكراهية بمجرد النظر ، كان خيرا فى المهنة وكنت هاويا ، وضايقته اللهجة الساخرة التى تسرى فى تقاريرى أحيانا بل وفى برقياتى ، أشعر بالأسف الآن للرجل المسكين الذى كان عليه أن يتعامل فى السنوات الأخيرة من عملى مع روائى ، كان رجلا مريضا وعلى جهل تام بإفريقيا ، وكنت لا أدرك ذلك آنذاك ، وقد علمت فيما بعد أنه كان يترك حقيبة فريتاون مغلقة على مكتبه أياما خوفا مما تحتويه ، وفكر ذات يوم أن يؤدبنى بوقف مستحققاتى التى كان من المفروض أن يرسلها شهريا بالحقائب من لاجوس ، لكنى كنت أقترض من مدير البوليس ، وهكذا فشلت خطته لمضايقتى وأخيرا وصلنا إلى الحرب المعلنة ، فقد كنت على موعد فى كالاهاون على الحدود الليبيرية مع شخص ما ، فأرسل برقية يمنعنى من مغادرة فريتاون بحجة أن سفينة بورتغالية على وشك الوصول ، وكانت السفن البرتغالية تفتش بدقة بحثا عن الماس الصناعى والمراسلات المحظورة ، لكن هذا الأمر لم يكن من اختصاصى بل من اختصاص المفوض الذى يمثل م ١٥ ، بعد مناقشة بيننا أطعت ، لكنى كتبت تقريراً دقيقاً ومفصلاً إلى لندن محذرا من الأحداث السيئة التى قد تنشأ إذا ألغيت هذه المقابلة وقدمت إستقالتي ، لم تقبل إستقالتي ، وبقيت ستة أشهر أخرى ، لكنى تحررت من سيطرة لاجوس ، وبالتأكيد إحساسى بالحرية ساعدنى على الاستمرار فى كتابة الرواية .

وعلى كل حال أتساءل أحيانا كيف أمكننى أن أنهى هذا الكتاب ؟ عنوان الرواية « وزارة الخوف » أخذته من قصيدة لوردز نوو (مختارات أرنولدز لقصائده كان أحد المجلدات التى حملتها معى فى إنجلترا) ، ولقد اشترت شركة سينمائية أمريكية حقوق إنتاج الرواية سينمائيا دون أن يقرأوها وذلك على حس عنوانها .

وأجهتني بعد ذلك مشكلة إرسال المخطوطة إلى إنجلترا ، وأنت فى فريتاون لا يمكنك أن تنسى تهديد الغواصات فى البحار فهو جزء من حياتنا اليومية ، وهو سبب بقاء الزوجات بعيدات عن أزواجهن ، وأيضا هو السبب فى عدم وجود ثلاثة لدى فقد فقدت فى الطريق .

بانتهاى من الرواية ، بدأت العمل المتعب وهو طباعتها على الآلة الكاتبة بأصبع واحدة بعد العشاء كل يوم ، وكنت محظوظا أن أنهيتها قبل الإنزال الألمانى السريع فى شمال إفريقيا الذى أثر حتى على المنطقة التى نقيم بها بالبرقيات المتواصلة فى كل الساعات .

تحدثت هنا قليلا على الرواية نفسها . رغم أنها المفضلة لدى وسط ما أسميته آنذاك بروايات التسلية تميزا لها عن الروايات الجادة الأخرى. التى كتبها ، أود لو أنى عالجت عنصر التجسس فى الرواية بواقعية أكبر ، رغم إعتقادي أن مستر برنتيس من الفرع الخاص كان واقعا بما فيه الكفاية ، وقد عرفته تحت إسم مختلف فى منظمى حين تتلمذت عليه ، إن المشاهد الخاصة بعيادة الأمراض العصبية من أفضل أجزاء الرواية فى رأيى ، ومن الغريب أن المخرج فرنزلانج قد حذف هذه المشاهد من فيلمه مما جعل القصة كلها بلا معنى .

كما أعتقد أن جو الغارة الجوية قد نفذ بشكل جيد ، والتزهجات الثلاثة التى رآها « رو » تسير ببطء وجمال كعنقود من لمع شجرة عيد الميلاد ، شاهدها بنفسى تدمر متجر مابل ليلة الغارة الكبيرة على لندن فى ١٦ إبريل قبل مغادرتى إلى إفريقيا ببضعة أشهر . كانت لندن فى تلك الأيام مناطق منعزلة كعنقود من القرى ، ومن الصعب على المرء أن يتجول فى أماكن بعيدة عن منطقته ، وعلى الرغم من الحرب فإن البعض كان يخرج فى نزاهات هادئة فى نهاية الأسبوع .

بينما كنت أكتب « وزارة الخوف » بعيدا فى إفريقيا الغربية ، وأذكر ما يحدث فى لندن ، زحف قليل من الحب إلى صفحات الرواية ، ووجدت

هذا الحب أيضا في مقتطفات احتفظ بها وكتبها أثناء الغارة الجوية الكبرى أسميتها لندنيات .

* * *

٢

كتب لى الروائى إيفلين وو ذات يوم قائلا : إن العذر الوحيد الذى يقدمه لعدم ظهور روايته « زيارة بروسندنافية » بالشكل الذى يريده هو « علبة اللحم المحفوظ ، وفترات التعتيم بسبب الغارات ، وأكواخ بنسين (وهى أكواخ برميلية الشكل تقام من صفائح حديدية جاهزة) » .
وأشعر بالشئ نفسه نحو رواية « لب القضية » ، رغم أن أسباب إعتذارى ستكون مختلفة ، فهى « المستنقعات ، والمطر ، وطباخ مجنون » . لأن حرب كل منا كانت تختلف عن حرب الآخر .
فى السنوات الست التى تفصل بين انتهائى من رواية « القوة والمجد » ، وبداية رواية « لب القضية » ، علا الصدا أسلوبى من الإهمال وسوء الإستعمال (سوء الإستعمال يشمل أسلوب البرقيات الكثيرة والتقارير التى أرسلتها من فريتاون إلى الرئاسة فى لندن) .
بدأت الرواية مباشرة بعد إنتهاء الحرب سنة ١٩٤٦ ، بعد ثلاث سنوات من إغلاقى مكتبى الصغير فى فريتاون ، وإحراق ملفاتى وكتب الشفرة ، ولم أكن أستطيع الإحتفاظ بيوميات منتظمة عن تلك الفترة لأسباب أمنية . لكنى عند تفحص بعض الملاحظات العشوائية التى كتبتها ، بدا كأنى كنت أداعب فكرة الرواية بين التقارير والبرقيات ، مع أنها ليست الرواية نفسها التى أكتبها .
قابلت بالمصادفة أثناء إحدى رحلاتى فى أعالي البلاد الأب « ب » الذى لا أذكره الآن إطلاقا ، ولابد أنى كنت أذكره جيدا حين كتبت « لب القضية » ، وصورته فى شخصية الأب كلالى الذى قابله سكوبى حين سافر إلى « بامبا » ليحقق فى قضية إنتحار الشاب بمبرتون .
قرأت فى ملاحظاتى العشوائية « الولد الريفى الصغير المسكين ذو

نشعر الأحمر الذى أهمله رفاقه » ، « أصابته بحمى البول الأسود » ، « أسير جيئةً وذهاباً هنا » وهى الكلمات نفسها للآب كلاً فى الرواية ، ولم يكن لدى فكرة عن الميجور سكوبى فى تلك الأيام ، كل ما طرأ على خيالى هو القسيس الشاب من الريف فى الشمال ، ووجدت أطراً قليلة مكتوبة بقلم رصاص باهت تبدأ فكرة القصة :

« لو كنت كاتباً حقاً ، فلا بد أن تغرينى هذه الشخصية لوضعها فى رواية . أتخيل أن هذا ما يشعر به الكاتب من الحضور الطاغى لفرد يرغبون فى فهمه ، لكنى لا أملك الوقت أو المهارة لعمل كهذا الآن . وكل ما أستطيع عمله هو جمع الانطباعات التى يتركها هذا الرجل على كل من عرفه ، وأخشى أن أجد صعوبة فى خلق الشخصية من مجموعة انطباعات كهذه ، أثناء مراجعتى للكتب قرأت أن الروائيين قد يمدحون أو يذمون لنجاحهم أو فشلهم فى رسم الشخصية ، لكن شخصيات كهذه تبدو علاقاتها مع الحياة كالصور التى نراها فى هذا البلد أو ذاك مرسومة على الجدران الطينية لبيوت السكان ، القطار يعبر عنه بصف من المستطيلات ، وكل مستطيل يقف على دائرتين ، وهكذا يبسط المؤلف الشخصية ، والتناقض الذى يحمله الإنسان بين جوانبه يزال أو يهذب ، والنتيجة فن منظم ومهذب لتصوير حالة عقلية معينة ، وهذا الكتاب الذى أنوى كتابته سيكون على خلاف ذلك ، فقد تركت الشخصيات بكل تناقضاتها ، فهدفه الوحيد هو تقديم شخصية غامضة بكل الصدق الذى نعرفه عن الشخصيات الغامضة » .

لكن الرواية لم تتقدم بأكثر من هذه الملاحظات ، وكانت مشروعاً آخر هجرته على الشاطئ مع الأشياء الأخرى التى هجرتها ، وأنا سعيد إذا أثبتت تلك الملاحظات من مفكرتى ، وربما لو كتبت تلك الرواية لكانت أفضل من « لب القضية » .

فى مفكرتى القديمة أحداث وشخصيات متفرقة كان من الممكن أن تضمها روايتى ، أحداث وشخصيات تشكل جزءاً من الحياة الروتينية لممثل لفرع إس . أى . إس . فى فريتاون ، لابد أن أحداً منهم قد وجد له مكاناً فى الرواية ، ولكنى لا أريد البحث عنهم الآن .

« رسائل العميل الألمانى ، وقائمة السفن التى خابرت » تيل » ، كان متفائلاً جداً حين قال لا يمكن للسفن أن تخبر أحداً هنا « من كان ذلك العميل ؟ نسيته تماماً كالآب » ب » .

وهناك نبذة أخرى من مفكرتى آنذاك « الجماهير التى اشتريت فى الجنازة تعود إلى البيت . ظننت أنها حفلة عرس ، حشد من النساء فى ملايسهن الوطنية البراقة ، نوع من المرايل السوداء وقميص فوقها ، وعازف المترددة يضرب دم دم دم، والنسوة يتحركن بخطوات صغيرة راقصة ويصحن ويشرن إلى الجنود فى المعسكر ، الكل يترنح كالسكارى ، وفى البيت الفتیان يلعبون الكرة ، والنساء الأكثر حزنا يحملن مناديل وتبدو عليهن الرزانة والكآبة ، امرأة برداء أوروبى أبيض تسير وحدها . الولد الذى يعمل عندى .. قال لى أخى يحتضر من الأسهال ، ولدى أيضا عقدة إسهال وعالجته ، قلت : بالحقن ، قال لا وأشار بيده إشارة معبرة « الدكتور طرد الإسهال » ، رائحة الخمر تفوح منه وهو يسير بمشية متكلفة تبرز رد فيه يقول « أنت تشرب إذا رأيت أخاك أو أمك أو أباك فى الفراش يحتضر ولا يستطيع رؤيتك » تشرب ل تمنع الماء من النزول من العين ، لا أستطيع أن أخبر أحدا ، إذا عرف الناس أنه يحتضر سيأتون ويسرقون أشياءه » .

يقيم حفلا طوال الليل ، ويشرب حتى لا تخرج الدمع من عينيه ، ويستكشف ممتلكات أخيه ، ويأمر أخاه الأصغر بتدوينها . فى الصباح التالى أخبرنى باهتمام أن هناك « ماكينتين » للخياطة ، ولكن أخاه لم يمت بعد .

ربما هذا هو الولد الوحيد الذى استأجرته ولم أسترح له ، وقد حاول طبأخى المجنون قتله بفأس ذات يوم ، سجن الولد بتهمة اليمين الكاذبة ، وهى تهمة تستعصى على فهمه ، ومع ذلك جعلت أفضل محاميا أسود فى فريتاون يدافع عنه أمام القاضى الانجليزى السخيف لابس الباروكة ، لكن حظى مع القانون ضئيل ، فقد اتهم طبأخى أيضا بأنه أخذ نقودا مقابل القيام بعمل سحرى لم يحقق نتيجة المرجوة . فقد عدت ذات ليلة إلى البيت بعد نزهة طويلة على الأقدام فلم أجد أحدا يعد لى وجبة المساء ، وأخبرنى جار لى أن الطبأخ فى السجن ، حين زرتة لم أتحمّل رؤيته فى زنزانته المثيرة للاشمئزاز ، اتصلت - ولم يكن ذلك سهلا أثناء الحرب - بمفوض من حكومة فيشى عبر الحدود فى غيانا الفرنسية ، ورتبت عودته إلى قريته الأصلية حيث يجد من يعتنى به ويتحرك بحرية عدا حلقة حديدية حول كاحله تشير إلى أنه أثم .

هناك حادثة أخرى لم أستطع أن أصفها بالتفصيل في مفكرتى ، وقد أمرضتني هذه الحادثة . وهى استجواب بحار شاب إسكندنافي إتهم بأنه عميل المانى . عرفت من التقرير المرفق معه أنه يجب فتاة من بوينس ايرس - ربما مومس - لكنه يحبها حبا حقيقيا بطريقة رومانسية ، قلت له لو ثبتت براءتك ستعود إليها ، وإذا لم تتكلم ستعتقل طوال فترة الحرب .. وكم من الوقت ستظن انها ستظل مخلصه لك ؟

كان الإستجواب عملا بوليسيا من أعمال م ١٥ ، وكنت غاضبا أنى تورطت فيه ، وتركت استجواب الفتى قبل أن أتمه كارها نفسى ، ربما يكون بريئا ، وقلت فى نفسى إلى الجحيم بالمجموعة م -١٥ .

كانت تجربتى فى سيراليون غنية بدرجة كبيرة ، ولم أكن مقتنعا بما صنعت من هذه التجربة . لقد اشتكى النقاد - ومعهم الحق - فى أن الرواية مكثفة بشدة ، ولكن ماذا أفعل والمادة نفسها كانت غزيرة . الغلظة الحقيقية ، كما قلت بنفسى . تكمن فى الصدا الذى علا أسلوبى من طول الكسل ، فما انغمست فى أدائه خلال سنوات الحرب لم يكن عملا أصيلا . كان هروبا من الواقع والمسئولية ، فبالنسبة للروائى فإن واقعه الوحيد ومسئوليته الوحيدة هى روايته . وكالرجل الذى يعانى من الجوجو ، كان على أن أعود إلى مكانى الصحيح والطبيعى حتى أشفى .

فى سنة ١٩٤٦ شعرت أنى فى ضياع ، كيف أمكننى فى الماضى أن أتقدم من مشهد روائى إلى آخر فى يسر ؟ كيف أقصر السرد على وجهة نظر واحدة أوحى اثنتين ؟ دسنة من الأسئلة الفنية عذبتنى ، بينما قبل الحرب كان الحل ينبثق بسرعة . لم يعد عمل الكتابة سهلا ، بسبب انفجار أخاخ الغفلة التى زرعته بطيش فى حياتى الخاصة ، فقد ظننت دائما أن الحرب ستأتى بالموت بشكل أو بآخر ، فى غارة جوية ، فى سفينة تضربها غواصة ، فى إفريقيا بحمى البول الأسود ، ولكنى مازلت هاهنا ، حى أعيش ، أحمل التعاسة للناس الذين أحبهم ، وما كرهته حقيقة فى الكتاب هو ذكرى الألم الشخصى ، وكما كتب سكوت فيتزجيرالد مرة « مزاج الكاتب يجعله يفعل دائما أشياء لا يستطيع إصلاحها بعد ذلك » ، وكنت أفكر ذات ليلة بالخطوة الأولى نحو الإنتحار ، حين تلقيت برقية فى العاشرة مساء (لم أكن أعلم أنهم يسلمون برقيات فى ذلك الوقت المتأخر) من شخص سببت له المعاناة ، ويشعر بقلق حول سلامتى .

ولكن لفترة طويلة قبل الوصول إلى نقطة اليأس هذه ، وجدت نفسي تفقد الثقة وإنى عاجز عن مواصلة الكتابة حتى أنى لأشهر عديدة لم أستطع أن أخرج ويلسون من شرفة الفندق التي كان يقف فيها يراقب سكوبى ، مفوض البوليس ، يعبر الشارع الواسع غير المصوف ، أن أخرجه من الشرفة معناه أن أتخذ قرارا ، روايتان مختلفتان تماما ، بدأتا فى الشرفة نفسها وبالشخصية ذاتها ، وعلى أن أختار إحداهما لأكتبها . إحداهما رواية جادة والأخرى رواية تسلية . وكنت لفترة طويلة مطاردا بفكرة كتابة قصة جريمة يكون فيها المجرم معروفا للقارئ بينما الغموض يلف رجل البوليس أو المخبر الذى يتخفى بأشكال عدة تصل القارئ ، حتى تصل الذروة ، وستروى الرواية من وجهة نظر المجرم ، لكن شخصية ويلسون لم تقنعنى لهذه الرواية ، ولذا فحين تركته فى الشرفة وارتبطت بسكوبى فقد أثرت الرواية الأخرى .

لقيت الرواية نجاحا من الجمهور والنقاد أكثر ما لقيت عند المؤلف ، فقد بدت لى المعايير التى استخدمتها غير موزونة جيدا . عقدة الرواية محملة بأكثر من طاقتها ، شكوك سكوبى الدينية متطرفة أكثر من اللازم ، وقد عنيت بقصة سكوبى أن أوسع الموضوع الذى لمسته فى رواية « وزارة الخوف » وهو الأثر المدمر على الإنسان حين يتحول التعاطف إلى شفقة وقد كتبت فى « وزارة الخوف » الشفقة قاسية ، مدمرة ، ولن يكون الحب فى سلام إذا طافت حوله الشفقة ؟ ، وأردت من شخصية سكوبى أن تبين أن الشفقة يمكن أن تكون تعبيرا عن كبرياء وحشى قاس ، ولكنى وجدت أن أثرها على القراء مختلف تماما ، بالنسبة للجمهور كانت شخصية سكوبى مبرأة ، وأعتبر القراء أن سكوبى ، كان رجلا طيبا ، وكاننا مساقا لقدره بسبب قسوة زوجته .

وهنا خطأ فنى أكثر منه خطأ نفسيا . فزوجة سكوبى أساسا تقدم فى الرواية من منظور سكوبى نفسه ، وليس لدينا فرصة لمعرفة وجهة نظرها ، فى المسودة الأصلية للرواية كان هناك مشهد بين مسز سكوبى وويلسون الذى يحبها أثناء نزهة مسائيه على خط السكة الحديد المهجور ، يضع مسز سكوبى فى ضوء أكثر مودة ، لأن المشهد يقدم من وجهة نظر ويلسون ، ولكنى حذفته هذا المشهد عند تقديم الرواية للطبع ، لأنه يحطم وجهة نظر سكوبى بسرعة ، ويجعل سرعة السرد

تتباطأ ، بحذف هذا المشهد كسبت الرواية قوة دافعة ، لكنى ضحيت بالنغمة الصحيحة ، في طبعات تالية أعدت هذا المشهد إلى الرواية . ربما أكون قاسيا على الكتاب ، ضجر كعادتى من المناقشات المتكررة للشيء نفسه في الصحافة الكاثوليكية عن خلاص سكوبى أو إدانته ، ولم أكن غبيا لدرجة أن أصدق أن محور الرواية هو هذا الخلاص ، إضافة إلى أنى أومن قليلا بمبدأ العقوبة الأبدية (ذلك كان اعتقاد سكوبى لا اعتقادى) ، والانتحار كان النهاية الحتمية لسكوبى ، لا خلاص ولا إدانة ، كان الدافع لانتحاره أقرقشة في كبريائه المفرط ، ومن المؤكد أن شخصيته تصلح موضوعا لكوميديا سوداء أكثر منها لمأساة . ومع ذلك ، فهناك صفحات في رواية « لب القضية » وشخصية واحدة هى يوسف فشدى إليها ، فوصف مدينة فريتاون والمناطق الداخلية في سيراليون تعيد لنفسى ذكرى أشهر كثيرة من السعادة ، وقله من أشهر تعيسة ، السفن البرتغالية برسائلها وماسها المهرب كانت جزءا من الحياة الغربية التى عشتها هناك في سنة ١٩٤٣ ، ٤٢ .

شخصية سكوبى لم تكن مبنية على أساس واقعى فهمى من لا وعى الخاص ، لا تربطه صلة بمفوض الشرطة الذى عرفته والذى كانت صداقته هى الشيء الإنسانى الأكثر تقديرا عندى خلال ١٥ شهرا من الوحدة ، كذلك فإن شخصية ويلسون - التى تنقصها الحياة في الرواية - لم يكن لها أى أصل واقعى من عملاء م ١٥ الذين كانوا ينتشرون في غير إتساق على ساحل إفريقيا الغربية في تلك الأيام . تلك الأيام ، أنى سعيد إنى عشتها ، فحبى لأفريقيا تعمق هناك ، خاصة لما يسمى بالساحل ، هذا العالم من أسطح الصفيح وأصوات أرجل النسور تهبط هناك ، الممرات التى من صخور اللترائت تتحول إلى اللون الوردى في ضوء الشفق ، طبأخى الذى سجن بتهمة السحر ، خادمى الذى سجن ظلما بتهمة الحلف كذبا والذى جاء من الغابة دون توصية من أحد ليعتنى بى بإخلاص ، كما فعل الصبى على مع سكوبى في الرواية ، رافضا الرشاوى من عميل لادارة مخابرات أخرى تحثه على ترك خدمتى .

هل هم جزء من أرض جرين فقط ؟ وكما قال رجل يحب امرأة إنها فقط جزء ثانوى من خياله .

- تجربتي في كتابة الرواية - تجربتي في كتابة الرواية - تجربتي في كتابة الرواية -

الفصل الخامس

قصة فيلمي « الرجل الثالث » لم تكتب أبدا لتقرأ ولكن لتشاهد
القصة مثلها مثل قصص الحب الكثيرة بدأت على عشاء وانتهت بصدا ع
في أماكن عدة : فيينا ، فينيسيا ، مرافيلو ، لندن ، سانتا مونيكا .. إلخ .
افترض أن معظم الروائيين ، يحملون في أذهانهم أو مفكرتهم ، فكرة
أولية لقصص لم يتح لهم أن يكتبوها ، وأحيانا بعد سنوات كثيرة ،
يرجعون إليها ويأسفون ، فقد كانت فكرتها عظيمة آنذاك لكنها ماتت
الآن .

وهكذا ، فإننى منذ زمن بعيد كتبت على غلاف مظروف فقرة إفتتاحية نصها « قمت بزيارتي الأخيرة الى هارى الإسبوع الماضى ، حين أنزل كفته فى الأرض المتجمدة فى فبراير ، ولم أصدق رؤيتى له وسط جمهرة

من الغرباء في فندق ستراند دون أن تبدو منه إشارة إنه يعرفنى .
ولم يكن لدى ، مثل بطل في الرواية ، فكرة لتفسير ذلك . وحين طلب
منى الكسندر كوردا ، ونحن على العشاء . أن أكتب له قليلا يخرج
كارول ريد ، بعد فيلمنا المشترك « المعبود الذى هوى » والذى اقتبسته
عن قصتى القصيرة « غرفة فى الطابق الأرضى » . لم يكن لدى لأقدمه له
سوى هذه الفقرة . كان كوردا يريد فيلما عن احتلال الدول الأربع
الكبرى لفيينا ، ففى سنة ١٩٤٨ كانت فيينا مازالت مقسمة إلى مناطق
أربع بين الأمريكيين والروس والإنجليز والفرنسيين ، وكان وسط
العاصمة يدار كل شهر من إحدى هذه الدول بالتناوب ، كما كانت هناك
دوريات ، كل منها تتكون من أربعة جنود يمثل كل جندي دولة من الدول
الأربع ، كان هذا الوضع المعقد هو الذى يريد كوردا أن يبرزه فى الفيلم ،
ولكنه كان على استعداد أيضا ليتركنى أتتبع آثار هارى فى هذه المدينة ،
وهكذا سافرت إلى فيينا .

وكان مستحيلا بالنسبة لى أن أكتب سيناريو الفيلم قبل أن أكتب
القصة أولا ، فالفيلم يعتمد على شئ أكثر من العقدة ، يعتمد على معيار
معين من رسم الشخصيات ، على المزاج والجو ، وهو ما يستحيل
السيطرة عليه من الاختزال المبسر للمعالجة التقليدية ، لابد أن يكون
لدى الإحساس بمادة أكثر مما يحتاج إليه (فالرواية المكتوبة عادة
تحتوى على الكثير) .. وهكذا كان على كتابة الرجل الثالث كقصة أولا
قبل أن أعد لها المعالجة السينمائية ، ولم أقصد أن تنشر القصة فى
كتاب . وللاستمرار ومتابعة خط القصة ، عملت أنا وكارول معا حين عدت
إلى فيينا لكتابة السيناريو ، نقطع أميالا على بساط الغرفة يوميا ، ونمثل
المشاهد معا (من الحقائق الغريبة انك لا تستطيع أن تعمل بنجاح
واستمرارية فى سيناريو وأنت جالس إلى مكتب ، عليك أن تتحرك مع
شخصياتك) . لم ينضم إلى اجتماعنا ثالث ولا حتى كوردا نفسه ،
وهناك قيمة حقيقية كبيرة فى النقاش بين شخصين ، بالطبع بالنسبة
للروائي فإن روايته هى أفضل ما يمكن أن يقدمه حول موضوع ما ،
ولا يستطيع إلا أن يمتنع من التعديلات الضرورية للكثيرة التى تدخل
عليها لتحويلها إلى فيلم ، ولكن الرجل الثالث لم تكن سوى مادة خام
لفيلم .

وسيلاحظ القارئ اختلافات كثيرة بين القصة والفيلم ، وليس له أن يتخيل أن هذه التغييرات قد فرضت على مؤلف يرفضها ، فالفيلم في الواقع أفضل من القصة ، لأنه في حالتى هذه ، هو النسخة النهائية من الرواية .

أحد موضوعات الخلاف الكبيرة والقليلة بينى وبين كارول ريد ، كان فيما يختص بالنهاية ، وقد انتصر رأيي أخيرا ، كانت وجهة نظري أن فيلما خفيفا من هذا النوع لا يحتمل نهاية غير سعيدة أو مأساوية ، وشعر ريد من ناحيته بأن النهاية التى كتبها غير محددة وغامضة ، أن تتجه الفتاة بصحبة هولى خارج المقبرة دون كلام ، فذلك سيصدم الجمهور الذى شاهد لتوه موت هارى ودفنه . كنت نصف مقتنع ، وكنت أخاف أن يغادر الجمهور السينما - إذا ما نفذ ريد رؤيته - تحت انطباع أنها النهاية ، والقليل من المشاهدين هم الذين سيظلون في مقاعدهم خلال سير الفتاة من القبر إلى هولى ، لكنى لم أقدر تماما إخراج ريد الرائع وسيطرته .

كذلك تخلصنا في مرحلة أخيرة من حادث اختطاف الروس « لانا » وهى حادثة كانت عادية في فيينا تلك الأيام ، لكن الحادثة لم تكن مقنعة تماما في السيناريو وكانت تهدد بتحويل الفيلم إلى دعاية مضادة للروس ، ولم تكن نريد إثارة مشاعر الناس السياسية ، أردنا إمتاعهم ، وإخافتهم قليلا وحتى إضحاكهم ، خططنا أن تكون الواقعية خلفية فقط لقصة خيالية ، ومع أن قصة المتاجرة بالبئسلين مبنية على حقيقة مروعة ، إلا أن كثيرا من التجار كانوا أبرياء ليس مثل لايم ، وقد اصطحب جراح أعرفه صديقين لمشاهدة الفيلم ، ودهش لأن الفيلم أصابهما بالكآبة والقهر ، مع أنه استمتع به ، أخبراه أنهما عند نهاية الحرب ، وحين كانا ضمن السلاح الجوى الملكى في فيينا ، قاما ببيع البئسلين في السوق السوداء ، نتائج سرقاتهما التافهة ، لم يدركاها حتى شاهدا الفيلم ورأيا مستشفى الأطفال حيث استخدم البئسلين المغشوش في معالجتهم . حين أتى كارول ريد إلى فيينا ليرى المواقع التى وصفتها ،

السيناريو ، ارتبكت ، لأنى وجدت فيينا قد تغيرت تماما بين فصل الشتاء وفصل الربيع . فمطاعم السوق السوداء حيث يعتبر المرء محظوظا لو وجد فيها عظمة توصف بأنها ذيل ثور ، تقدم الآن وجبات قانونية

ورخيصة وجيدة ، كما أزيلت الخرائب من أمام مقهى موزار ومشاهد فيينا القديمة ، ووجدت نفسى أكرر لكارول ريد مؤكدا مرة بعد أخرى أن فيينا كانت تشبه ما كتبه منذ أشهر قلائل . وثبت أنه من الصعوبة أن أجد قصتى فى فيينا الجديدة ، جنازة هارى المزيقة هى القصاصة الوحيدة التى أتمسك بها ، أما الباقي فقد أتى من مرور الأيام حيث وجدنا أماكن مناسبة للتصوير . النادى الليلي الشرقى ، بار الضباط (واستطاع كوردا أن يرتب لى غرفة فى الفندق من الغرفة التى كانت محجوزة للضباط) ، غرفة تغيير الملابس الصغيرة التى تشكل جزءا من قرية داخلية فى مسرح جوزيفاتات القديم ، المقبرة الضخمة حيث احتجنا المثاقب الكهربائية لنقب الأرض فى فبراير آنذاك . وقد سمحت لنفسى بقضاء أسبوعين فى فيينا قبل سفرى لمقابلة صديق فى إيطاليا ، على أن أكتب القصة خلال هذين الأسبوعين . ولكن أية قصة ؟ مضت أيام ثلاثة ولم يكن لدى قصة ، ولا حتى راوى الرواية كولونيل مالواى ، الذى أراه الآن أمامى بملاح تريفور هوارد ، فى اليوم قبل الأخير لمغادرتى فيينا ساعدنى الحظ الجيد بأن أتناول الغداء مع ضابط مخابرات بريطانى شاب ، (الذى أصبح دوق سانت اليانز فى المستقبل) ، إن علاقتى أثناء الحرب مع فرع إس . إى . إس . عادت على بفائدة تلك الأيام ، حكى لى أنه عندما تولى الأمر فى فيينا طلب من السلطات النمسية قائمة بأسماء أفراد شرطة فيينا ، وكان هناك قسم فى القائمة تحت عنوان « شرطة تحت الأرض » ، فأمر بتسريحهم لأن الأمور قد تغيرت ، لكنه بعد شهر وجد أن شرطة تحت الأرض مازالت تعمل ، فكرر أمره بغضب ، وأنذاك فسروا له الأمر بأن شرطة تحت الأرض لا تعنى الشرطة السرية ولكنهم رجال الشرطة الذين يعملون بالفعل تحت الأرض على طول النظام الهائل لشبكة المجارى فى فيينا ، ولا توجد فى هذه المجارى أماكن للحفء ، وكانت مداخل هذه الشبكة مموهة بأكشاك إعلانات ، ولسبب غير معروف رفض الروس إغلاقها ، وكان العملاء يتحركون من منطقة إلى أخرى تحت الأرض دون سيطرة أو رقابة .

بعد الغداء ارتدينا أحذية طويلة ومعاطف واقية من المطر ، وتمشينا أسفل المدينة ، المبنى الأساسى للمجارى كان يشبه نهرا كبيرا فى حالة مد وجزر ، وكان الضابط قد أخبرنى أيضا عن تجارة البنسلين فى السوق

السوداء ، ونحن نسير في المجارى أخذت القصة شكلها الكامل .
الأبحاث التى قمت بها حول وظائف الإحتلال الرباعى ، زيارتى لخدمة
عجوز كانت لأمى في المنطقة الروسية ، الأمسيات الطويلة مع الشراب
منفردا في الأورينتال ، لا شىء من هذا كان سدى ، لقد كان لدى فيلم .
في الأمسية الأخيرة في فيينا ، دعوت على العشاء صديقتى إليزابيث
بووين التى جاءت إلى فيينا لتحاضر في المعهد البريطانى ، أخذتها بعد
العشاء إلى الأورينتال ، ولا أعتقد أنها دخلت يوما ناديا ليليا رثا كهذا
من قبل . قلت لها : سيداهمون هذا المكان عند منتصف الليل .
قالت : كيف عرفت ؟ قلت لها لى إتصالاتى .

وبالضبط عندما دقت الساعة الثانية عشرة ، وكما طلبت من صديقى
ترتيب الأمر ، علت ضجة صوت قدمى سيرجنت بريطانى ينزل السلالم
ويتبعه رجال بوليس من الدول الثلاثة الأخرى ، كانت الأضواء خافتة
لكنه اتجه نحو إليزابيث دون تردد (فقد وصفتهما بدقة) وطلب أن يرى
جواز سفرها ، نظرت نحوه باحترام وكانت أمسية درامية لم يقدمها لها
المعهد البريطانى .

في اليوم التالى كنت في طريقى إلى إيطاليا ، لقد تم كل شىء في ذهنى
وبقيت كتابته .

* * *

٢

موقف الشخص الغربى القادم من خارج البلاد ، في وقت ثورة ،
موقف غريب وساخر ، فهو أحيانا لا يعى شيئا مما يحدث حوله على
الاطلاق ، أذكر أنى في الثلاثينات ، حين عدت من إجازتى في إستونيا ،
قررت أن أقضى عدة أيام في زيارة لأخى هوج الذى كان مراسلا لجريدة
الديلي تلجراف في برلين النازية . وكان على أن أغير القطار في ريجا عند
منتصف الليل ، وكانت هناك ساعتان من الفراغ ، وفكرت أن أتجول في
الشوارع حول المحطة المركزية ومكتب البريد . أعجبت بسائقى عربات

الدوشكى العواجيز بلحاهم التى تشبه لحية تولستوى ، ينامون على خيولهم الناتئة العظام ، وبالعاهرات اللواتى يذرعن الطريق كعاهرات لندن الفيكتورية ، يقفن فى أركان الشوارع ، وحين يمر بهم الأجنبى الشاب يرفعن « الجونلة » بدرجة تظهر كاحل دقيق وجزء من بضرة ساق رائعة .

حين وصلت فى موعد الفطور إلى برلين سألتنى أخى :

« ماذا عن ريجا والثورة ؟ »

قلت : ثورة ؟!

قال : هناك إنقلاب وقع عند منتصف الليل ، استولوا على مركز البريد الرئيسى والمحطة المركزية .. وهناك مدافع رشاشة فى كل مكان . وكان ذلك حقيقيا ، فقد قرأته بعد ذلك فى الصحف ، لكن كل ما رأيته كان سائقى عربات الدوشكى ومومسات فيكتورية .

كانت الطريقة الوحيدة للحفاظ على موعدى فى روما ، وبدء كتابة السيناريو ، هى الطيران من فيينا عن طريق براغ ، وفكرت فى انتهاز الفرصة والبقاء عدة أيام فى براغ لرؤية ناشرى كتبى ، احدهما ديمقراطى إشتراكى ينشر ما أسميه بالروايات المسلية ، والآخر كاثوليكي نشر القوة والمجد ، فى مساء مغادرتى لفينا راجت شائعات عن سيطرة الشيوعيين فى براغ على السلطة ، لكنى كنت مهتما أكثر بالتلج الكثيف الذى أخر إقلاع الطائرة .

كان على الطائرة مراسلان صحفيان إنجليزيان . أخبرانى إنهما فى طريقهما إلى براغ لتغطية أخبار الثورة .

قلت : الثورة ؟! وتذكرت ما حدث منذ سنوات فى ريجا .

سألتنى أحدهما : هل حجزت غرفة فى براغ ؟

قلت : لا .. ولا أعتقد أنه ضرورى فى مثل هذا الوقت من السنة .

« الفنادق تكون دائما ممتلئة حين تكون هناك ثورة . »

وقال الآخر بمعرفة مهنية : لقد حجزنا غرفة معا .. وكانت آخر غرفة لديهم .. من الأفضل أن تبقى معنا .

وتساقط الثلج بكثافة أكثر وأكثر ، وتأخرت الطائرة جدا ، هبطنا براغ بعد منتصف الليل ولم يكن أحد منا قد ذاق الطعام منذ الغداء . ويبدو الطعام أحيانا أهم من السرير ، لكن ، على الأقل ، لن نجد صعوبة فى

الحصول على طعام في فندق دولي .
وكم كنت مخطئاً ، لم يكن هناك سرير ، لكن تلك مشكلة حلت بسرعة ،
فهناك كنبه في غرفة الصحفيين يمكنني أن أنام عليها ، لكننا ، والساعة
الآن الواحدة والنصف صباحاً ، نريد بعض الطعام الخفيف .
قال الخادم : آسف . المطعم أغلق وكذلك كل مطاعم براغ .
إقترحت يائسا : سندويتش ؟
قال : آسف .

ثم رق قلب الخادم فقال : ربما توجد طريقة .. نقيم في الطابق الأرضي
حفلة للخدم .. لا بد أن هناك بعض الطعام الخفيف .. إذا حاولتم ربما
سمحوا لكم ..

وجدنا في الطابق الأرضي أننا لسنا وجدنا الذين نبحث عن طعام . كان
السفير الفنزويلي هناك يرقص بعدم رشاقة مع طبخة بدينة ، وكان هناك
أعضاء آخرون من السلك السياسي ، خادمة غرف لطيفة وسعت لنا على
مائدتها وأشارت الى المحتفلين تعرفنا بهم :
هذا هو السكرتير الأول في سفارة أوجواي ، وذلك خادم خاص في
الطابق الثالث ، وذلك يوسف المسئول عن الفطائر ، وشخص ما من
البنك المركزي لا أعرف عمله ..

إذا كانت هذه هي الثورة فهي ليست سيئة ، كانت الفرقة الموسيقية
تعزف والسعادة تغمر الجميع ، وتدفقت البيرة ، بعد الكأس الثالثة فكرت
في كلمات وردزورث « مبارك أن تكون حيا في ذلك الفجر » ، عاد السفير
الى مائدتنا تصحبه الطبخة البدينة ، وضع يده حول خصرها وضغط
بلطف ومثابرة ، وهو منهمك في تناول البطاطس والسجق ، وطلب منها أن
تعدده بقطعة كبيرة من البفتيك حين يأتى إلى المطعم في المرة القادمة ،
وأشار بأصابعه قائلاً « بهذا السمك » .

من كان يتكهن في تلك الليلة الغريبة ، بمحاكمة سلانسكى ، وبكل
الربح الستاليني ، وبدبشك وسمركوفسكى يجرون كأسرى سجناء إلى
موسكو ؟ بعد ٢١ سنة في عام ١٩٦٩ عدت إلى براغ ، كانت القوات
الروسية تحتل البلد ، وكان لي لقاء ذات صباح مع سمركوفسكى وكان
مريضاً بسرطان العظام ، سألته : هناك انطباع في الغرب أن كوسيجين
متعاطف مع قضيتك أكثر من بريجينيف .. هل ذلك صحيح ؟

قال : الرجال الثلاثة .. بريجنيف وكوسوجين وسوسلوف دخلوا الغرفة معا وجلسوا أمامنا .. لم أر أى فرق على الإطلاق بين بريجنيف وكوسوجين .. كانت هناك لحظة تخيلت فيها أنى أرى لمحة تعاطف فى عيني سوسلوف .. لكنه تكلم بالضبط مثلها « وبدأ لى أنى حضرت حفلة الخدم من فترة تزيد على واحد وعشرين عاما .

تلك الليلة فى سنة ١٩٤٨ لم أنم جيدا ، ولم يكن العيب فى الكنبه ، لكنى كنت متشوقا لرؤية طريقة عمل المراسلين أثناء الثورة .

بدأت الضجة والغناء مبكرا فى الشوارع ، ولكن حتى الساعة الثامنة والنصف لم يتحرك أحد من الرجلين ، لم أرد إيقاظهما مع أنى كنت تواقا للخروج ، وأخيرا فى التاسعة والنصف جر أحدهما نفسه ليذهب إلى الحمام ، والآخر تحرك والنعاس فى عينيه إلى التليفون جارا وراءه حبل الروب الذى يرتديه وطلب رقما قال « حسنا .. سأتحقق بعد ذلك .. حوالى الحادية عشرة .. لقد ظللت مستيقظا متوترا لفترة متأخرة أمس » . بدا دهشا وهو يرانى مرتديا ملابسى ، سألتنى : هل أنت خارج ؟ أخبرنا حين تعود إذا رأيت شيئا طريفا . لم يكن الأمر كما تصورت ، كنت أظن أن المراسل الخاص ينتمى إلى مهنة ديناميكية جدا وخطرة .

كانت الشوارع تمتلئ بالمواكب والأعلام الحمر والهتاف ، مشيت عشوائيا . تربكنى أسماء الشوارع التشيكية ، حتى رأيت مبنى مكتوبا عليه مكتب المعلومات البريطانى . فدخلت فى محاولة لاستعارة أو شراء خريطة ، حين خرجت لاحظت أن هناك من يتبعنى ، إستدرت إلى شارع فشارع آخر ، لكن الرجل النحيف ببذلته السوداء وقبعته المحترمة مازال يتبعنى ، توقفت أخيرا حتى لحق بى .

قال : من فضلك .. أمن الممكن أن ندخل يسارا هناك؟ دخلنا فى شارع هادىء صغير وتركنا ضجة المواكب خلفنا ، كنت منزعجا قليلا من الجو الذى يثيره حوله .

قال : أنت بريطانى ؟ قلت : نعم :

- هل تؤدى لى خدمة .. خدمة مهمة .. إن قدر بلادى على كف

عفريت .

- ما الذى يمكننى أن أفعله ؟..

- عليك أن تقابل سفير بلادك وتخبره .. أنى أشرح لك الأمر بطريقة سيئة .

كان يتوقف عن الكلام حين يظهر شخص ما في الشارع . ويستأنف كلامه حين يصبح العابر بعيدا لا يستطيع سماعنا .

قال : يجب أن أخبرك .. أنا مخترع .. وقد اخترعت مظلة تمكن الهابط بها أن يقودها لمسافة ٥٠ كم . أعطيت اختراعى لوزارة الدفاع ولكن هؤلاء الذين سيتولون السلطة سيعطون خطي للروس .. أترى كم هو مهم هذا لبلدى وبلدك ؟

كان مقنعا جدا رغم ميلودرامية الموقف ، بدأت أتخيل كيف أن الجيش يمكن أن يقاد عبر السماء ، لن يكون القتال عقبة آنذاك . طلبت منه أن يخبرنى باسمه ، فكتبه على قصاصة من الورق ، كنت بالفعل في منتصف الطريق إلى السفارة ، لكن الحذر جعلنى أسأله سؤالا آخر : هل اخترعت شيئا آخر ؟

أجاب فوراً وبحماس : اخترعت آلة لبناء الحوائط .. تلك أيضا سأعطيها للحكومة البريطانية .. تبني الحائط بمعدل قدم في الثانية . بإحساس بخيبة الأمل ، قررت أنه من الأفضل ألا أذهب للسفارة . لا شيء خلال الأسبوع الذى قضيته فى براغ كان فى حيوية وبهجة حفلة الخدم أو حتى فى طرافة قصة المظلات ، وبدأت تنتشر بالفعل نكات الهزيمة المرة خاصة حول وزن زوجة القائد الشيوعى البدينة . زرت ناشرى الكاثوليكي مرتين ، فى المرة الثانية كان هناك كشك حراسة عند السلم المؤدى لمكتبه ، وقد اخفى ناشرى فى السجن لمدة عشر سنوات .

أخذنى وكيل أدبى شيوعى إلى الحصن الذى جعل مقرا لاتحاد الكتاب ، كان فى المقر كاتب واحد فقط ، وكان يصعد سلما فى المكتبة ليحضر جزءا من دائرة المعارف البريطانية ، أخبرنى الوكيل ونحن نشرب الشاي أن هذا الكاتب هو المرجع الرئيسى لشكسبير هنا ، وفى غرفة الاستقبال الفخمة التى تتدلى منها الثريات بدأ الخبير يتحدث عن هاملت ، فلكره الوكيل الأدبى بشدة من تحت الطاولة قائلا « مستر جرين لم يقطع كل هذه المسافة ليسمعك تتحدث عن شكسبير » . بدأت أدرك إنك إن تكون حيا فى هذا الفجر ليس نعمة بالضرورة .

في مكتبة في المدينة القديمة ناولنى شخص ما ورقة صغيرة ، كان سيقودنى إلى مندوب كاثوليكي يختبئ في مكان ما ، ظننت أنه يحتاج لمساعدة كى يهرب ، فحملت معى نقودا متنوعة ، ولكنه أوضح بأنه لا يريد مساعدة من هذا النوع ، لكنه ظن أن الوضع سيثير اهتمامى لأنى كتبت رواية القوة والمجد .

كما جاء لزيارتى الروائى إيجون هوستوفسكى الذى كان يعمل في وزارة الخارجية وجلس على سريرى .. وكنت قد حصلت على غرفة آنذاك .. وأخبرنى كيف ودع الوزير مازاريك رجاله ذلك اليوم ، بكى وهو يحكى القصة وأنهينا زجاجة ويسكى ونحن جالسان . بعد أيام قليلة كان مازاريك قد مات .

كنت سعيدا بركوب طائرتى إلى روما ، لم يكن هناك ركاب سوى وعروسان شابان ، كان العريس هو الأمير شورزنبيرج وقد عين سفيرا في الفاتيكان من الحكومة السابقة . لاحظت أن معه كمية كبيرة من الحقائب ، ولم أدش حين سمعت بعد عدة أسابيع عن ارتداده . قبل إقلاع الطائرة مباشرة ، أعلن إسمى في مكبر الصوت للعودة إلى قسم الجوازات ، طلبوا رؤية جواز سفرى ثانية ، وتساءلت هل أستطيع المحافظة على موعدى في روما ، وتذكرت كشك الحراسة عند سلم ناشرى ، وهونونسكى يبكى على سريرى ، والنائب الكاثوليكي المختبئ في مكان في أحد الشوارع الجانبية في المدينة القديمة ، فحص الضابط جواز السفر وقال :

- هذا الجواز صالح لزيارتين . هذه زيارتك الأولى يمكنك أن تأتى ثانية . ولكن مرت إحدى وعشرون سنة قبل أن أعود إلى براغ ، وأنداك كان الروس هناك بدون مساعدة من المظلات .

* * *

كتبت في إيطاليا سيناريو فيلم الرجل الثالث ، ولكن الشيء الأكثر أهمية بالنسبة لي هو عثوري على البيت الصغير في أنا كبرى ، حيث كتبت كل كتبي التالية أو على الأقل جزءا منها وأنا فخور الآن بأني مواطن شرف في تلك البلدة الصغيرة ذات الخمسة آلاف نسمة .

كتابة الرواية لا تصبح أسهل بالمران أو التكرار ، إكتشاف الروائي لطريقته الخاصة في الكتابة يمكن أن يكون مثيرا ، لكن تأتي لحظة في منتصف العمر حين يشعر أنه لم يعد يسيطر على طريقته ، بل أصبح أسير هذه الطريقة ، وتحل به فترة طويلة من الملل ، ويبدو له أنه جرب كل شيء ، ويصبح أكثر خوفا عند قراءة نقاده المتعاطفين معه ، من قراءته لنقاده القادمين ، فالمتعاطفون يفردون أمام عينيه بصبر مربع النموذج اللا متغير للبساط الذي نسجه ، فيما إذا اعتمد بنسبة كبيرة على لا وعيه وعلى قدرته لنسيان كتبه بمجرد أن تصبح على رفوف المكتبات ، فهم يذكرونه بأنه تناول هذا الموضوع منذ عشر سنوات مثلا ، أو أن التشبيه الذي جرى على قلمه منذ أسابيع استخدمه تقريبا في فترة منذ عشرين سنة .

كنت أحاول الهروب من سجنى بالكتابة للسينما لكنني وقعت في سجن آخر أكثر رفاهية .

قبل عودتي إلى ما اعتبره عملي الحقيقي - الرواية - قرأت رواية أمال عظيمة لديكنز ، لم أر من قبل في ديكنز كاتبا عاطفيا متجانسا ، ولكن الآن أشرتني السهولة البادية التي استخدم فيها ضمير المتكلم في القصة . وبدا لي هذا مهربا من النمطية ، فهي طريقة لم أجربها . فهناك دائما ميزة فنية واضحة في الرواية المكتوبة بضمير المتكلم ، فوجهة النظر قد تحددت وتأكدت ولا مجال للانحراف هنا أو هناك ، كانت تكتب ما تلاحظه الشخصية فقط (هكذا خدعنا بروس بلا خجل) .

لكن حين أقابل ، أحيانا ، رواية مكتوبة بضمير المتكلم عند سومرست موم ومقلديه ، تبدو لي الطريقة سهلة جدا ومملة وبلا لون ، وقرينة جدا من الحديث العادي الأخرق .

من الممكن أن تكون مملة وجافة وبلا لون ، لكن أن تكون سهلة .. فلا .

وكثيرا ما أسفت وأنا أتتبع ضمير المتكلم في طريقه الكئيب ، وفكرت في إعادة كتابة بداية « نهاية المسألة » بأسلوب الغائب ، فلم يحدث لى من قبل أن وجدت صعوبة في توجيه واسترسال السرد ، مثلا كيف أستطيع عن طريق ضمير المتكلم أن أنوع في نغمة السرد إذا كانت شخصية واحدة هى التى تعلق على الحدث دائما ؟ خاصة أن نغمة السرد والتى جاءت في الصفحة الأولى على لسان بندركس الشخصية الرئيسية هى قوله :

« هذه الرواية سجل للكراهية أكثر منها سجل للحب » . وفزعت ، معنى ذلك أن كل الرواية ستكون كالسمكة المدخنة مشبعة بالكراهية التى يحملها البطل . كان ديكنز يغير النغمة بشكل معجز ، وحين حاولت تحليل سبب نجاحه ، شعرت كأنى رجل لديه عمى ألوان يحاول بفذلكة أن يميز لونا عن آخر .

في روايتى كان هناك ظلال من العجينة نفسها ، هاجس الحب وهاجس الكراهية . وكانت محاولتى أن أقدم نغمتين بأسلوبين مختلفين عن طريق مستر باركنز المخبر الخاص وصبيه ، نغمة ساخرة ونغمة حزينة .

ولدت الرواية في ديسمبر سنة ١٩٤٨ في غرفة نوم في فندق بالمأ في كابري وذلك قبل أن أنتقل إلى بيتى الصغير . وتخليل أنى في كتابة هذه الرواية قد تأثرت بأخر كتاب كنت أقرأه في ذلك الوقت ، وهو كتاب « مختارات من بارون فون هوجل » خاصة بفقرة كتبها عن سانت كاترين مدينة جنوا ، وكان من عادتى أن أضع علامات تحت الفقرات التى تروقنى في الكتب التى أقرأها ، ومع ذلك لم أجد أى فقرة معلمة بخصوص سانت كاترين لها علاقة بالموضوع ، ولكن عثرت في مقال آخر لفون هوجل على هذه الفقرة وقد وضعت تحتها خطا « إن تكون البنية البطيء للفرد وثقائه ليتحول إلى إنسان عن طريق حتمية القانون الطبيعى أمر لابد أن نعترف به ، وأن يكون لهذا « العنصر - القوة » مكان ما في حياتنا ، لأننا إن لم نملكه كوسيلة فسيستحوذ علينا حتى نهايتنا » . ولا شيء أبعد عن معنى فون هوجل هذا من الرواية التى بدأت تهersh مخى ، فالقصة عن رجل يساق ويُقهر بتراكم مصادفات طبيعية ، حتى

انكسر وبدأ يتقبل غير المعقول . أشعر أنى خنت الهدف الأساسى الذى كنت أعتزم أن تدور الرواية حوله .

لكن هناك الكثير الذى يعجبنى فى الكتاب . فقد كتب ببساطة ووضوح أكثر من الكتب السابقة . كما أن بنية الرواية تجنب القارئ ملل تتابع الزمن (تعلمت قليلا من قراءتى المتكررة للرواية الرائعة « الجندى الطيب » التى كتبها فورد مادوكس فورد) . ولم أدرك المشكلة المربعة التى أوقعت نفسى فيها حتى وصلت إلى الجزء الأخير من الرواية . كانت سارة الشخصية الرئيسية فى الرواية قد ماتت فى منتصف الكتاب ، وتركت وراءها فكرة فلسفية تعبر عنها ، ولم يكن لدى الرغبة فى إستدعائها أو إعادة بنائها ، وبدأت أسرع نحو النهاية قبل أن أدرك أنى خدعت ، خدعت القارئ وخدعت نفسى وخدعت البارون فون هوجل ، فوحمة ثمرة الفراولة فى جسد سميث والتى عولجت ظاهريا واختفت بواسطة سارة بعد موتها يجب الا يكون لها مكان فى الكتاب ، فكل ما يسمى بمعجزة يجب أن يكون له تفسير طبيعى تماما ، لا مانع أن تستمر المصادفات فى حدوثها مع السنين ، تسحق عقل بندركس وتضغط عليه بشك يززعزعه إلحاده - وفى الواقع فإننى قد أحببت الصفحات الأخيرة وكان لابد أن تبقى بالشكل الذى كتبت به - لكنى فى طبعة أخيرة للرواية غيرت موضوع الوحمة ، وجعلت سميث يصاب بمرض جلدى له سبب عصبى ، ويشفى بالإيمان .

وهناك حادثة فى الرواية لم تعجب كثيرا من النقاد ، وهى حادثة إكتشاف أن سارة قد عمدت ككاثوليكية حين كانت طفلة ، وهذا يعطى الانطباع للقارئ - الذى أعاطف معه - أنى أشير إلى السحر . ولكن إذا كان علينا أن نؤمن بقوة غير نهائية أكبر منا معرفة وقدرة فإن السحر لا يشكل بالضرورة جزءا من اعتقادنا ، أو أن السحر هو الإصطلاح الذى نستخدمه للتعبير عن الغامض وغير القابل للتفسير ، مثل أثر الجرح الذى رأيته عند « بدربيو » من على بعد عدة أقدام ، وهو يحمر بلون الدم ، أثناء إقامته القداس فى صباح أحد الأيام فى ديريه فى جنوب إيطاليا .

حادثة تعميد سارة السرى إستوحيتها من حياة « روجر كاسمنت » ، الذى قدم طلبا لقسيس السجن لقبوله فى الكنيسة ، واكتشف القس بعد

التحقيق أن السجين قد عُمد سرا حين كان طفلا . نحن لسنا بالضرورة في دنيا السحر أو حتى المصادفة هنا ، ربما نكون في العالم الذى شرحه « دون » فى كتابه « تجربة مع الزمن » .

حققت رواية « نهاية المسألة » نجاحا أكبر لدى القراء منه لدى النقاد . شعرت بشك نجاحها بعد أن أنهيتها حتى أنى أرسلت المخطوط إلى صديقى إدوارد ساكفيل وطلبت مشورته وسألته هل أضع الرواية فى الدرج وأنساها ؟ وأجابنى بصراحة بأن الرواية لا تهمة ومع ذلك ينبغى نشرها ، قال يجب أن يكون لدينا حيوية الفيكثوريين الذين لم يترددوا فى نشر الجيد والردىء .

ونشرت الرواية ، ولقد أراحتنى كلمات الثناء التى قالها وليم فوكنر فى الرواية . وحمدت لنفسى استخدامى ضمير المتكلم وإلا كنت سأتردد فى استخدامه فى رواية « الأمريكى الهادىء » ، رواية كان ضروريا استخدامه فى سردها .. وهى ، فنيا على الأقل ، رواية ناجحة جدا .

* * *

فليبارك الله الجزر العاقلة

حيث الأمان المطلق

فليبارك الله الجمهوريات العادلة

التي توفر للإنسان بيتا

قصيدة كبلنج كانت دائما تروق لى ، لكن لم يكن لدى مستخدم أهرب منه إلا نفسى ، والثقة الوحيدة التى يمكن أن أخونها هى ثقة أولئك الذين يحبوننى . طلبت من صديق يعمل طبيبا نفسيا أن يعالجنى بالصددمات الكهربائية فرفض . بدا لى أن أتجه إلى الطريق الطويل ثانية ، إلى بركها مستد مسقط رأسى ، وحيث لعبت وأنا يافع لعبة الروليت الروسى هربا من حب تعيس .

فى رواية « نهاية المسألة » وصفت عاشقا كان خائفا من انتهاء حبه يوما فحاول الإسراع إلى النهاية ليتغلب على الألم - وقوع البلاء ولا انتظاره ، ولكن لا توجد قصة حب فاشلة لأهرب منها هذه المرة ، بل كنت سعيدا بالحب ، هناك صعوبات بالطبع تعترض علاقات الحب ، لكن الصعوبة الأساسية تكمن فى مزاجى المتقلب ، وهكذا فى الخمسينات وجدت نفسى تبحث عن النهاية كبندركس ، ولكنها كانت نهاية الحياة وليست نهاية حب . لم تكن لدى الشجاعة على الإنتحار ، ولكن أصبحت عندى عادة وهى الرغبة فى زيارة الأماكن المضطربة فى العالم ، ليس بحثا عن مادة لرواياتى ، ولكن لأستعيد حس الخطر وعدم الأمان الذى إستمتعت به فى ثلاث غارات على لندن .

وهكذا قضية سنة ١٩٥١ ثلاثة أشهر فى الملايو أثناء حالة الطوارئ مراسلا لمجلة لايف ، وقضيت أربعة فصول شتاء من ١٩٥١ - ١٩٥٥ فى فيتنام ارسل بتقارير عن الحرب الفرنسية الفيتنامية إلى الصنداي تايمز ، وذهبت إلى كينيا سنة ١٩٥٣ لأكتب تقريراً عن ثورة الماو ماو للصنداي تايمز أيضا ، وقضيت فى بولندا الستالينية سنة ١٩٥٦ عدة أسابيع لم أستشعر الخطر فيها إلا حين حاولت إيصال ساعة ذهبية إلى موسيقى فى بيته لأقدم له وسيلة تساعد على الهرب إلى الغرب ، لكنه لم يكن يريد الهرب فطلبت منه أن يحتفظ بالساعة ، لكن أبعد هروب قمت به - ولا أقصد البعد الجغرافى - فقد كان سنة ١٩٥٨ إلى مستعمرة جذام فى الكونغو فى الأيام الأخيرة للاستعمار البلجيكي هناك .

وقعت في حب الهند الصينية بمحض الصدفة تماما ، ولم يدر في ذهني أثناء زيارتي الأولى لها أنى يوما ما سأكتب رواية تدور أحداثها هناك . كان قنصلنا آنذاك في هانوى « ترينور ويلسون » وهو صديق قديم من أيام الحرب فكرت أن أزوره بعد زيارتي للملايو ، وكانت الحرب قد نشبت في الهند الصينية وتجاهلتها الصحافة البريطانية تقريبا . والقليل الذى كتبته تلك الصحافة إستقته من وكالة رويتر أو من باريس كما في حالة جريدة التايمز .

وهكذا توقفت في فيتنام لزيارة صديقى دون أن يكون لدى فكرة أنى سأقضى شتاء سنوات عديدة قادمة هناك .

وجدت الملايو مملّة في أوقات اللا حرب ، كما تكون المرأة الجميلة أحيانا ، إعتاد الناس قول « يجب أن ترى هذه البلاد وقت السلم » . وكنت أريد أن أجيب « ولكن كل ما يمنعنى ويهمنى هنا هو حربكم » . إن الملايو في حالة السلم ستكون أكثر شبها بالوادى الإنجليزية ، وشرب الجن ، والحديث عن الفضائح الصغيرة التى تنتظر شخصا كسومرست موم لتسجيلها . ولكنى في الهند الصينية أخذت جرعة سحرية ، كأس حب أقتسمها منذ ذلك الحين مع كثير من الضباط المتقاعدين الذين تلمع عيونهم عند ذكر سايجون أو هانوى .

مكثت في تلك الزيارة أكثر قليلا من اسبوعين ، وملأت هذه الدقائق الحاسمة حتى الثمالة ، تبعد هانوى عن سايجون مقدار ما تبعد لندن عن روما ، ونجحت بالاضافة الى الاقامة في هاتين المدينتين أن أقوم بأول زيارة من عدة زيارات إلى الدلتا الجنوبية ، أولا لزيارة طائفة دينية غربية هى الكاودية نسبة إلى مؤسسها كاوداى سنة ١٩١٩ ، والذى يعتبر المسيح وبوذا وسن ياتسن وفكتور هوجو (لتصوفه) ، قديسين لطائفته ، وثانيا لزيارة مقاطعة صغيرة كأنها من إقطاعات العصور الوسطى ، تأسست في مستنقعات بنتر على يد الكولونيل « ليروى » الشاب الذى كان شبه منتم لأحدى طوائف الهندوس المنغلقة على

نفسها ، والذي قرأ دو ثوكوفيل ، وضرب بقسوة النمر ومطاردته الشيوعيين في منطقته . منذ سنوات قليلة كان طفلا صغيرا يركب جاموسة في حقول الأرز المغمورة بالماء ، والآن هو ملك غير متوج . سعدت بعد سنوات أن أكتب مقدمة لسيرته الذاتية الصريحة والتي لم يحاول فيها أن يخفى وجه النمر بابتسامه ، وكان ذلك ردا صغيرا لمعروف . فقد أنقذ حياتي ، كان ذلك سنة ١٩٥٥ حين كان الفرنسيون يخلون المنطقة الشمالية ، وكنت أنتظر في سايجون للسماح لي بدخول هانوى التي كانت في أيدي الفيتناميين . ولكي أقضى الوقت فكرت أن أطلب مقابلة جنرال إحدى الفرق الفيتنامية التي حاربت في الجنوب .

تلقيت مكالمة من « ليروى » أن أحضر إليه في مكتبه في سايجون ، كان عنده رجل فرنسي قدمه لي كمدير العلاقات العامة للجنرال الذي سأقابلة . قال الرجل أن الجنرال تسلم رسالتي ويسعده أن يرانى في مقر القيادة على الغداء . ونصحني الرجل برفض الدعوة ، فقد قلب الجنرال في ملفاته ووجد أنى منذ ثلاث سنوات وصفته في مجلة « بارى ماتش » بأنه كان قبل إلحاقه بالجيش سائق عربية ثريشو ، ويعتبر هذا تشهيرا به ، فلم يكن أبدا سائق ثريسيوبل كان كمساريا في حافلة ، وأنه يحذرني لأنى صديق « لليروى » ، وقال أن الجنرال سيبدى كل لطافة وكياسة في معاملتي إذا ذهبت ، لكنى يجب أن أتأكد أن حادثة ستقع لي في طريق العودة إلى سايجون .

كنت تواقا في زيارتي الأولى تلك سنة ١٩٥١ أن أقوم بزيارة إلى فات ويام أحد أسقفى الشمال (الآخر كان بوى شو ، عرفته بعد سنوات وأنداك كنت سأفقد حياتي لولا أنهم إكتشفوا اللغم المدفون على الطريق قبل لحظات من عبور عربية الجيب فوقه) ، كان الأسقفان حليفيين ، ولهما جيشان صغيران ومستقلان عن القيادة الفرنسية . كنت آنذاك مازلت أتدفا بكرم الجنرال دى لاتر الذى وضع طائرة صغيرة تحت إمرتى ، كان يتوقع أن أطير بها متجولا حول مواقعه الامامية المسماة خطأ بخطوط هانوى ، لكنى طرت مع تريفور ويلسون لنزور الجيش الصغير لفات ويام . في طريق العودة اطلقت النار على الطائرة ، وأخطأت إذ ذكرت الحادث للجنرال على العشاء تلك الليلة ، بدا الإمتعاض عليه ، وبدأت علاقتنا تفتت منذ ذلك الحين ، لم يهمنى الأمر لكنه كان كارثة بالنسبة

لصديقي تريفور القنصل البريطانى هناك .

لم يكن التغير فى معاملته ملحوظا ، وكنت الضيف المجل عند هانوى ، بل وأهدانى الشارة التى تعلق على الذراع للجيش الفرنسى الأول ، الذى قاده عند سقوط ستراسبورج ، منذ أشهر قليلة أجليت جميع العائلات الفرنسية عن هانوى ، فالمدينة كانت على وشك السقوط ، والروح المعنوية منخفضة ، لكن دى لاثرفال لرفاقه « أنا عائد الآن إلى سايجون ولكنى أترك لديكم زوجتى كرمز أن فرنسا لن تترك أبدا هانوى » . كان من الصعب على المرء أن يتخيل أنه فى أقل من سنة سيموت فى باريس بالسرطان حزنا على الهزيمة ، وأنى فى أقل من أربع سنوات سأتناول الشاى مع هوشى منه فى هانوى .

رجعت إلى إنجلترا وأنا مصمم على العودة لفيتنام ، ولكنى مازلت غير واع أنى سأجد موضوع رواية هناك . المقال الذى كتبته عن الملايو أعجب هيئة تحرير مجلة لايف ، ووافقوا على إرسالى إلى فيتنام فى الخريف التالى .

حين عدت بعد ثمانية شهور فى أكتوبر سنة ١٩٥١ ، كانت التغييرات مروعة ، أصبح الجنرال دى لاثرفال آخر بعد أن فقد ابنه الوحيد فى كمين نصبه الفيتناميون فى منطقته فان ديام ، تغلفت آماله بالآلم ، وأصبح ضباطه يوجهون له النقد علنا ، ملوا من تكراره الحديث عن تضحيته الخاصة ، فالآخرون قد ضحوا بأبنائهم أيضا ولم يستطيعوا نقل جثثهم إلى الوطن لتقام لهم جنازة رسمية فى باريس كما حدث لابنه ، وكان الجنرال يعانى دوما من عقدة الإنجليز ، وبالرغم من عطفه الشديد على زوجته ، كان كثير الشك بالكاثوليكية ، ولقد ربط بطريقة مرضية غريبة بين زيارتى لفات ديام ومقتل إبنه ، وحقيقة أنى وتريفور كاثوليكيان . وبمقيلته المريضة حملنا مسئولية مقتل إبنه ، وكتب إلى مكتب العلاقات الخارجية أن تريفور ويلسون - الذى منح وساما لخدماته التى اداها لفرنسا أثناء الحرب - أصبح شخصا غير مرغوب فيه ، وطرد تريفور من الهند الصينية وفقد مكتب العلاقات الخارجية قنصلا متميزا ، وفقدت فرنسا صديقا مخلصا .

حين عدت إلى هانوى كان تريفور ويلسون قد غادرها ، ولكن سمح له بالعودة لمدة إسبوعين لحزم حوائبه وأوراقه ، وفى الوقت نفسه وجدت

نفسى تحت مراقبة أمنية من شخص لطيف إعتدت تسميته بمسيو دوبو ، وقد سببنا له متاعب عديدة أنا وتريفور فى الفترة القصيرة التى أصبحنا فيها معا ، إعتدنا أن نقابله فى مقهى لوبى فى هانوى ونخبره بخططنا وتحركاتنا لليوم التالى ، ونجلس لنشرب الفيرموت ونلعب ، وكان تريفور يلقي بالنرد الرابع دوما .

كان مسيو دوبو لا يقوى على السكر ، ويعود إلى البيت دائما مخمورا وفى حالة رثة ، وهكذا أضيفت متاعبه العائلية لمتاعبه المهنية ، فزوجته ترفض أن تصدق أن ارتشافه لقليل من الخمر كان بسبب تأديته لواجبه . وفى إحدى المناسبات الحزينة ، رافقنا إلى هاينونج حيث أراد تريفور توديع بعض أصدقائه ، وكان لتريفور ضعف نحو الحمامات الصينية غير التقليدية ، فاقف عربة مسيو دوبو الرسمية عند أول المدينة حيث جذبه اعلان عن حمام صينى . وأخذ مسيو دوبو المغطس المجاور له كما يحتم عليه واجبه ، لكن الحمام كان يشتمل على مساج صينى خاص لم يتحملة قلب مسيو دوبو ، أخرجه وحاولوا إنعاشه بكثير من الويسكى الذى لم يكن معتادا عليه ، كما عولج فى الصباح التالى بجرعة من قرينيت برانكا التى لم يشربها من قبل ، إضافة إلى كل هذه المتاعب فقد أثرى وكنت قد ذهبت إلى منطقة فان ديام مع القسيس العسكرى الشجاع .

أشعت أنى أكتب رواية بوليسية عن الهند الصينية ، وأن عنوانها الذى اخترته بالفرنسية هو « هذا هو مسيو دوبو » ، وهكذا ذات مساء وأنا جالس على الرصيف خارج مقهى دولوبى ، لاحظت إقتراب مسيو دوبو العصبى ، وعيناه تتجهان نحوى كعيني كلب ينتظر أن تمازحه . الرقابة التى وضعت على بدأت قبل وصول تريفور ، وبعد أيام قليلة من وصولى لهانوى .. جاءنى مسيو دوبو ومعه كتابان لى فى طبعتهما الفرنسية ، فوقعتهما له وشربنا معا كأسا من الليمون . فى اليوم التالى جاء ومعه كتاب آخر وطلب منى كتابة إهداء عليه لزوجته ، وفى الأيام التالية أحضر كتابا لأوقعها لأصدقائه ، وحين حاولت الحصول على بضعة نسخ لى لإهدائها وجدت أنه قد نظف كل مكتبات هانوى من كتبى . بعد ذلك أسقطنا حكاية التظاهر هذه ورتبنا اللقاءات المسائية معا ، لكن ما أدهش له كيف كان يبرز لى فى جولاتى اليومية ؟ فى مقهى بينما أتناول

الشراب ، في حانوت حيث اشترى بعض الصابون ، في شارع أتمشى فيه من أجل رياضة المشى ، بدأنا نتألف معنا ، وبعد رحيل تريفور بدأ يشعر نحوى بمسئولية أبوية . كنت أدخن أيامها قليلا من الأفيون ، مرتين أو ثلاث مرات في الاسبوع ، وكان يناشدنى بحرارة أن أعود إلى البيت وأنام بهدوء بعد لعب النرد ولا داعى لتدخين الأفيون .

بدأ الشك يحوم حولى حين تسلمت برقية غير موقعة يعلمنى فيها تريفور بقرب وصوله إلى باريس ، إن غرابة تصرفاته الإقتصادية تجعله يرى أنه لا ضرورة لتوقيع برقية ، لكن من الواضح أن ذلك يعتبر محاولة للخداع بالنسبة للأمن ، واعتقد أن الأمور وصلت إلى ذروتها حين تسلمت من إدارة الأمن دعوة للغداء مع الجنرال دى لاتر ، وكان مسافرا الى باريس في اليوم التالى .

وعلى الغداء لم نتحدث فى شيء ، كان ضيف الشرف ممثلا سويسريا للصليب الأحمر كان يحاول ترتيب عملية لتبادل الأسرى . جلست قرب السيد تام مدير البوليس الفيتنامى ، وهو رجل مشهور بالوحشية منذ مقتل زوجته وابنه وفقده لإصبع فى عملية عسكرية ، حين إنتهى الغداء قال لى : يا جراهام جرين المسكين .

لم يتمكن من الحديث معى ، وطلب منى أن أحضر حفلة الكوكتيل ذلك المساء وأبقى للعشاء .

واستمرت الحفلة طويلا ، كانت حفلة وداعه لهانوى ، وسرت إشاعة بأنه لن يعود ، وأن النصر الزائف فى معركة « هاوينه » هو الهدية الغالية التى إشتراها ليعود بها إلى باريس ، وغادر الكل أخيرا عدا الضباط الذين بقوا للعشاء ، كان بعض الجنود يغنون جماعيا ، بينما جلس الجنرال دى لاتر على كنبه ممسكا بيد زوجته . لوعلمت بأنه كان يحتضر لرأيت فيه مرة ثانية البطل الذى قابلته قبل عام ، ولكن بدا لى الآن أن حديثه طويل ممل ، وسحره قد تلاشى ، ينتقده ضباطه ، لهب ينطفئ ويبدو كأنه لم يكن سوى دخان .

فى العاشرة توقف الغناء . والتفت الجنرال لى قائلا :

-والآن يا جراهام جرين .. لماذا أنت هنا فى فيتنام ؟ كانت إنجليزيتة مكسرة ، ولهجته بها جافة متبجحة بطريقة لم يقصدها . قلت : أخبرتك من قبل .. أنى أكتب لمجلة لايف .

قال : إننى أدرك أنك عضو فى المخابرات البريطانية .
كان الجنرالان لينار وسالان يجلسان على حافة كراسيهما متظاهرين بعدم الإصغاء .

ضحكت . قال : عرفت أنك كنت فى الخدمة السرية لمدة ثلاث سنوات أثناء الحرب العالمية الثانية .

وأوضحت له أننا أثناء الخدمة الوطنية لا نختار عملنا . ولا نستمر فيه حين تنتهى الحرب .

قال : أعرف أنه لا أحد يترك المخابرات إذا دخلها .
قلت : قد يكون ذلك حقيقيا بالنسبة للمكتب الثانى .. ولكن ليس حقيقيا مع أمثالنا .

وأعلن الخادم أن العشاء جاهز .

جلست بجانبه ، وتبادلنا حديثا رقيقا ، كانت زوجته ترمقنى بعبوس ، فلقد أزعجت سلام رجل مريض تحبه فى آخر ليلة له فى هانوى مشهد نصره وهزيمته ، حتى ذلك الوقت لم أكن أدرك كم هو مريض ، شعرت بالحقارة بعد ذلك . كان يستحق صحبة أفضل منى .

حين نهضنا عن المائدة ، سألته إذا كان بالإمكان أن أراه على انفراد ، طلب منى أن أمكث حتى يغادر الآخرون ، وفى الواحدة والنصف صباحا أرسل لى لمقابلته فى مكتبته ، تمننت لى زوجته ليلة طيبة بطريقة باردة . ألم يكن لدى زوجها ما يكفيه من المنغصات ؟ كنت قد أعددت فى ذهنى ما سأقوله له بما فيه المبلغ الذى تدفعه لى مجلة لايف مقابل مقالى ، سمعنى وعبر عن اقتناعه بكلام طنان (لكن تلك كانت طبيعته) ، قال :

« أبلغت إدارة الأمن أن جراهام جرين صديقى ، ولا أصدق ما تقولونه عنه ، عادوا ثانية ليقولوا لى إنك ذهبت هنا وهناك . قلت لهم لا أصدق فجراهام جرين صديقى ، وعادوا مرة ثانية » .
صافحنى بحرارة قائلا كم هو سعيد أن يعرف أن كل تلك الشكوك كانت على خطأ .

ولكن فى اليوم التالى ، وقبل مغادرته إلى باريس ، عادت إليه شكوكه وهواجسه ، فلقد تسلمت برقية ثانية غامضة وغير موقعة ، وكانت هذه المرة من وكيلي الادبى فى باريس يقول فيها :

« صديقتي يصل الخميس . دوروثي تحت رعاية فيليب » .
والجملة الأخيرة تشير إلى دوروثي كلوز التي ترسم كتب الأطفال التي
ألفتها والتي قررت أن تصبح كاثوليكية ، وفيليب كان الأب فيليب كارمان
الجزويت اللندني المشهورة ، لكن كان من الواضح ما الذي إستنتجته
إدارة الأمن منها .

قال دى لاتر لأحد أصدقائه قبل صعوده إلى الطائرة :
« كنت أعرف أنه جاسوس . وإلا لماذا يكلف نفسه القدوم إلى هذه
الحرب من أجل أربعمائة دولار ثمننا لمقال » . ونسيت كم كانت إنجليزيتها
مكسرة ، فقد نسي أن يضيف صفرا للمبلغ الذي كان أربعة آلاف دولار
للمقال .

لم أكتب أبدا رواية : ها هو مسيو دو بو ، ولكن وأنا عائد إلى سايجون
بعد قضاء ليلة مع الكولونيل لوروى ، لمعت في ذهني فكرة رواية
« الأمريكي الهادىء » .

تقاسمت تلك الليلة ، غرفة مع أمريكى ملحق ببعثة المساعدة
الإقتصادية ، أعضاء هذه البعثة ، كما يرى الفرنسيون وهم على حق ،
أعضاء في وكالة المخابرات المركزية ، رفيقى هذا لا يحمل أى شبه مع
بايل بطل روايتى « الأمريكي الهادىء » ، فهو رجل أشد ذكاء وأقل
براءة ، حاضرنى طوال طريق العودة إلى سايجون عن ضرورة وجود طرف
ثالث في فيتنام ، لم أقترب قط ، لهذه الدرجة ، من الحلم الأمريكى الكبير
الذى سيفسد الأمور في الشرق كما سيفسدها في الجزائر .

القائد الوحيد الذى يمكن القول أن هذه القوة الثالثة تعده ليكون
رجلها ، كان الجنرال المزيف « تيه » . عند زيارتى الأولى إلى طائفة
الكاوداى كولونيلا في جيش البابا الكاوداوى ، في قوة من عشرين ألف
جندي تحارب نظريا بجانب الفرنسيين ، لهم مصنع السلاح والذخيرة
الخاص بهم في « تايين » يزودون الأسلحة الصغيرة التى يبتزونها من
الفرنسيين بمواسير مصنوعة من أنابيب العادم في السيارات القديمة .
لتصبح كمدافع الهاون .

ومن الصعب الا يشك المرء في أنهم هم الذين صنعوا قنابل الدراجات
التي انفجرت في سايجون في العام التالى ، ففيها طابعهم الخاص ، كانت
القنابل تخفى في أنابيب بلاستيكية تموه بشكل منفاخ الدراجة ، وتترك

الدراجات في الحقائق العامة وخارج الوزارات مستندة إلى الحوائط ، والدراجة لا تثير الإنتباه في سايجون ، فهي مدينة مملوءة بهم مثل كوبنهاجن .

في الفترة بين زيارتي الأولى والثانية ، كان الجنرال تيه (كما رقى نفسه) قد انفصل مع عدة مئات من الرجال عن الجيش الكاوداوى ، وتمركز في الجبل المقدس خارج تايين ، وأعلن الحرب على كل من الفرنسيين والشيوعيين .

حين ظهرت روايتي « الأمريكى الهادىء » ، وكتبت عنها مجلة نيويورك الأمريكية ، أداننى المراجع لأنى اتهمت أعز أصدقائى (يقصد الأمريكين) بالقتل حين ألقيت عليهم مسئولية الانفجار الكبير في ميدان سايجون الرئيسى - وهو أسوأ بكثير من قنابل الدراجات الموقوتة والتي تعتبر تافهة بالنسبة لما فعلوه - حيث فقد الكثيرون ارواحهم .

ولكن ما هى الحقائق التي كان يجهلها السيد المراجع ؟

كان مصور مجلة لايف وقت وقوع الانفجار في مكان يمكنه من إلتقاط صورة مرعبة ودقيقة للحادث ، إحداهما مثلاً يبين جسم سائق عربة تريشو مازال وراء مقود عربته بينما تطايرت ساقاه في الانفجار . هذه الصورة ظهرت في مجلة دعاية أمريكية تطبع في مانيلا تحت عنوان « أعمال هوشى منه » ، رغم اعتراف الجنرال تيه بمسئوليته عن الحادث ، من الذى زود هذه العصابات التي كانت تحارب الشيوعيين ، والكاوديين والفرنسيين بهذه المتفجرات ؟ وهناك دلائل مؤكدة على الاتصالات بين المخابرات الأمريكية وجنرال تيه ، فقد عثر مزارع مطاط فرنسى على جيب به جنتان لأمريكيتين على الطريق على الجبل المقدس حيث مقر جنرال تيه ، من المحتمل أن يكون الفيتناميون قد قتلوهما ، لكن ماذا كانت تفعالن في المزرعة ، وقد تسلمت السفارة الأمريكية الجنتين ، ولم يسمع شيء عن الحادث ، ولا كلمة ظهرت في الصحف . كذلك أعتقل قنصل أمريكى في وقت متأخر من الليل على كوبرى في الطريق إلى داكوا ، وكان يحمل قنابل بلاستيكية ، ومرة ثانية لم تذكر الصحف الحادث وكتب عليه لأسباب سياسية .

وهكذا ، هبط على موضوع رواية الأمريكى الهادىء ، خلال ذلك الحديث عن قوة ثالثة في الطريق عبر الدلتا إلى سايجون .

وتتابعت شخصيات الرواية ، كلها من اللا وعى عدا شخصية واحدة هى جرانجر المراسل الصحفى الأمريكى ، حتى أن المؤتمر الصحفى الذى شاهده فى هانوى كان مسجلا كلمة كلمة فى يومياتى آنذاك . ومن المؤكد أن هناك من المباشرة فى رواية الأمريكى الهادىء أكثر مما يوجد فى أى رواية أخرى كتبتها . ولقد عمدت إلى استخدام ضمير المتكلم مستفيدا من التجربة التى اكتسبتها من رواية « نهاية المسألة » ، وكذلك التنقل فى الزمن ، واختيارى لصحفى بطلا للرواية بدا لى مبررا لاستخدام الريبورتاج .

لم يكن المؤتمر الصحفى هو السرد المباشر الوحيد فى الرواية ، فقد كان بطل الرواية - المتكلم - فى قاذفة قنابل (كان الطيار قد خالف أوامر جنرال دى لاترو وأخذنى معه) هاجمت مواقع الفيتناميين ، وكان أيضا مع الفيلق الأجنبى خارج فات ديام ، ومازالت ذاكرتى تحتفظ بالصورة الحادة لطفل ميت ملقى فى خندق قرب جثة أمه ، إصابتهما المحكمة بالرصاص جعلت موتهما أكثر إزعاجا من المذبحة غير المميزة التى حدثت فى القنوات المحيطة .

رجعت إلى الهند الصينية للمرة الرابعة والأخيرة سنة ١٩٥٥ بعد هزيمة الفرنسيين فى الشمال ، وصلت هانوى بصعوبة ، مدينة حزينة ، حيث شربت هناك آخر زجاجة بيرة كانت موجودة فى المقهى الذى تألفت فيه مع مسيو دوبو ، كنت أشعر أنى مريض جدا ومتعب وحزين ، تعاطفت مع المنتصرين لكنى شعرت بتعاطف أيضا مع الفرنسيين ، كان بإمكانى رؤية الكتب الكلاسيكية الفرنسية فى واجهة مكتبة صغيرة تبيع الكتب القديمة ، والتى كان ينقب فيها دوبو منذ سنوات .

كان فندق المتروبول حيث اعتدت أن أنزل فى أيدى اللجنة الدولية ، وكانت أكشاك حراسة الفيتمنة خارج المبنى حيث أعطى دى لاترو وعده « اترك زوجتى لديكم كرمز على أن فرنسا لن تترك هانوى أبدا » ومريوم إثر يوم وأنا أحاول أن أشق طريقى لمقابلة هوشى منه ، وغرقت روحى فى الرذاذ المتساقط طوال اليوم من المطر الدافئ ، وأخبرت وسيلة الإتصال لترتيب المقابلة أنى لا أستطيع الإنتظار أكثر من ذلك ، وأنى عائد فى اليوم التالى إلى ما تبقى من أرض يسيطر عليها الفرنسيون فى الشمال ، ولا أدرى لماذا أتى هذا الإبتزاز بنتيجة ، فقد دعيت فجأة لتناول الشاى

مع هوشى منه . أدركت وقتها أنى مريض لدرجة لا تمكننى من حضور اللقاء ، وفكرت فيما يمكن أن أعمله ، لم تكن هناك سوى طريقة واحدة ، ذهبت إلى دكان عطار صينى قديم زرته فى السنة السابقة ، كانوا يطلقون عليه « أسعد رجل فى الدنيا » ، وهناك أمكننى أن أدخن عدة غلايين من الأفيون ، وقبل انتهائى من تدخينها أتى الرسول ليصحبنى للمقابلة ، ووقع المستحيل ، زجاجة البيرة التى شربتها وغلايين الأفيون التى دخنتها ، كل ذلك أبعد عنى المرض والكسل ، وأعطانى الحيوية لمقابلة هوشى منه على الشاى .

أسعد اللحظات التى بقيت فى ذاكرتى عن الفترة التى قضيتها فى الهند الصينية ، هى تلك المتعلقة بتدخين الأفيون ، وقد لعب ذلك دورا هاما فى حياة فولر إحدى شخصيات روايتى الأمريكى الهادىء ، وإنى أضيف هنا بعضا من يومياتى حول هذا الموضوع ، لأنى أكره أن أغادر الهند الصينية إلى الأبد برواية واحدة تذكرنى بها .
سايجون فى ٣١/٥/٥٣ .

من أطرف ما قد يقع لك فى الأماكن البعيدة أن تلتقى « بصديق الأصدقاء » ، شخص ما إستراح له صديق لك ، وبالتالي ستستريح له أنت أيضا .

هذا المساء جاعنى. واحد من هؤلاء ، طبيب بحرى ، بعد تناول كأس ويسكى فى غرفتى ، تجولنا فى سايجون ، راكبا وراءه على دراجته النارية ، ثم توجهنا لندخن نفسين من الأفيون ، صعدنا إلى غرفة فى الدور الأول تقع فوق مدرسة للتلاميذ الصغار ، صاحب البيت نفسه كان يدخن حوالى ستين غليونا يوميا ، وكان يبدو كإنسان مجفف ، كانت إبنته وإبنه ينامان فى الغرفة ، لا ينبغى للصغار تدخين الأفيون ، فهو على رأى الصينيين للكبار ومتوسطى العمر ، كان الغليون هنا رخيصا ، بعشرة قروش ، فذهبنا إلى مكان أكثر أناقة ، يستأجر المرء فيه غرفة ويمكنه أن يحضر رفيقه معه ، وكانت هناك مظلة كبيرة فوق السرير الدائرى ، كما لاحظت رفا من الكتب بجوار السرير ، ومن الغريب أنى وجدت روايتين لى بين الكتب هناك ، وزارة الخوف وصخرة برايتون ، فكتبت إهداء على كل منهما . كان الغليون هنا يكلف ٣٠ قرشا .

بدأت تجربتى مع الأفيون فى أكتوبر ١٩٥١ حين كنت فى طريقى من

هايفونج إلى بايدلونج ، إصطحبني موظف فرنسي بعد العشاء إلى شقة صغيرة في شارع خلفي ، كنت أشم رائحة الأفيون وأنا أصعد السلم ، كانت رائحة تشبه النظرة الأولى التي يلقيها المرء على امرأة جميلة ويدرك أن هناك احتمال علاقة ستنشأ بينهما .

قررت المدام صاحبة المكان أنى مادمت مبتدئا فيجب ألا أدخن أكثر من أربعة غلايين ، وأنا شاكر لها جدا نصحتها تلك . فتجربتي الأولى كانت ممتعة جدا ولم تفسد بزيادة الجرعة ، كما أن جو المكان دخل قلبي فورا ، الأريكة الصلبة ، المخدة الريش التي كالقمرميدة ، تكشف يناسب رياضة السرور كما يقولون ، أما المصباح الصغير الذى ينعكس ضوءه على وجه معد الغليون وهو يعجن الكرة الصغيرة بنية اللون فوق اللهب حتى تظهر فيها الفقايع ويتغير شكلها كالحم ، والأضواء الخافتة ، وفناجين الشاي الأخضر غير المحلى الصغيرة ، كل هذه الأشياء لترف اللذة .

يدفع المعد الكرة الصغيرة بإبرة داخل الغليون ، ويقلبه فوق اللهب لمدة لا تزيد على ربع دقيقة ، ويستطيع المستنشق الحقيقي أن يسحب كل ما في الغليون في نفس واحد .

بعد غليونين شعرت بدوخة ، بعد أربعة شعرت أن ذهني هادئ ويقظ ، التعاسة والخوف من المستقبل أصبحا من مخلفات الماضي ، يعبران الذهن لما وكنت أظنهما مهمين . وجدت نفسي ألقى بقصيدة لبودلير على صديقي الفرنسي وأنا الذى أشعر بالخجل من فرنسيتي الخشنة ، « دعوة إلى رحلة » تلك القصيدة الجميلة عن الهروب . حين عدت إلى البيت تلك الليلة ، جربت للمرة الأولى ليالى الأفيون البيضاء ، يسترخى المرء مسترخيا ويقظا ، لا يريد النوم ، نحن نرتعب من اليقظة حين تكون أفكار المرء مشغولة ، أما في هذه الحالة - فمن الخطأ أن يقول المرء أنه سعيد - لأن السعادة تجعل نبضات القلب تضطرب . وفجأة وبلا إنذار تروح في النوم . لم أتم في حياتي نوما عميقا في ليلة كاملة كما نمت تلك المرة لفترة قصيرة . تنام وتستيقظ لتجد أن عقارب الساعة المضيئة تقول أنه لم يمض في الواقع أكثر من عشرين دقيقة ، إستيقاظ هادئ ونوم عميق يعادل نوم ليلة بطولها .

هانوى في ١٠/١/١٩٥٤ :

إصطحبني عدد من الأصدقاء الفرنسيين إلى الحى الصينى فى هانوى ، نادينا أولا على صديقنا الصينى الذى يعيش فوق مخزن للعطارة ، العائلة كلها تتجمع فى غرفة واحدة مع كلب وقطة ، بعد أن شربنا الشاي قمنا بزيارة لأحد أقاربه يطلقون عليه « رأس الأفعى » و« أسعد رجل فى العالم » ، كان يجلس بين الجدران الضيقة التى تشبه النفق ، يرتدى بيجامة خفيفة ، لم يكلف نفسه إرتداء ملابس ، كان ثريا وقد ورث العمل عن والده وهو صغير ، وكان يبدو كقطعة من العطارة الجافة ، جعله الأفيون هيكلا عظيما ، وفى الخلف كان الأولاد يلعبون لعبة المهجونج التى تثير ضجيجا كعاصفة . دخنت غليونين كفاتحة للشهية ، وبعد العشاء فى نيوماجودا ، رجعت ودخنت خمسة غلايين آخر .

هانوى ١١/١/١٩٥٤ :

عشاء مع أحد الأصدقاء الفرنسيين وبعد ذلك دخنت ستة غلايين ، وأصوات إطلاق النار وطائرات الهليكوبتر القربية من الأسطح تحمل الجرحى ، تملأ المكان . كلما إقتربت من الحرب أكثر قلت معرفتك بما يجرى ، الصحف اليومية فى هانوى تتحدث عن الحرب أقل من الصحف التى فى سايجون ، وصحف سايجون أقل من صحف باريس . أصوات طائرات الهليكوبتر لها تأثير غريب على تدخين الأفيون ، فهى تجعل الفقايع الرقيقة من الشمع تتلاشى فى اللهب ، ولأن الغليون خامد لا يشعل ، فإن الأفيون يفقد كثيرا من رائحته كما تفقد السيارة نكهتها فى الهواء الطلق .

فيانتيان ١٢/١/٥٤ :

إستيقظت مبكرا للاحق بطائرة عسكرية تغادر إلى فيانتيان العاصمة الإدارية للاوس . كانت طائرة شحن عسكرية ، وجلست على حقيبة ، وكنت سعيدا أن وصلت .

بعد العشاء ذهبت إلى بيت مستر س وهو أوراسى ومدمن لتدخين الأفيون مما جعله نحيفا وأطرافه كأنها لصبى صغير ، كان رقيقا ساحرا وكثيرا فى الوقت نفسه ، يتكلم الفرنسية بلهجة جميلة . واضحة ، يحدق بنظارته ذات الإطار من المعدن ، بدقة فى الإبرة التى يدفع بها الأفيون فى

الغليون . يعيش في بيت صغير ضيق لا يتسع لزوجته وطفله اللذين تركهما في بنوم بنه . في الليل لا يفعل شيئا ، فالسينما تعرض الأفلام القديمة فقط ، ولا يفعل شيئا في النهار سوى الإنتظار خارج مبنى الحكومة لعلّ أحداً يستخدمه لقضاء مهمة بسيطة ، كانت حقيقته شقا في جذع نخلة يدس فيه كتابه أو جريدته حين يستدعى لأداء خدمة ما ، كان أفيونه ممتازا ، أفيون نقي من لاوس ، كما كان يعد الغلايين بطريقة تثير الإعجاب ، وجهه الحزين المندھش يحلق في الأفق ، وأصابه العظمية تعجن وتدق بذرة السعادة البنية ، يتكلم بلطف وبخبرة العالم حول أنواع الأفيون ودرجاته . أفيون لاوس ، يونان ، شيهاون ، إسطنبول ، بيناريس ، آه بيناريس ذلك النوع ستتذكره عبر السنين .

: ١٩٥٤/١/١٨

بعد تناول الشراب مع م و د من إدارة الأمن ، وعشاء مع عدد من أعضاء المفوضية ، رجعت مبكرا إلى الفندق لأقابل مفوض شرطة فيتنامي ورجلين في ملابس مدنية سأذهب بصحبتهما في رحلة في ليل سايجون . أول غرزة ذهبنا إليها كانت في منطقة العشش ، بيوتها مبنية من القش وفي حالة سيئة ، كان في المكان ، مقهى ومطعم وبيت دعارة وغرزة لتدخين الأفيون ، صعدنا سلما خشبيا إلى حجرة مسقوفة بالقش ، ولا يستطيع المرء أن يقف منتصبا لانحدار السقف وانخفاضه ، وعليه أن يزحف من السلم إلى إحدى المرتبتين المزدوجتين المفروشتين على الأرضية ، تغطي كل منهما ملاءة بيضاء نظيفة . وجاءت فتاة مع معد الأفيون ، من الواضح أنها أحضرت لمتعتي الخاصة . كانت فتاة جذابة ، قدرة ، في عينيها حول خفيف ، قال مفوض الشرطة :

« هناك مثل يقول الغليون الذي تعده امرأة يكون أكثر حلاوة » . قامت الفتاة بحركات تسخين كرية الأفيون للحظات قبل أن تمدّها للخبير . دخنت غليونين فقط لأنني لم أعرف إلى متى ستمتد السهرة ، بعد أول غليون انسحب رجال الشرطة هابطين السلم بحذر ، متحينين الفرصة لى لاستخدام الفراش المزدوج ، وهذا ما لم أكن أرغب فيه ، وإذا لم يكن هنا سبب إلا عدم القدرة على التركيز في هذا الموضوع ، وثلاثة من رجال الشرطة ينتظرون أسفل السلم يصغون ويشربون الشاي . لكفاني هذا سببا .

كانت الكلمة الوحيدة التى أعرفها من اللغة الفيتنامية هى كلمة « لا »
والكلمة الوحيدة التى تعرفها الفتاة من الإنجليزية هى كلمة « أوكى »
وقام بيننا صراع مؤدب بالكلمتين .

تناولت فنجانا من الشاي ، أسفل السلم مع ضباط الشرطة والسيدة
الجميلة جدا والتى لها وجه هادئ كراهبة ، حاولت أن أشرح للمفوض
أن إهتمامى منصب الليلة على جو الأمكنة التى نزورها ليس غير ، وقد
أحببت قولى هذا روح الفريق .

طلبت منهم ، إذا كان بإمكانهم ، أن أرى بيت دعارة أنيقا وظريفا ،
كانت الساعة حوالى الواحدة صباحا . خرجنا إلى ضواحي المدينة
وتوقفنا قرب مقهى فى طريق جانبي صغير ، ودخلنا . أمامنا مباشرة كان
يوجد سرير ضخم تجلس فوقه كومة من الفتيات ، يبرز رجل من
وسطهن . دخلنا المقهى وشربنا عصير برتقال . حين غادرنا المقهى كان
الرجل الذى على السرير قد ذهب ، وحل محله أمريكيان جلسا وسط
الفتيات فى إنتظار غلايينهن ، إحداهما كان بلحية ويلبس نظارات بإطار
مذهب ويبدو كأستاذ جامعة . الآخر كان يرتدى الشورت . ولا بد أن
الناموس قد قرصه أكثر مما يحتمل ، فقد كانت الليلة كثيرة الناموس ،
وهذا جعل خلقه ضيقا ، فقد إستاء منا لأنه ظن أننا قدمنا لإغلاق
المكان .

بعد الضجة التى أثارها الأمريكان ، الملتحى وصاحب الركب البدينة
تغير الموقف بعدما دخلنا غرزة صينية فى كولون ، فقد كان الهدوء
والسكينة يلغان المكان المملوء بأرشف خشبية عارية من أى شيء ، وأسعار
غليون الأفيون الكبير والصغير معلقة على الحائط ، لم أر مثل ذلك فى
« غرزة » من قبل . دخنت غليونين ، ورفض صاحب المكان الصينى أن
يسمح لى بدفع الحساب قائلا : أنت أول أوروبى يدخلن عندى ولذا فلن
اتقاضى منك شيئا .

كانت الساعة الثانية والنصف صباحا ، فعدت إلى الفندق لأنام مخيبا
ظن مرافقى الفيتناميين .

إستيقظت فى الليل مثبط الهمة ، تشغل فكرى الأخطاء فى مسرحية
« العشة » التى أكتبها ، حاولت ، أن أراجع المشاهد فى ذهنى ، لكنى
فشلت .

بنوم بنه ٥٤/١/٢٤ :

إصطحبني مضيفي بعد العشاء إلى وسط المدينة ، أشرت إلى سائق عربة ركشة واضعا إبهامي في فمي ومشيرا كأنف طويل ، وتلك إشارة إن المرء يريد أن يدخن . قادنا إلى فناء كئيب ، مملوء بصناديق القمامة ترتع وسطها الجرذان ، وبضعة أفراد يضطجعون تحت ناموسيات قذرة ، في الدور الأول ، ومكان الشرفة ، كانت الغرزة ، السراويل معلقة كالرايات في صحن كاتدرائية ، والإزدحام شديد ، دخنت ثمانية غلايين وكان يترجم رغباتي إلى معد الأفيون ، مدرس للانجليزية يجلس بملابسه الداخلية .

* * *

بعد تسع سنوات ، حين طلبت منى جريدة الصنداي تايمز أن أكتب موضوعا بعنوان « معركة حاسمة من وجهة نظري » ، جاءت على ذهني فوراً ديان بيان فو .

في سنة ١٨٥١ كتب السير إدوارد كريزي كتابه بالعنوان الكلاسيكي « خمس عشرة معركة فاصلة في العالم » . أعتقد أنه من المشكوك فيه أن أى معركة ورد ذكرها في كتابه كانت أكثر حسما من ديان بيان فو سنة ١٩٥٤ .

كانت ديان بيان فو هزيمة ، ليس للجيش الفرنسي وحده ، ولكنها معركة حددت بشكل قاطع نهاية الأمل الذي قد يداعب قوى الغرب بأن في استطاعتهم يوما السيطرة على الشرق .

* * *

ولا تظن أن هذه المعلومات قد اكتشفتها المخابرات الأمريكية بعد عناء بحث ، ولكنى بسذاجتى كشفتها بنفسى لمراسل مجلة التايم الأمريكية ، بعد أن وثقت بكلام السكرتير الأول فى السفارة الأمريكية فى بروكسل ، حيث تصادف أن كنت هناك لنقاش مع فرانسوا موريك . وأسدل الستار على اسمى فوراً ولم يرفع ثانية إلا حين أصبح جون كنيدي رئيساً . وكنت إذا رغبت فى زيارة الولايات المتحدة ، فعلى أن أحصل على موافقة النائب العام فى واشنطن ، ويستغرق الحصول عليها ثلاثة أسابيع ، ثم تحدد اقامتى بأربعة أسابيع ، على أن أخطر السلطات الأمريكية بالطائرة التى سأصل عليها ، وبالطائرة التى سأغادر عليها أيضاً ، كما أن التأشيرة على جواز السفر ترصع بأحرف وأرقام غامضة ، وتأخر طويلاً فى الجوازات عند وصول المطار . استمعت نوعاً ما باللعبة ، ففيها عذر رائع حين أرغب فى رفض دعوة ناشرى الأمريكى .

لكن المرة الأولى التى وجدت فيها الأمر مزعجاً كانت سنة ١٩٥٤ ، كنت أقيم فى هايتى (كانت بلداً سعيداً بالمقارنة لما هى عليه الآن) ، مع صديقى بيبى برونك وترومان كابوت ، ورغبت فى العودة إلى إنجلترا بأسرع طريق ممكن لأمر طارئ . كانت الوسيلة هى السفر على طائرة شركة خطوط دلتا إلى سان جوان فى بورتوريكو ، ومن هناك على طيران بان أمريكان إلى نيويورك ثم على شركة الخطوط الجوية البريطانية إلى لندن . ذهبت لرؤية السفير الأمريكى فى بورت أوبرنس عاصمة هايتى ، وشرحت له المشكلة ، وسألته إذا كان بإمكانه إعطائى تأشيرة دون استئذان النائب العام وكل ما يصاحب ذلك من التأخير ، كان متعاطفاً ولكنه أخبرنى أنه لا يستطيع ، وأفهمنى أنه يمكننى العبور ترانزيت دون تأشيرة إذا كان لا يضايقنى أن أحجز فى غرفة فى مطار سان جوان ونيويورك ، وأكد لى أن ذلك قانونى تماماً . لم يكن لدى اعتراض ، لكن انتابنى إحساس قوى أن هذه الخطة لن تنجح بتلك السهولة . وصلت الطائرة مطار سان جوان فى التاسعة والنصف مساءً ، وكانت الطائرة المفروض أن أسقلها إلى نيويورك ستغادر بعد ساعتين . ألقى

رجل متورد الوجه ضخم الجثة ويرتدى زيا من الكاكي ، نظرة مكفهرة على جواز سفرى وعلى الأرقام الغامضة ، وقال : هل سبق لك أن كنت عضوا في حزب شيوعى ؟
قلت الجملة المرحة التى أكررها : لمدة أربعة أسابيع وأنا فى التاسعة عشرة .

طلب منى أن أخرج من الطابور وأنتظر حتى يفرغ لى . لم تكن لهجته ودية ، وتأكدت أن رحلتى ستكون مزعجة . وبشعور من البهجة جلست أقرأ رواية مغامرات لجينفر وويستر ، كم يكون التأخير مملا حين يكون سببه عطلا فنيا أو وصولا متاخرا لطائرة قادمة ، على الأقل هناك سبب مختلف الآن .

مرت حوالى ساعة ، استدعانى بعدها ضابط الجوازات بطريقة فظة لاتبعة إلى مكتب صغير . أغلق الباب وألقى بثقله عليه كما لو كان يتوقع انى سأهرب . على الجانب الآخر للمكتب كان يجلس رئيسه ، رجل فى الأربعينات ، مرح ومهذب . أخبرته بما قاله السفير الأمريكى ، ولكن كلمة السفراء لا قيمة لها عند ضابط الجوازات .

قال : سنعيدك ثانية إلى هايتى على أول طائرة صباح الغد . قلت : لو حجزتني فى البار هنا ، فعلى الأقل يمكننى أن أتناول مشروبا فأنا ظمان . استاء الرجل المتجهم من أدب رئيسه ، وأراد أن يضغنى فى مكائى الصحيح ! قال : هذا المطار سيكون صحراء قاحلة بالنسبة لك يا رفيق . كان رئيسه أكثر لطفا فقال : على كل حال لن تكون المدينة صحراء أيضا .. إذا وعدتني وعد شرف بألا تهرب يمكنك أن تقضى الليلة فى فندق بالمدينة .

قلت : ليس معى دولارات .

ولم يكن ذلك صحيحا تماما .

فقال : العم سام سيدفع .

استدعى ضابطين بملابس مدنية ليأخذانى إلى المدينة ، فى الطريق أوضحا انهما سينامان فى الغرفة المجاورة لى وسيقظانى فى السادسة والنصف صباحا ليعيدانى إلى المطار . ابتسمت لتذكرى انى لا أحمل

تأشيرة إلى هايتى ، وكان الأمريكيون فقط هم الذين لا يحتاجون تأشيرة لدخولها ، لم يفكر أحد بذلك ، لكنى قررت ألا أخبرهم . أصبحت أصدقاء ونحن فى السيارة ، ودعوتهما لتناول الويسكى فى بار الفندق ، درنا بالسيارة فى جولة أخرى ، وقررت أن أكون كريما على حساب العم سام .

قال أحد الضابطين للآخر : المسكين لم ير شيئا فى المدينة .

رد الآخر : دعنا نتجول به فى السيارة قليلا .

لم أر الكثير من المدينة ، فالشوارع مظلمة ، والمارة قلة ، رأيت رجالا على أضواء مصابيح السيارة ، يتعثرون أمامنا ، كان يضع ضمادة ملطخة بالدماء . لكنى رأيت الكثير من البارات .

فى الواحدة والنصف ، أصبح أحد الضابطين لا يستطيع الوقوف على قدميه من السكر ، فقلت لهما حان وقت النوم إذا أردتما أن أستيقظ فى السادسة والنصف .

فى الطريق إلى المطار صباحا ، لم نتبادل الحديث ، أحدهما كان يعانى من أثر شراب الأمس .

انضممنا إلى طابور أمام خطوط شركة دلتا للطيران ، وقال أكثرهما اتزاننا مظهرا شارته « ضع هذا الرجل على الطائرة المسافرة إلى هايتى » .

عند ذاك لعبت بالجوكر ، قلت : ليس معى تأشيرة إلى هايتى . ولم يكن أفضل من هذا الوقت لأقولها فيه .

قال موظف شركة الطيران : لا أستطيع أخذه دون فيزا .:

سأله الضابط : متى تفتح سفارة هايتى أبوابها

رد : فى العاشرة والنصف .

قال الضابط : سنأخذه إلى المدينة ليحصل على التأشيرة وعليك أن تحجز له على الطائرة التالية .

قلت : أنا مسافر إلى إنجلترا ولا أريد الذهاب إلى هايتى ولن أذهب للحصول على تأشيرة .

كان ارتباكهم كاملا ، وتركتهم يفكرون فى حل ، وتسلت إلى مكتب

تلغراف المطار وأرسلت برقية إلى وكالة رويتر في لندن « السلطات الأمريكية في بورتوريكو ترحلني إلى هايتي . لمعلومات أكثر اتصلوا بسكرتيرتي في رقم كذا وكذا » .
 انها احدى المناسبات القليلة التى شعرت بها بأهمية أن يكون الإنسان مشهورا ولو قليلا .

حين عدت لمكتب شركة الطيران ، وجدت انهم حلوا المشكلة أو هكذا اعتقدوا ، سيقوم مسئول شركة دلتا بالإبراق إلى مديره في بورتو او برنس للحصول على إذن من سلطات هايتي بدخول .

فكرت بأن ذلك لن يضيف إلى متاعبي شيئا في هذه اللحظة ، وصحبنى الضابطان مثل شخصية مهمة جدا إلى الطائرة ، وأقلعت الطائرة متأخرة قليلا . ما أن حلت الحزام حتى وجدت قائد الطائرة يجلس بجانبى ، قال بتعاضف : يبدو أنك في مشكلة ؟ أخبرته بما حدث . قال : أه .. أنا نفسى كنت شيوعيا ذات يوم .

وأخبرنى بقصته ، كان ممثلا في هوليوود ووضع اسمه في القائمة السوداء ، وهكذا أصبح قائد طائرة على خطوط دلتا . تساءلت ماذا يكون رد فعل المضيفات الجميلات لو علمن أن قائد طائرتهم كان شيوعيا ! قلت له : ستواصل رحلتك من هايتي إلى هافانا .

قال : نعم .. ثم من هافانا إلى ميامي .

قلت : هل تمنع لوبقيت في الطائرة حتى هافانا ؟

قال : يسعدنى أن تكون معى .

حين هبطت الطائرة في بورت او برنس ، استطعت رؤية مدير شركة دلتا يسير على الطريق المسفلت المؤدى للطائرة . قابلته عدة مرات أثناء اقامتى في هايتي ، وكرهته بلا سبب .

حين هبطت سلم الطائرة ، ثار في وجهى :

ـ لقد سببت لنا مشاكل لا أول لها ولا آخر .. ذهبت أولا إلى وزارة الخارجية واقنعتهم أن تقضى الليلة هنا ثم سترحلك إلى جامايكا .. انزعجت ، فقد قضيت ليلة قصيرة متعبة وقلت :

ـ أنا لست طردا ملعونا .. ولن ترسلنى إلى أى مكان .. أنا ذاهب إلى

هافانا على هذه الطائرة .

قال : لن تذهب إلى أى مكان على طائرتى .

انضم إلينا قائد الطائرة فى هذه اللحظة ، وقال :

- سأخذ هذا السيد معى إلى هافانا على الطائرة التى أقودها . وأكد

على كلمة طائرة .

انه مسرح اجتماعى جميل ، الشيوعى الجيد يواجه الرأسمالى السبىء ، وفى المسرح الإشتراكى ليس فى نهاية القصة شك . واستدار المدير عائداً بامتعاض .

بعد أن أقلعنا إلى هافانا ، بدأت المضيقة توزيع « كروت » ملونة على الركاب . سألت : ما هذه ؟

قالت : لركاب الترانزيت إلى ميامى

قلت : أمن الممكن أن تعطينى واحدا .

أعطتنى « كرتا » ، فكرت ربما يفيد بشكل ما ، مع أنى كبريطانى يمكننى دخول هافانا فى ذلك الوقت دون تأشيرة .

بعد أن هبطنا ، رأيت امرأة أخذت « كارتا » مثل الذى أخذته تعبر بسهولة من منطقة الجوازات بمجرد ابرازها لذلك « الكارت » ، بدا لى أنه من الأسرع عبور منطقة الجوازات بتلك الطريقة ، وهكذا عبرت ملوفاً بالكارت الذى أحمله .

استأجرت سيارة إلى فندق أعرفه فى المدينة القديمة ، وبعد حمام ساخن ذهبت إلى السرير . كانت رحلة متعبة فغرقت فى النوم .

أيقظنى رنين جرس التليفون ، قلت : من ؟

قال : هل أنت مستر جراهام جرين ؟

قلت . أيوه .

- هذه جريدة نيويورك تايمز .. تلقيناُ خبراً من وكالة رويتر بأنك رحلت

من بورتوريكو ..

- فعلاً ..

- الخبر يقول إلى هايتى .. ولكن نجدك فى هافانا ..

- أحب هافانا أكثر ..

- سألنا عنك في كل الفنادق الكبرى.. ولم نتوقع أن نجدك في هذا الفندق ..

- أحب هذا الفندق أكثر ..

بعد هذه المكالمات ، حاولت النوم ثانية ، لكن التليفون دق مرة واثنين ، ووجدتني أكرر المحادثة السابقة ثانية ، لكن هذه المرة مع مراسل ديلي تلجراف ، وأكدت له صحة خبر وكالة رويتر .

قال : ينبغي أن أحذرك .

قلت : مم ؟

قال : تحدثت مع مسئول الهجرة والجوازات هنا .. في محاولة لتتبع خطواتك .. دهشوا جدا وأكدوا لي أنك لم تخرج من المطار .. أنهم يبحثون عنك في كل مكان .. لم يجدوني أبدا . لم تكن الشرطة على درجة من الكفاءة أيام حكم باتستا لكوبا .

* * *

٢

نشرت رواية « نهاية المسألة » سنة ١٩٥١ ، وقد انتهت لتوى من رواية « الأمريكى الهادىء » سنة ١٩٥٥ ، ومزاج الهروب مازال يلانمنى ، لكنه هذه المرة لم يأخذنى أبعد من مونت كارلو لأعيش ببذخ عدة أسابيع في فندق باريس ، أجلس ساعات طويلة إلى موائد الكازينو ، وأكتب ما أمل أن يكون رواية عاطفية مسلية لا يتوقعها أصدقائى ولا أعدائى ، اسميتها « الخاسر ينال كل شيء » ، فالسمعة تشبه قناعا ميتا ، وأردت أن أمزق هذا القناع . اتبعت نظاما دقيقا ، الإفطار في السرير ، العمل حتى الحادية عشرة ، ساعة في مطبخ مطعم الكازينو قبل الغداء ، قيلولة ، ساعتان أخريان في المطبخ ، عشاء ، ثم فترة مداومة في الصالة الخاصة من التاسعة مساء حتى منتصف الليل ، لم أكتشف أى نظام خاص للعب كما حدث في الرواية ، لكننى لم أخسر . في نهاية اقامتى

١٢٠

كانت جملة أرباحي أربعة جنيهات ، مبلغ حقير طبعاً سارعت لخسارته في وضع النهار قبل أن الحق بطائرتي ، كانت أياماً سعيدة .

وللمرة الأولى - واعتقد انها الأخيرة - أنسج شخصية رئيسية من الحياة الواقعية ، فشخصية « دورثر » ملك المال والأعمال في زاوية « الخاسر ينال كل شيء » ، هي بلا إنكار الكسندر كوردا . وستظل القصة مهمة بالنسبة لي لأنها مشربة بذكريات إنسان أحببته .. إليكس كوردا . بل انى استخدمت أجزاء من حواراته بنصها ، ومازلت أذكر قوله لي بلهجته المجرية المترددة التى تضيء على الكلمات التافهة حكمة بليغة ، وهوما نقلته على لسان دورثر للمحاسب برنارم الذى وعده بشهر عسل على يخته في مونت كارلو « يا ولدى العزيز .. ليس من السهل على المرء أن يفقد امرأة خيرة وجميلة .. لذلك إذا كان على الرجل أن يتزوج فمن الأفضل أن يتزوج امرأة سيئة » .

بل انه زودنى بحبكة الرواية ، كنت في اجازة مع صديقة عزيزة جداً ، حين تسلمت برقية منه تدعونا للانضمام إليه في أثينا لنقوم بجولة في يخته المسمى « في مكان آخر » .

كان يخته هذا ذا الاسم الرومانسى هو وسيلته للهروب من سيناريوهات الافلام والمخرجين وشركة التأمين ، في البداية كان هروبه ناقصاً ، فاليخت كان راسياً في الميناء القديم لانتيب - أستطيع رؤيته الآن من نافذتى وأنا أكتب - مربوطاً إلى الشاطئ ، بحيث يمكنه يومياً النزول ومخابرة مكتبه قائلاً انه يتكلم من مونت كارلو أو بروتوفينو أو كالفى دون أن يغادر مكانه . لكن بمرور السنوات أصبح يتجول باليخت بحرية وأصبح اسماً على مسمى ، حتى اننا يوماً اضطررنا بسبب الرياح إلى اللجوء إلى جزيرة يونانية صغيرة لم يكن فيها حتى مكتب للبريد ، كنا نتحدث في هذه الجولات عن اللوحات والفن التشكيلي ، عن شعر بودلير ، عن المسرح ، عن أى شيء عدا الأفلام ، وكان بيننا اتفاق غير مكتوب ان نغير الموضوع بسرعة إذا تطرق أحد الموجودين بالحديث عن السينما .

وكانت الرحلة التى دعانا إليه ، هى المرة الأولى التى يتجول فيها

اليخت بحرية ، بعيدا عن اتصالاته بمكتبه . كان موعد اللقاء في فندق جراند بريتانى ، لكن حين وصلنا ، لم نجد اليخت ولا كوردا ولا حتى رسالة منه ، كما أن الفندق لا يعلم شيئا عن قدومه .

في تلك الايام ، كانت القيود على العملة والتحويلات مازالت قائمة ، وكان لدينا مبلغ صغير من المال ، وفندق جراند بريتانى باهظ التكاليف ، اسرفنا في اليوم الاول ، لكن في اليوم الثانى ومع عدم وجود أخبار عن اليخت إلترمنا الحذر في مصروفاتنا وهذا يعنى أن نكون أكثر إسرافا ، بمعنى أننا بدأنا نتناول وجباتنا في الفندق بدلا من تناولها في المقهى الرخيص ، ونركب عربة الفندق المكلفة والتي تضاف أجرتها على الفاتورة بدلا من استئجار تاكسى ، مازلت أذكر سعر السندويتشات المرتفع والتي أعدها الفندق على الحساب ، لناخذها معنا ونتناولها على الكورنيش علنا نلمح اليخت قادما يمزج البحر .

حسنا ، اليكس مثل شخصية دروثر ، وصل في الوقت المناسب ودفع فاتورة شهر العسل ، ولدت رواية « الخاسر يكسب كل شيء » مع جرعات نبيد رتسينا اليونانى أثناء غداء النزهة القلقة . لقد بعث حقوق انتاج الرواية كفيلم ، الذى كان كارثة بممثليه ، قامت ببطولته ممثلة في أواسط العمر لتؤدى دور فتاة في العشرين من عمرها ، ونجم ايطالى رومانسى ليؤدى دور محاسب غير رومانسى ، لقد عرف اليكس نفسه في شخصية دروثر وقام بانتقامه الصغير عن طريق اختياره للممثلين ، وقد رفض أن يقوم بالتمثيل نجوم مناسبون للشخصيات رغم العقود الموقعة بينه وبينهم ، على كل حال لا أعتقد ان الصورة التي رسمتها له في الرواية قد أزعجته ، وهى التي نسجتها ببعض من شعور الحب العميق نحوه .

ورغم لهجته المجرية الجادة ، فلا يخالفك الظن انه حكيم بدرجة ممتدة ، كانت له هفوات غريبة ومحبة ، لم يكن إلا شخص أجنبى مثله ذلك الذى يتورط بعمق في تلك الدراما الكارثة « الأمير شارلى الجميل » ، ومن الأفضل غالبا ألا تؤخذ نصيحته فيما يتعلق بالأفلام . أذكر أول اجتماع لنا لمناقشة سيناريو فيلم المعبود الذى هوى عن قصة قصيرة لى

حول طفل وساق ، أرادنى أن أغير الساقى بسائق قائلا : ان الأطفال يا جراهام يهتمون بالآلات ، وهكذا نفتتح الفيلم فى مطار لندن والدا الطفل يسافران إلى الخارج ، والصغير يهتم بموتور العربة ..
إعترضت قائلا : كم فيلما ابتدا بطائرة تغادر المطار أو تصل إليه ؟
لم يقتنع ، لكنه تركنا أنا وكارول نفعل ما نريد .

كانت حكمته الإنسانية دائما أعظم من حكمته فى الأفلام ، فى فترة فى الخمسينيات وصلت بى كأبى لدرجة الجنون ، ودارت فى ذهنى فكرة الإنتحار ، وقد كتبت ذلك بشكل ما فى مقال فى جريدة الصنداي ، فاتصل بى هاتفيا قائلا : « يا ولدى العزيز .. ان ما تفكر فيه جنون .. تعال معى إلى انتيب .. أنت تشعر بالملل .. حسنا تعال إلى يخت فى مكان آخر » .
كان متغفلا فى حياتى ، عرفت انتيب أول مرة معه ، ويبدو الآن انى سأنهى حياتى هناك . كان هو أول من اصطحنى إلى مونت كارلو ، ومن تلك المدينة استوحيت شخصيتى الرئيسية « براون » فى روايتى « الممثلون الهزليون » . هل كانت رحلتنا على ظهر يخته ، مع اثنين من الأمريكين كتمويه ظريف ، لعملية تجسس ؟ لقد أسر لى بأنه حصل لكينا على مبلغ كبير من المخابرات البريطانية لتصوير كل الشاطيء اليوغسلافى أثناء تجوالنا ! لقد عاد يلعب بعدسات التصوير كما لم يفعل منذ سنوات ، لقد ساعد المخابرات أثناء الحرب العالمية الثانية ، وتبدو عليه الآن بهجة الأطفال وهويتجسس على الساحل الأديرياتيكي دون أن يعرف ضيوفه الأمريكان شيئا ، كان هذا جانبه المؤذى كشخصية دروثر فى فندق باريس .

أذكره وهويقول لى « حين كنت وأصدقائى شبابا فى المجر ، حلمنا كلنا بأن نكون شعراء . ثم ماذا أصبحنا ؟ سياسيين ، ورجال اعلانات ومنتجى أفلام ! » .

* * *

عمله ويخلص له ، فهل نصدق حبا يعلن عن نفسه في الساعة الحادية عشرة ؟

هذا الكلام أقوله لقادم متأخر لعالم المسرح ، ولكنى لم أدخل مجال المسرح متأخرا إلا من ناحية واحدة ، وهى العرض الفعلى للمسرحية ، فحياتى ككاتب تتناثر فيها مسرحيات كثيرة كتبتها وتخلّيت عنها ، كما تخلّيت عن روايات كثيرة لم أنشرها .

لا أستطيع أن أحصى عدد المسرحيات التى كتبتها قبل « غرفة المعيشة » سنة ١٩٥٣ ، لكنى أذكر أن أول مسرحية كتبتها وقبلت ، لكن لم تعرض ، انتهيتها وأنا فى سن السادسة عشرة ، ولقد وصفت خيبة الأمل تلك فى كتابى « نوع من الحياة » ، ومرت عشرون سنة قبل أن أحاول جديا كتابة مسرحية أخرى .

كانت محاولتى الأولى ، كوميديا مستقاة من حوادث الخطف المتكررة التى وقعت فى منشوريا أثناء احتلال اليابان لها فى الحرب الأخيرة . ولم أصل فى هذه المسرحية إلى الفصل الثانى أبدا ، كنت سعيدا بالفصل الأول لدرجة كافية ، المكان محطة سكة حديد على الحدود المنشورية ، وشخصياتها : ضابط يابانى مشغول بألته الكاتبة ، مراسل لصحيفة الديلى ميل ، وهى صحيفة أربكت السلطات بتقديمها جائزة كبرى لمن يعيد المختطف (لم تكن هناك مشاكل مالية فى تلك الأيام السعيدة قبل الحرب) ، القنصل البريطانى ، ووسيط صينى ، ثم الزوج القلق ، وأخيرا الزوجة وشاب موظف اختطفهما قطاع الطرق وهما فى سباق محلى . كان قلق الزوج على زوجته أقل من قلقه على كرامته الزوجية ، فالضجيجتان ، حسب قول الصحافة ، قد ربطتا معا من الرسغين لمدة ١٥ يوما ليلا ونهارا .

أحببت الفصل الأول ، فهناك أصالة فى الجو وجدة فى التعبير ، لكن حين حسبت الوقت الذى يستغرقه فى العرض ، كان ثمانى عشرة دقيقة ونصف ، والمسرحية فى فصلين ، والثانى أقصد من الأول .. وهكذا تخلّيت عن المسرحية مرغما . كان طول المسرحية يعذبنى دائما ، حتى روايات المبكرة كانت أقل من ٧٥ ألف كلمة ، وهو الكم الذى حدده الناشرون كحد أدنى للرواية .

قبل البدء في بروفات مسرحية « غرفة المعيشة » - وقد كتبتها عدة مرات على مدى ثلاث سنوات - تلقينا ان مدة عرضها لن تتجاوز ساعة وربعا ، وأصابني القنوط لأنه كان من المستحيل أن اطليل المسرحية ، كان توقيتها الذي قدرته ساعة وثلاثة أرباع الساعة ، وقد أثبت انه أكثر دقة في النهاية ، قلت إننا لو أخرنا رفع الستار قليلا ، وزدنا الاستراحة قليلا أيضا فمن الممكن أن نعبر الحد الأدنى المقرر للمسرحية وهو ساعتان ، وهو ما تراه إدارة المسرح ضروريا مثل الـ ٧٥ ألف كلمة التي حددها الناشر للرواية .

ونجحت مسرحية « غرفة المعيشة » ، والفضل للمخرج وجميع العاملين ، وبالنسبة لي كان الأمر أكثر من قضية نجاح ، فقد كنت أحتاج لفترة راحة من كتابة الروايات ، وكنت أكره العمل الشاق في كتابة فيلم ، لقد كان تأثيرها كمن اكتشف مشروبا جديدا في فترة بدت فيها الحياة طويلة ومملة ، في نهاية هذه التجربة المسرحية عبرت عن نفسي في انفعال مازلت أحسه قلت : الروائي يعمل وحده ، ويكون محظوظا لو وجد مخلوقا يمكن أن يناقش معه قضية تتعلق بالفن الروائي أو ترصد رد فعل جملة صعبة ، حتى كاتب السيناريو ، فانه يعمل مع رجل واحد هو المخرج ، وما أن ينتهى السيناريو حتى يستبعد من عملية الخلق إلا إذا نشأت مشكلة في الاستديو واحتاجوه لاعادة كتابة مشهد ، فينتشل من النسيان ، ويشهد بذهول عمله وقد تقطعت أوصاله ، ويحدق في أسطر كأنها ليست له ، يركبه إحساس بالذنب لأنه هو المتفرج الوحيد الذى يعرف ما الذى كتبه ، وما آل إليه الأمر ، مثله كالرجل الذى شاهد جريمة ويخاف من الكلام وهو فى الواقع شريك فى الجريمة .

بالطبع هناك لحظات من المتعة الكبيرة فى تعلم صنعة جديدة ، ككتابة الأفلام ، لكن دهشة الخلق رهينة بالفكرة الأولى ، التى خططت على غداء عمل ، وتفقد قيمتها عند اعادة الكتابة ثم المعالجة الأولى والثانية والثالثة ، شاشة السينما ليست كصفحة الفولسكاب تختبر عليها الفكرة ، ولا كخشبة المسرح حين يسمع المؤلف أسطره تدب فيها

الحياة ، حين تلقى الكلمات في الاستديو لا يكون المؤلف هناك لينقد ويغير ، كما أن هناك يدا أخرى تلعب في عمله .

تجربتي الخاصة في السينما كانت تجربة سعيدة ومحظوظة ، ومع ذلك فكم شعرت بالراحة حين عدت لعمل الرجل الواحد لكتابة الرواية ، إلى خصوصية الغرفة التي تتحمل فيها المسؤولية الكاملة عن النجاح أو الفشل . ولكن تبقى حقيقة وهى على المرء أن يجرب كل مشروب مرة واحدة على الأقل ، وتخيل أن كتابة الفيلم وكتابة المسرحية متشابهان ، فرغم أن المؤلف لا يستبعد من البروفات في السينما فإنه يكون غير مرغوب فيه يتوارى خجلاً في الاستديو ، وحتى حين يسمح لك باختراق عالم الاستديو فكأنك دخلت مصنعا أنت قليل الخبرة بما يجرى فيه ، اشارات ، أضواء ، أجراس ، مصنفين ، أثاث وديكورات ، ولم أكن قد جربت دفء ومتعة والفة المسرح . وفوق ذلك لم أكن أدرك أن فعل الخلق يستمر طويلاً كما في الرواية منذ المسودة الأولى للمسرحية وفي البروفات وحتى في الأسابيع الأولى من الافتتاح .

من أجل فعل الخلق هذا يعيش المؤلف ، وحين ينتهى تصبح الساعات فارغة ، ويدق جرس الهاتف نادرا ، ويتسائل المؤلف ألم يكن من الممكن تأخير الافتتاح قليلاً من أجل استمرار المتعة ؟ افترض أن كل مؤلف يمر بهذا الإحساس ولذا فهو يكتب مسرحية أخرى . هناك اثارة الاستحسان ، نجاح واحباطات فريق التمثيل ، الاهتمام القاسى باللقاء والصوت حتى يصبح كل سطر ثقيلاً حتى الإرهاق ، القراءة الأولى من الفريق كاملاً ، الاجتماعات والتعديلات مع شرب القهوة ، بهجة العمل مع ممثلين لا يهتمون فقط بأدوارهم بل في المسرحية ككل (في الفيلم بالكاد يعرف الممثل ما يحدث في المشهد الذى لا يشترك فيه) ، حوالى دسنة من العقول الحية الواعية تقترح وتنتقد .

يخبو كل ذلك ببطء ، حين تطفأ الأنوار ليرى الجمهور العرض لأول مرة ، لا يعرف شيئاً عن موضوع المسرحية بعد ولم يعمل فيها صباحاً وظهراً ومساءً لعدة أسابيع ، ورد فعله مشروط بالتأثير اللحظى لما يراه ، ليكتشف المرء الضحكات المفاجئة في الأماكن غير المتوقعة ، الضحك

مشروع ولكن المؤلف يكون مفرط الحساسية ، لحظات النجاح والفشل ، ويحبط المؤلف لليلة واحدة ، وكم هو ممتع احساسه وهو يشطب هذا السطر هنا ويغير ذلك الفعل هناك ، ويعود إلى المسرح في الليلة التالية ليرى أثر تعديلاته - في الرواية لا يوجد شيء كهذا - .

أى قادم جديد إلى عالم المسرح ، مهما كان ، يكون سعيدا وسط المقاعد الخالية أثناء البروفات ، من الملاحظات التى تقال ، فى البار وفى غرف الملابس ، أن المسرح يقدم تجربة مثيرة غريبة لا تقدمها السينما أبدا ، مثلا شجار فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل مع مربى ثيران مسابقات ، جلسة طويلة مع غريب متحمس للمسرحية ، اكتشاف بعد فترة انه تنقل بين أربع مصحات عقلية هرب من آخرها (قطعت محادثتنا ونحن جلوس فى صالة الفندق بوصول الحراس) ، هذه فيما أعتقد التجربة الحية لكل يوم والتى تجعلك تستمر فى الكتابة للمسرح . لقد جربت مشروبا جديدا ، وأحببت نكهته ، وكم رغبت ألا يفرغ منه كأسى أبدا . وهكذا تقدمت إلى البار لأطلب كأسا أخرى بعد الأولى مباشرة .

لم يكن فى ذهنى فكرة مسرحية تلح على ، لكنى تعمدت أخذ احدى رواياتى التى تخلت عنها ولم أكملها (كتبت فيها بضعة آلاف من الكلمات سنة ١٩٤٦) ، وولفت مسرحية « العشة » سنة ١٩٥٨ ، كل ما أستطيع قوله بخصوصها ، أنى عشقت الفصل الأول ، لكن اتضح لى أن موضوعها جامع صعب المراس ، وقد وضحت صعوبة التعامل مع الفصل الأخير أثناء انتاجها فى أمريكا ، حيث أعدت كتابة المشهد الأخير أثناء البروفات دون اقتناع ، وعند اخراجها فى لندن عدت إلى الاصل بعدم اقتناع مشابه ، وأعتقد ان اعتراضى الرئيسى على المسرحية كان بسبب نقص وحدة الحدث حسب التعبير الأرسطى . أكثر من مخرج قابلته وقال لى « أكتب ما تريد من الفصول أو عدد المشاهد . تعامل مع المسرحية بحرية كالفيلم . فإن عملى هو أن أجد طريقا لخراجها على المسرح » .

ولكنى لا أريد مسرحية مخرج ، أريد مسرحية مؤلف . ان الأثر الذى

تتركه كتابة رواية جيدة ، يعيش المؤلف معها سنوات بنفس كثيية متوترة . يكون مدمرا . وكنت دوما أبحث عن الراحة بكتابة روايات التسلية ، فاليلودراما والفارس تعبران عن مزاج مهووس ، وهكذا في مسرحيتى الثالثة « العاشق اللطيف » سنة ١٩٥٩ والتي كتبتها هروبا إلى الراحة بعد كتابة رواية ، وجدت حين وصلت النهاية أن مزاجى الكئيب ومزاجى المهووس قد طبعا المسرحية بطابعهما ، وذلك ما يجعلنى استشعر المتعة فى الكتابة ، فأنا لا أكتب إلا إذا كان هناك صراع فى مشاعرى بين مزاجين على الأقل . هبطت على المسرحية فجأة فى يوم ربيع وأنا فى الريف ، وسارت بسرعة الحلم ، وبعد أربعة أشهر كان الافتتاح . بعد ذلك ، حين كانت مسرحيتى « نحت تمثال » سنة ١٩٦٤ تناضل أمام كل العقبات المعتادة لتظهر على المسرح ، أسفت على الوقت ، فقد بدا ان الولادة الجديدة ما هى إلا إجهاض .

لم أعرف من قبل مسرحية معذبة فى كتابتها ومتعبة فى اخراجها مثل « نحت تمثال » ، وكنت سعيدا برؤية نهايتها ، وشاكرا لكل النقاد الذين عجلوا بتلك النهاية ، ففى سن الستين لا يوجد سبب يجعلك تستمر فى العمل إلا لكسب القوت أو المتعة ، وهذه المسرحية لم تكن متعة ، ثم أنى لى وسائل أخرى لكسب القوت .

على ككل حال ، فإن الأخطاء التى وجدها النقاد فى المسرحية كانت ويا للعجب غير الأخطاء التى وجدها ، وهى أخطاء من الصعب الدفاع عنها ، وليعفنى القارئ من ذكرها .

بالنسبة لما قاله النقاد فقد اتهمونى بأن المسرحية محملة بالرموز ، لكنى لا أحفل كثيرا بالرموز ، ولا أتبين أى رموز فى هذه المسرحية ، هناك أحيانا تداعج للأفكار فهمه الناقد خطأ على أنه رمز ، وكما عرفت من تجربتى الخاصة كمراجع للمسرحيات ، فإن الإستخدام الصحيح للكلمات صعب حين يكتب المرء ضد الزمن .

أذكر حين نال فيلمى « الرجل الثالث » حظا من النجاح ، تصدى ناقد متفقيه لشرح رموز الفيلم بتبجح فى مجلة شهرية ، اسم هارى لايم فى الفيلم أرجعه إلى فقرة عن شجرة الليمون فى كتاب جيمس فريزر

« الغصن الذهبى » ، الإسم المسيحى للشخصية الرئيسية « هولى » يبدو بوضوح مرتبطا بالكريسماس ، وهكذا فى رأيه أن الوثنية والمسيحية تشتركان وترتبطان فى رقصة رمزية .

والحقيقة أنى أردت أن أسمى البطل الوغد فى الفيلم باسم طبيعى وغير مقبول ، ووجدت أن اسم لايم قد يشير إلى الجير الحى الذى قيل أن المجرمين يدفنون فيه ، توارد خواطر وليس رمزا كما ادعى الناقد . بالنسبة لهولى ، فقد كنت قد اسميته « رولو » ، لكن جوزيف كوتن لم يعجبه الاسم ، فغيرته ، لا رمز ولا يحزنون .

بعض النقاد ، ولأن كلمة الله تتردد فى المسرحية على نحو غير متوقع ، فقد ظنوا أن المسرحية تدور حول ذلك الشيء المرعب « علم الدين » ، كتب اللاهوت أو علم الدين هى الكتب الفلسفية الوحيدة التى استمتع بقراءتها ، ولو فتح أحد هؤلاء النقاد كتابا فى اللاهوت لأدركوا بسرعة انه لا يوجد شيء لاهوتى فى هذه المسرحية .

عم كانت هذه المسرحية إذن ؟

كنت أعتقد دائما أن الفارس والمأساة أكثر قربا من بعضهما من الكوميديا والتراجيديا . مسرحية « نحت تمثال » كانت بالنسبة لى مباراة بين مزاجين مختلفين كما فى مسرحية « العاشق اللطيف » ، الفصل الأول كله تقريبا فارس ، فالنحات شخصية استوحيتها من بنيامين هايدون الذى كان محسوسا بالرغبة فى انجاز موضوعات انجيلية ضخمة ، والتى كانت فى أيامه موضوعة قديمة ، وأنت لا تستطيع قراءة يومياته دون أن تدرك أن به مس حقيقى ، وأن ليس لديه موهبة على الإطلاق . كان شخصية فارسية رغم أن نهايته مأساوية .

فى مسرحيتى ، فقد النحات حتى نهايته المأساوية ، لم يكن أحد ليستطيع بعثرة حلمه ودفعه إلى الانتحار . كانت لديه قدرة على الشفاء أكثر من هايدون ، لكن للأسف فإن الممثل الذى قام بالدور كانت له وجهة نظر فى المسرحية تخالف ما أراه ، كان يظن انه يمثل ابسن .

فكرت وقتها فى عدم العودة لكتابة المسرحية أبدا ، قلت انها لا تساوى شروى نقير ، كنت مخطئا بالطبع ، فقد مثلت فرقة شكسبير الملكية

مسرحيتى « عودة رافلز » سنة ١٩٧٥ ، ووجدت ثانية تلك المتعة أثناء البروفات ، وأنا الآن أكتب هذه الكلمات أثناء استراحة بين البروفات لفارس اسميتها « لمن تدق الأجراس » .
ان مصير المسرحية لا يهمنى ، لكن متعة سماع الكلمة المنطوقة ، والشطب والتغيير والتعديل ، متعة العمل مع فريق ، الهروب من الوحدة .. ذلك كل شيء .

* * *

٢

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة ، طلب منى صديقى المخرج البرازيلى البرتو كافالكانتى أن أكتب فيلما له ، فكرت فى كتابة كوميديا عن المخابرات مبنية على خبرتى فى سنوات ٤٣ و ١٩٤٤ عن النشاط الألمانى فى البرتغال ، فبعد رجوعى من فريتاون بجهودى التى لم تثمر فى مطاردة العملاء فى مستعمرات حكومة فيشى ، عينت فى أحد فروع قسم كيم فيليبى لمخابراتنا السرية ، وهو فرع يتعامل مع التجسس المضاد فى شبه الجزيرة الايبيرية ، وكانت البرتغال مسئوليتى . كان هناك عدد من الضباط الألمان الذين لم تستملهم مخابراتنا ، يقضون كثيرا من وقتهم بإرسال تقارير خاطئة بالكامل إلى ألمانيا ، مبنية على معلومات استقيت من عملاء خياليين . لعبة للحصول على نقود مأمونة ، حيث تضاف تكاليف هذه التقارير ومكافآتها إلى المرتب . كان حظ الحكومة الألمانية فى هبوط ، ومن المدهش ملاحظة تغيير معايير الشرف فى جو الهزيمة . وكنت أفكر أحيانا ، كيف كان يمكنى بسهولة أن ألعب دورا مشابها فى أفريقيا الغربية لولم أكن قانعا بمرتبى المتواضع ، فقد تعلمت انه لا شيء يسر رجال المخابرات فى الوطن أكثر من اضافة معلومة إلى ملفاتهم ، فقد حدث أن أرسل أحد العملاء تقريرا عن مطار تابع لحكومة فيشى فى غيانا الفرنسية ، كان هذا العميل أميا ولا يعرف العد لأكثر من

عشرة وهي عدد أصابع يديه ، كما كان لا يعرف من الإتجاهات الأصلية سوى الشرق ، أرسل يقول أن مبنى المطار يحتوى على دبابه ، بينما أعرف من شواهد كثيرة أن المبنى مخزن للأحذية القديمة ، وأكدت عدم أهلية العميل ، ولكنى دهشت حين تلقت علوة بسبب تقريره الذى وصف بأنه « مهم للغاية » . كانت الجهة المنافسة لنا فى المخابرات هى اس . أو . أى ولم يكن لدى اقتناع فى تقاريرها أو تقاريرنا ، فهى تأتى من المصادر المشابهة ، وكل ما يهمهم فى لندن هو إضافة سطر أو سطرين للمفاتهم .

وهكذا فإن تجربتى فى فريتاون ، والتي فكرت فيها وأنا فى وضع أكثر راحة فى سانت جيمس ، ألهمتنى فكرة أصبحت بعد ١٢ عاما سنة ١٩٥٨ رواية « رجلنا فى هافانا » .

الفكرة الأولى للرواية ، دونتها فى الأربعينات على شكل رموس أفلام فى ورقة واحدة ، كانت أحداثها تدور فى استونيا سنة ١٩٣٨ ، فكان معقول للتجسس ، وكان اسراف زوجة العميل هو الذى دفعه لخدا مخابراته ، كان شخصية مسلوقة العقل أكثر من بطل « رجلنا فى هافانا » كما كان أقل براءة منه ، وبإقتراب الحرب سنة ١٩٣٩ بدأ الأعداء والبوليس المحلى يعاملونه بجدية أكثر .

قبل أن نبدأ العمل فى الفيلم ، أخبرنى كالفكانتى انه لا بد من ضوء أخضر من الرقيب على الموضوع ، بعد ذلك قال انهم رفضوا إعطاء ترخيص لفيلم يسخر من المخابرات ، ربما كان يخترع عذرا لأن الموضوع لم يعجبه .

وبيقت القصة فى خلفية ذهنى ، تخضع لعمليات الانتقاد الذى يقوم به اللا شعور ، فى الوقت الذى قمت فيه بزيارة هافانا عدة مرات فى أوائل الخمسينات .

استمتعت بمدينة هافانا تحت حكم باتستا ديكتاتور كوبا آنذاك ، لكنى لم أمكث فترة تسمح لى أن أتنبه للحكم البوليسى الاستبدادى لباتستا والتعذيب والسجن الذى يمارسه ضد مواطنيه ، كنت أذهب فى إجازات من أجل مطعم فلوريدا المشهور بخموره وأسماكه ، ولحياة

الدعارة ، ولعبة الروليت في كل فندق ، ولالات اللعب التى تلقى إليك بدولارات فضية إذا كسبت ، وللتفرج على مسرح شنغهاى حيث يمكنك بدولار وربع أن تشاهد عرضا حيا كاملا للعرى والفحش الخالص مع عرض أقدر أفلام الجنس فى الاستراحات ، كما تجد فى ردهة المسرح مكتبة تبيع الكتب والصور العارية للشباب الذى مل من الفرجة فى الكاباريه .

وفجأة ضربتنى الفكرة ، انه فى هذه المدينة غير العادية ، حيث ترتكب كل رذيلة ، ويباع ويشترى كل شئ ، تكمن خلفية روايتى الساخرة ، وأدركت انى فى تصورى السابق للرواية كنت أخطئ لموقف خاطئ فى المكان والزمان الخطأ ، فقيل الحرب الثانية مباشرة لم يكن الوقت يسمح بسخرية من ذلك النوع ، فالقارئ لن يتعاطف مع رجل يخون وطنه فى أيام هتلر من أجل زوجة مسرفة . ولكن فى هافانا الخرافية وسط عبيثة الحرب الباردة ، هناك موقف يسمح بالكوميديا ، وكل ما على أن أغريه هو اسراف الإبنة بدلا من اسراف الزوجة .

من الغريب انى وأنا أخطئ للرواية ، عرفت لأول مرة بعض الحقائق عن كوبا باتستا . فحتى ذلك الحين لم أكن تحدثت مع كوبيين ، ولم أسافر داخل البلاد ، عندما بدأت القصة تبرز فى ذهنى ، بدأت أتدرك بعضا من جهلى ، اتخذت أصدقاء كوبيين ، واستأجرت عربة بسائقها ليتجول بى فى الريف ، كان السائق رجلا متطيرا ، عرفت ذلك منذ اليوم الأول حين داس دجاجة فقتلها ، وبدأ يخبرنى برموز الحظ ، قال لقد قتلنا دجاجة فيجب أن نراهن على رقم كذا وكذا ، هذا هو بديل الأمل فى كوبا التى بلا أمل آنذاك .

كان هذا السائق كوبيا أصيلا وكأن القدر قد ساقه ليقدّم لنا شخصية كوبية نموذجية ، استأجرته منذ سنتين أو ثلاث لعدة أيام ليتجول بى فى هافانا ، كنت مع صديق وفكرت فى آخر يوم أن نجرب شيئا جديدا ، كنا فى مسرح شنغهاى ، وشاهدنا عرض السوبرمان مع فتاة خلاسية بلا اهتمام ، خسرنا قليلا فى لعبة الروليت ، تناولنا طعامنا فى معطم فلوريديتا ، ودخنا الماريجوانا ، وشاهدنا عرضا للسحاقيات فى

البلومون ، وفي النهاية طلبنا من السائق أن يزودنا ببعض الكوكايين إذا استطاع ، وبدا انه لا شيء أسهل من ذلك ، وقف قرب بائع صحف ، وعاد بورقة مبرومة تحتوى على مسحوق أبيض ، وكان الثمن خمسة شلنات ، صدمنى رخص السعر وشككتنى .

استلقينا على أسرتنا ، وشممنا وشممنا ، عطسنا مرة أو اثنتين ، قلت لرفيقي : هل تشعر بشيء ؟

قال : أبدا .

وشممنا ثانية ، لا تقدم .

كنت شكاكاً أكثر من صديقى ، فاقتنعت على الفور أن الرجل باعنا - فيما يبدو الآن سعرا باهظا - بعض مسحوق حمض البوريك .

في اليوم التالي ، أخبرت السائق فأنكر ، ومرت السنوات ، حين رجعت إلى هافانا سنة ١٩٥٧ بحثت عنه في كل الأماكن التى يتجمع فيها السائقون ، وتركت رسائل له دون فائدة ، استأجرت عددا من المتطوعين للبحث عنه - كانت البطالة متفشية بنسبة كبيرة بسبب قنابل كاسترو الليلية التى أبعدت السياح عن كوبا - كنت أعرف أن الرجل مخادع ومحتمل لكنه دليل جيد للأماكن الخفية في هافانا ، ولم تكن لدى الرغبة في استئجار رجل أمين وممل ليكون رفيقى اليومى في رحلة طويلة كهذه . وذات ليلة ، حين نفذ صبرى في امكانية العثور عليه وفكرت في البحث عن سائق ، ذهبت إلى مسرح شنغهاى ، وأثناء خروجى إلى الشارع القذر ، كانت بعض عربات الأجرة تقف قرب المسرح ، ويقدم منى أحد السائقين قائلاً : يجب أن أعتذر إليك يا سيدى .. كان الحق معك .. انه مسحوق حامض البوريك .. لقد خدعت أنا أيضا .. إنه بائع الجرائد الملعون .. شخص محتال يا سنيور .. لقد وثقت به .. أسمع أن أعيد لك الشلنات الخمسة .

لم أره بعد ذلك في زيارتى التالية ، لقد حقق أرباحا أكثر مما خسر ، فقد كان كل مطعم وكل فندق وكل مقصف يدفع له عمولته ، ربما فضل التقاعد معتمدا على ما جناه .

مكان واحد في كوبا كنت لا أستطيع الذهاب إليه ، سانتياجو المدينة

الثانية في الجزيرة حيث مقر قيادة العمليات العسكرية ضد كاسترو ،
الذى أقام نقاط حراسة متقدمة على الجبال بالرجال القلة الذين معه .
كانت بداية فترة البطولة ، فالمقاطعة الشرقية حتى أخر رجل فيها وامرأة
وطفل (اقول طفلا) كانوا مع فيدل كاسترو . كانت الحواجز العسكرية
تحيط بعاصمة المقاطعة ، وكل غريب يصل المدينة كان موضع شك .
وهناك منع تجول غير رسمى يبدأ في التاسعة مساء ، ومن الخطورة
تجاهله ، كانت هناك اعتقالات اعتباطية وبالشبهة ، وغالبا ما تجد جثة
رجل متدلية من أحد أعمدة الاضاءة عند بزوغ النهار ، وكان ينظر
للضحية بأنها محظوظة ، فهناك من يعذبون في بناية ذات سمعة سيئة
تسمع صرخاتهم صادرة منها في الشوارع الخارجى ، بعد سقوط
سانتياجو بأيدي قوات كاسترو ، وجد مخبأ مملوء بالجثث خارج حدود
المدينة . قبل ذلك بوقت قليل ، قام سفير الولايات المتحدة المؤيدة لباتستا
بزيارة لسانتياجو ، واستقبله عمدتها ، وقامت أثناء ذلك مظاهرة مفاجئة
مرتبلة نظمت بسرعة البرق ، ولم يتوقعها نظام الرعب ، ضمت فئات من
مختلف الطبقات ، نساء ورجال من الطبقة المتوسطة ومن الفلاحين
إلتحموا جميعا في انشاد للأغاني الكوبية الوطنية في وجه السفير
الأمريكى الذى كان يشاهد ذلك من شرفة دار البلدية . كانت هذه فترة
التمرد الوطنى . أمرت القوات العسكرية النساء بالتفرق ، فرفضن ،
وبدأت الشرطة تفرقهن بالقوة وبخراطيم الحريق ، فأنتهى السفير الحفل
وغادر قائلا : انه لن يقف هناك يتفرج على الاعتداء على النساء . ولهذا
السبب وبخه بعد ذلك جون فوستردالاس لأنه خرق الحيادية التى يجب
أن يتصف بها ، ففى نظر الولايات المتحدة فإن الارهاب لا يكون اربابا
إلا إذا جاء من اليسار .

في حفل كوكتيل في هافانا بعد ذلك ، ورد ذكر موقف السفير الأمريكى
أثناء حديثي مع السفير الأسباني الذى قال :
- كان تصرفه غير دبلوماسى .
قلت : لو كنت مكانه .. ماذا كان يمكنك أن تفعل .
قال : كنت أدرت ظهرى فقط .

كانت الطريقة الوحيدة للذهاب إلى سانتياجو هي طريق الجو ، ليلة ما قبل السفر سهرت لوقت متأخر في حفلة مع بعض الأصدقاء الكوبيين ، جميعهم من الطبقة المتوسطة ومؤيدون لفيدل كاسترو ، وكانت بينهم امرأة شابة سبق إن اعتقلها وعذبها رئيس شرطة باتستا سبيء السمعة الكابتن فنتورا ، كما كانت هناك فتاة أخرى زعمت انها مراسلة لكاسترو ، سافرت معنا على الطائرة وطلبت منى أن أحمل في حقبيتي بعض « السوتيرات » والجوارب الثقيلة لرجال كاسترو في الجبال لأنهم في أمس الحاجة إليها . في سانتياجو كانت الحرارة استوائية ، وكانوا يفتشون الحقائب في المطار ، لكن من السهل على الأجنبي تفسير حمله للملابس الشتوية . كانت الفتاة قلقة علي ، من مقابلتي لأعوان كاسترو في سانتياجو ، لأن المدينة مملوءة بجواسيس باتستا خاصة الفندق الذي سأنزل فيه .

وهكذا بدأت كوميديا الأخطاء ، بشكل عبثي كأي شيء وصفته بعد ذلك في رواية « رجلنا في هافانا » ، في صباح اليوم التالي اتصل بي مراسل مجلة تايم الأمريكية ، أعطته مجلته تعليمات باصطحابي إلى سانتياجو لمساعدتي في أي شيء أطلبه ، لم أكن أريد أية مساعدة لكن صحيفته ظننت اني قد أزوده بعدد من الأخبار بطريقة أو بأخرى . كان يجب أن أتصل بالفتاة لأحذرها بأنني لست وحدي ، ولسوء الحظ لم أعرف اسمها أو عنوانها ولا حتى مضيقتي في الليلة الماضية كان يعرف . وحين قادني إلى المطار ، سألته ، فغادرني ، وانتظرت في البار ، رجع بتعليمات انه لا يجب أن أعرفها وإنها ستكلمني في الفندق في الصباح . كان الفندق في أحد أطراف الميدان الرئيسي الصغير في سانتياجو ، بجانبه كاتدرائية تصطف على جانبها الحوانيت ، وأمامه تقف عربتا أجرة وعربة يجرها حصان ، ويبدو عليهم أنهم فقدوا الأمل في الزبائن ، فلا أحد يأتي إلى سانتياجو الآن ، ربما الجواسيس الذين حذرت منهم . كانت الليلة حارة ورطبة والساعة تقترب من موعد حظر التجول غير الرسمي ، ولا يبدو على موظف الاستقبال في الفندق انه استقبل أي غرباء . مرت زمرة من الجنود ، ورجل يرتدي بذلة بيضاء قدرة رثة ،

يؤرجح نفسه على كرسى فى الصالة ، ورائحة الشرطة تغطى سماء المدينة ، عدت إلى ما تخيله نقادى بأرض جرين .

بينما كنت أتناول افطاري فى الصباح ، دق شخص باب غرفتى ، كان مراسل مجلة تايم يصحبه رجل فى منتصف العمر يرتدى بدلة « قفردين » أنيقة وعلى شفتيه ابتسامة رجل أعمال ، قدمه لى على أنه رجل كاسترو للعلاقات العامة فى سانتياجو ، وكان يبدو أنه يفصله عن الفدائيين فى الجبال عالم بحاله . ارتبكت لأنى أتوقع مكالمة الفتاة فى أية لحظة ، طلبت منهما أن يعودا بعد أن ارتدى ملابسى ، لكن واصل المراسل حديثه ودق جرس التليفون .

كنت مقتنعا آنذاك بخطورة الجواسيس ، فطلبت منهم مغادرة الغرفة حتى أجيب على التليفون ، فخرجوا على مضض . كانت المكالمة من الفتاة التى طلبت منى موافقتها فى رقم معين فى شارع كال سان فرنسيسكو . عاد مسترس إلى الغرفة وقال أنه مقتنع أنى كنت أتحدث مع أحد عملاء باتستا وطلب أن يعرف ما الذى قيل لى فى التليفون ، انزعجت ، لم أطلب من أحد أن يورطنى فى هذا الأمر ولا أريد أن أتورط ، قلت له انى أعتقد أنه هو نفسه عميل لباتستا . وكان مأزقا ، لكنه غادر الغرفة . وأضحت المشكلة فى كيفية العثور على العنوان الذى أخذته من الفتاة ، كنت خائفا حتى من سؤال موظف الفندق ، خرجت إلى الميدان وركبت إحدى سيارات الأجرة وقبل أن أتلفظ بكلمة لسائقها ، اندفع يجلس إلى جواره زنجى يرتدى ملابس براقية ، قال « أنا أتحدث الانجليزية .. سأرشدك إلى أى مكان تريده » . إذا كان هناك من مخبر هنا ، فهو هذا الرجل .

قلت « أريد أن أرى المدينة .. المناطق التى تثير الاهتمام » . وانطلقنا نهبط الشارع إلى الميتاء ، ونصعده إلى النصب التذكارى للبحارة الأمريكين الذين قتلوا فى الحرب الأسبانية الأمريكية ، دار البلدية ، وتوقعت أن أعود إلى الفندق ثانية إلا إذا وجدت عذرا .

سألت : أعندكم كنيسة قديمة اسمها سان فرنسيسكو إذا وجدت مثل هذه الكنيسة فستكون فى الشارع الذى يحمل اسمها . وصح

استنتاجى ، هناك كنيسة قديمة فى الشارع، الذى أريده.
قلت لمرشدى : أريد أن أصلى .. سأعود إلى الفندق وحدى سأعرف الطريق .

وأنا أسير داخل الرواق المسقوف للكنيسة استوقفنى قسيس يشك وعدوانية ، شرحت له بصعوبة أن كل ما أحتاجه فترة قصيرة من الوقت حتى تختفى السيارة والزنجى عن الأنظار .

بعد ذلك بدأت سيرى فى شارع كال سان فرنشسكو تحت شمس الظهيرة الحارة . كان الشارع طويلا جدا ، والعنوان الذى أريده فى الطرف البعيد ، كنت قد قطعت نصف المسافة حين توقفت بقربى سيارة ، كان بها مراسل التايم ومستر س .

قال مسترس : لقد كنا نبحث عنك فى كل مكان . كنت أفكر فى تفسير أقوله عن سيرى فى هذا الشارع اللامتناه تحت الشمس الحارقة . لكنه قال :

- كله تمام .. اكتشفت ان منظمتى هى التى اتصلت بك . وهكذا اكملت الرحلة مستريحا . وصلنا البيت الذى كانت تملكه عائلة برجوازية ثرية فى سانتياجو ، وجدنا هناك الفتاة المراسلة وأمها وقسيسا وشابا يصبغ حلاق شعره ، كان الشاب محاميا يدعى ارمندوهارت وهو الذى أصبح فيما بعد وزير التعليم فى حكومة كاسترو ، ثم السكرتير الثانى للحزب الشيوعى الكوبى ، وكان قد هرب من حراسه وهم يقودونه إلى المحكمة تحت حراسة عسكرية ، قبل أيام قليلة . كان يسير فى طابور من المساقين إلى المحكمة يحرسه الجنود من الأمام والخلف ، وعند عطفة معينة فى الطريق حيث يختفى جزء من الطابور عن أعين الجند فى الأمام والخلف ، تسلل إلى المراحض العامة القريبة من المكان ، ومن نافذة داخلها خرج إلى زملائه الذين كانوا ينتظرونه فى شارع خلفى ، لم يلاحظ أحد غيابه إلا حين نودى على اسمه فى المحكمة . كانت زوجته معه فى البيت ، تعرفها كل أمريكا اللاتينية ، الآن باسم هايدى سانتا ماريا ، امرأة شابة بدت منهكة فى تلك الأيام كما لوانها سحقت من الأحداث التى جرت لها وخارجة عن ارادتها . قبل زواجها من هارت خطبت إلى

شاب قبض عليه بعد هجوم فاشل على ثكنات مونكادا في سانتياجو سنة ١٩٥٣ ، أخذت إلى السجن لترى جثته بعد أن أعموه وأخصوه (تذكرت تلك القصة حين حدثتني زوجة السفير الأسباني عن سحر باتستا الاجتماعي) .

على كل حال ذلك تاريخ قديم ، كان كل ما يهتمون به الآن هو الطائرات النفاثة التي ستبيعها بريطانيا إلى باتستا ، كانت لديهم معلومات حول ذلك وعند عودتي ، حين تقدم نائب عمالي في مجلس العموم بسؤال حول حقيقة الموضوع ، أكد مستر سلوني لويد وزير الخارجية انه لا أسلحة تباع إلى باتستا ، ولكن بعد أشهر قليلة ، وقبل دخول كاسترو هافانا بأسبوع أو اثنين ، اعترف وزير الخارجية بأن تصريح بيع الطائرات لباتستا قد منح ، وأن وقت اعطاء هذا التصريح لم يكن لديه معلومات أن الحرب الأهلية تتزايد في كوبا .

وللعلم كان هناك الكثير من الشواهد على تلك الحرب الأهلية ، ففي الليلة التالية لوصولي اعتقلت السلطات ثلاث اخوات تتراوح أعمارهن بين الثامنة والعاشرة من منزلهن في منتصف الليل ، لأن والدهن هرب وإلتحق بقوات كاسترو في الجبال ، وهكذا أخذن رهائن في ملابس نومهن إلى الثكنات العسكرية . في الصباح رأيت ثورة الأطفال حين وصلت أخبار اعتقال الفتيات إلى المدارس ، اتخذ التلاميذ قرارهم بأنفسهم ، تركوا مدارسهم وانطلقوا إلى الشوارع ، وانتشرت الأنباء ، وهرب الآباء للبحث عن أطفالهم وامتلأت الشوارع بهم ، وبدأت الحوانيت تقفل أبوابها توقعا للأسوأ . واستسلم الجيش لمطالب الطلبة ، وأطلق سراح البنات الثلاث ، لم يستخدموا خراطيم الحريق ضدهم كما فعلوا مع أمهاتهم ، أو يعلقوهم على أعمدة الانارة كما فعلوا بآبائهم . ما أدهشني ان صحيفة التايم لم تذكر شيئاً عن مظاهرة الأطفال مع أن مراسلها كان معي في المدينة ، ربما لم يرس المراسل على بر ، هل هو مع باتستا أو مع كاسترو ؟ وماذا عن الحكومة البريطانية ؟ مازالت الحرب الأهلية غير مرئية في نظر وزير الخارجية ، في وقت زيارتي التالية لهافانا ، وهو وقت منح ترخيص تصدير الطائرات ، كانت شواهد الحرب الأهلية كافية

لدرجة كادت تحتجزنى فى هافانا ، ولم أستطع زيارة سانتياجو ، وفى الواقع لم أستطع البعد عن هافانا بأكثر من مائة كيلومتر ، ولا تجد سائقا يخطر بسيارته ليقع فى كمين ، بل ان الطرق الرئيسية لم تكن آمنة .

فى ذلك الوقت كنت قد أنهيت روايتى « رجلنا فى هافانا » ، لم أسف على ما جاء فيها ، فقد بدا لى أن كلا من وزارة الخارجية أو المخابرات البريطانية تستحقان عن جدارة بعض السخرية ، لم يستقبل الكتاب بحماس من الحكام الجدد ، اعتبروا أن سخريتى من المخابرات البريطانية فى الرواية لفت للأنظار عن حقيقة حكم باتستا المرعب . لم أكن أريد خلفية سوداء جدا لرواية ساخرة ، لكن أولئك الذين عانوا سنوات من الحكم الديكتاتورى ، من الصعب أن يعجبوا بعمل موضوعه الرئيسى عبثية عميل للمخابرات وليس عدالة الثورة ، أو تروق لهم تبريراتى الجمالية فى تحويل شخصية ضابط متوحش كفنتورا إلى ضابط ساخر .

وكمعلومة تاريخية فإن كابتن فنتورا هرب من كوبا إلى جمهورية الدومينكان مهددا رئيسه بمسدس ، كان عزم باتستا أن يتركه وراءه كأخر قطرة فى الكأس تضحية للالهة ، لكن فنتورا وصل إلى مطار هافانا وأرغم باتستا أن يلقي ببعض حقائبه ليفسح مكانا له ، وكانا يشكلان ثنائيا يتبادل الخوف والحذر فى فندق تريجيللو حيث كان فنتورا يقضى ساعات طويلة يلهو بالات اللعب .

المهم ، العميل البريطانى وورمولد فى رواية « رجلنا فى هافانا » ، ليس له أصل واقعى أعرفه ، أما هوثورن ففيه القليل من شطحات ضابط مخابرات كان يوما رئيسى ، كذلك شخصية س والمونوكل الأسود لم تكن شخصية خيالية تماما ، ففيه شبه من الاميرال سنكلر الذى مات بسكتة قلبية عقب خروجه من الحمام .

* * *

ذهبت إلى الكونغو البلجيكي في يناير ١٩٥٩ ، بقصة تكونت في ذهني عن طريق موقف : غريب يجد نفسه في مستعمرة للمجذومين بغير سبب واضح . كقاعدة ، أنا لست من الكتاب الذين يدونون الملاحظات من أجل كتابة رواياتهم ، ماعدا كتب الرحلات ، ولكن في هذه الحالة اضطررت لكتابة ملاحظات حتى تكون الخلفية الطبية دقيقة في الرواية ، وحتى مع كتابة هذه الملاحظات يوما بعد يوم في شكل يوميات ، فقد ارتكبت بعض الأخطاء ، صححتها في المراحل الأخيرة صديقي الدكتور ليشات ، طبيب المستوطنة . وبما أنني اضطررت لكتابة اليوميات ، فقد انتهزت الفرصة لأتحدث إلى نفسي بصوت مرتفع ، وأن أسجل بعض الحوارات والأحداث المتخيلة ، بعضها وجد طريقه إلى الرواية وبعضها طرحته جانبا . على كل حال سواء كان ذلك أفضل أو أسوأ ، فبهذه الطريقة بدأت رواية « حالة ميئوس منها » . بدأت كتابتها بعد عودتي من الكونغو بأربعة أشهر ، ولم تقابلني رواية أكثر حرونة وأكثر كآبة من هذه الرواية . فالقارئ عليه أن يتحمل شخصية بطل الرواية الميئوس منها والمسماة كويري لعدة ساعات من القراءة ، لكنني عشت معها وفيها لمدة ثمانية عشر شهرا . أما كيف نمت الرواية في ذهني فقد وصفتها بالكامل في كتابي « بحثا عن شخصية » ، لكنني أسأل نفسي الآن وبعد مرور عدة سنوات على كتابتها : لماذا كنت أبحث عن شخصية كنتك بالذات ؟ أعتقد أن الأسباب تعود إلى الفترة التي تلت نشر روايتي « لب القضية » . النجاح أخطر من الفشل ، ولاقت « لب القضية » نجاحا بكل معنى تلك الكلمة من النجاح الجماهيري الشعبي ، وقلت لابد أن فيه شيئا ما فاسد ، لأن الكتاب يخاطب في الغالب النواحي الضعيفة في قارئه . لم أتلق في حياتي رسائل من غرباء حول رواية ما .. قدر ما تلقيتها في هذه الرواية ، رسائل معظمها من نساء وقسس ، وكانت صدمة لي أن وجدتهم يعتبروني كاتبا كاثوليكيا ، في إنجلترا وأوروبا وأمريكا ، وكان ذلك آخر ما كنت أحب أن يطلق علي .

كتب لى شاب من برلين الغربية يطلب منى أن أقود حملة صليبية من الشباب إلى المنطقة الشرقية لنضحي بدمائنا من أجل الكنيسة ، ولم أرد على تلك الرسالة لأنه كان من الصعب أن أوضح له أن التزامى فى تلك اللحظة لم يصل إلى درجة تضحيتى بدمى . وأرسلت لى امرأة شابة خطابا كتبته وهى مضمورة ، تدعونى لنزهة على قارب صيد هولندى وأرفقت صورتها ، وأخرى تكتب من سويسرا تقترح أن ألحق بها حيث يكون الثلج مخبوعا ، مشروع أقل جاذبية لى من موضوع التضحية بالدم . ثم قسيس فرنسى لاحقنى أولا برسائل من نوع لا يمكن أن يعنون إلا لقسيس اعترافات ، ثم جاء بعد ذلك لمقابلتى ، بل فاجأنى ذات مساء دون موعد فى زقاق فى أنا كابرى وأنا أهم بركوب الباص إلى كابرى مع عشيقتى ، مثيرا حوله زوبعة من الغبار بسبب ثوبه الكهنوتى الطويل الأسود .

وبدأت امرأة أمريكية تتصل بى عبر الأطلنطى فى الساعات المبكرة من الصباح طالبة منى الحضور لمساعدتها فى التغلب على صعوبات زواجها ، وقد استطاعت التغلب على مقاومتى ، فاصطحبت أعز صديقاتى وسافرت ، كان بيتها فى نيوجرسى ، أاثا انتوى طاغ ، ولديها خادمة سوداء متغطسة ، مازالت تطفو بحيوية على سطح ذاكرتى ، كانت السيدة تنام فى منتصف النهار بمساعدة الحبوب المنومة ، مسدلة الستائر ، ومغطية عينيها بحاجبات الضوء ، مرتدية عباءة نوم قرنفلية . زيارتنا كانت بلا فائدة كما توقعنا ، الموت هو وحده القادر على انقاذها ، وقد أنقذها بعد ذلك بسنة بمساعدة الحبوب المنومة والشراب ، منبوذة من الجميع عدا أحد أصدقائها من الجزويت .

قد يبدو هذا الكلام قاسيا وخاليا من الإحساس ، لكنى فى السنوات التى تقع بين نشر « لب القضية » « ونهاية المسألة » شعرت انى استخدمت وأنهكت من ضحايا الدين . رؤى الإيمان التى كانت تشعر المرء كأنه فى بحر هادىء ، ضاعت للأبد ، وأصبح الإيمان يشبه عاصفة ، والمحظوظ من يبتلعه البحر ويضيع ، وتعيش الحظ هو من ينجو ، ويلقى على الشاطئ ليعانى ويضرب حتى تسيل دماؤه ،

والأفضل من هذا وذاك هو من وجد له عملاً بشق الأنفس على حافة ذلك البحر القاسى ، وانى مقتنع ان مجرى حياتى لا يؤهلنى بأن أعرض أى مساعدة ، ولم تكن رسالتى بابوية ، فأنا روائى وصرخات المناشدين بطلب المساعدة الروحية كادت تصيبنى بالجنون بسبب عجزى ، وأتساءل ما هو دور الكنيسة إذا لم يكن مساعدة هؤلاء الذين يعانون ؟ ولماذا وجد القسس ؟ كنت مثل رجل لا يعرف شيئاً عن الطب فى قرية ضربها الطاعون .

أعتقد انه فى تلك السنوات ، ولدت شخصية كوارى ، والاب توماس أيضاً فى روابتى « قضية ميثوس منها » .

لاحظت أن النقاد الكاثوليكين والنقاد الماركسيين هم الأكثر ادراكاً لغزى الرواية من الآخرين . فنقدهم أقل ذاتية وأكثر موضوعية . لم أكن فى الواقع شخصية كاثوليكية مشهورة كما صورت كويرى فى الرواية ولا هجرت كنيسة وطريقة حياتى السابقة كما فعل ، والناقد الذى لم ير فى الرواية سوى صلبان قديمة مرسومة على بيض عيد الفصح (اشارة إلى اعتقاد كويرى الخرافى) ، كان غارقاً فى البحر أكثر من الناقد البولندى الذى رحب بالرواية على اعتبار انها اعادة بعث للكنيسة الكاثوليكية ، أما صديقى العزيز ايفلين ووفقد أدرك ان شخصية كويرى هى اعادة تصوير لشخصية الكاثوليكي العجوز فى قصتى القصيرة « زيارة إلى مورين » ، وأحزنته الرواية .

وكتبت إلى الصحيفة الشيوعية التى تناولت الكتاب ، أنى ككاثوليكي اعتبر نفسى قادراً على معالجة قضايا فقد الإيمان بحرية كاملة كمعالجتي لقضايا الإيمان ، وانى لو كنت كاتباً شيعياً فى بلدة لصورت شخصية شيعية مصابة بالجذام ، وطلبت منهم أن يحولوا مكافأتى عن الاقتباسات الكثيرة من روابتى ، لصالح ترميم كاتدرائية وارسو . كتب لى ايفلين ووقائلا « أعرف انه من الخطأ أن نقارن الشخصيات الخيالية فى رواية ما بمؤلفها ، لكن هذه الرواية قد أوضحت لى انك غضبت من اللقب الذى اطلق عليك بأنك كاتب كاثوليكي ، وأردت بروايتك أن تفند ذلك ، اعترف ان لى بعض الذنب فى اطلاق ذلك اللقب ، فمذ ١٢ سنة كنت فى

جولة لالقاء عدد من المحاضرات هنا وفي أمريكا ، كانت تبحث عن تفسير جرىء لما اعتقدت بأمانة انه اهمال من الناس الذين صدموا بالمشاهد الجنسية في رواياتك ، من رؤية الرسالة الدينية المتضمنة فيها . تصرفت في الواقع كشخصية لا يكر (شخصية منفرة في الرواية) ، أنا أسف للازعاج الذى ساعدت فيه ، وكل أمني أن يكون مجرد ازعاج وأن شخصيات مثل مورين وكويرى هى شخصيات خيالية تماما وليس لها اية علاقة بمؤلفها .

وأجبت ايفلين وو بصراحة أكثر من الصراحة التى أجبت بها الناقد الشيوعى ، قلت له « مع كاتب أصيل وبعيد النظر مثلك ، لن أحاول التخفى وراء القول السائر بأنه لا يكن العثور على المؤلف في شخصياته . في الواقع أن بعض ردود فعل كويرى هى ردود فعلى ، بالضبط مثلما كانت بعض ردود فعل فولر في الأمريكى الهادىء هى ردود فعلى . واعتقد أن النقاط التى يلتقى فيها المؤلف مع شخصياته تؤدي إلى القوة والدفع في التعبير ، كما اعتقد انه ليس بالضرورة أن تتوازي شخصية المؤلف مع الشخصية ، أو تكون النتائج التى نستخلصها من الشخصية تنطبق على المؤلف .

فولر كان غيورا أكثر منى ، وكويرى كان رجلا أخشى أن يكون أفضل منى ، أردت أن أعبر عن حالات مختلفة من الإيمان وعدم الإيمان . فالطبيب الذى أحببته لشخصيته الواقعية يقدم نموذجا للشخصية الملحدة الراضية ، كما تقدم شخصية الأب سويريور نموذجا للشخصية المؤمنة المطمئنة ، أما الأب توماس فهو يقدم نموذجا من الإيمان القلق المتقلقل ، بعكس شخصية كويرى التى تقدم نموذجا لعدم الإيمان القلق غير الثابت ، ولتعمق المرء في البحث لوجد جزءا من الأب توماس والطبيب في شخصية المؤلف .

وأجابنى ايفلين وو قائلا « لم أقصد القول انى صورة حرفية من شخصية لا يكر ، لكنى أراه نموذجا لعدد من الأشخاص الذين تحبهم ، ووضعوك في موقع وجدته بغیضا ، لقد ألمحت لنا كثيرا لكننا لم نفهم تلميحاتك ، والآن كتبت رأيك بوضوح ، لن تجد منا عداوة أو أسفا

بدرجة أسف براوننج على « قائد الضائع » ، ولكن لا أعتقد ان بإمكانك أن تلوم الذين يرون في كتابك ارتدادا عن الدين .

وانى أرى أن تعبير شخصية ملحدة راضية لا معنى له ، لأن الملحد ينكر كل هدف لوجوده الذى هو عبادة وحب الله ، والنظرة السطحية هى التى ترى فى الملحد شخصية راضية . ان أرضهم الخراب غريبة على غرابة أطراف الكون السحيق (جملة متنفجة استخدمتها فى خطابى لوصف بعض المواقف الكاثوليكية) . ورددت عليه بقولى « أعود للنقاش مع ناقدى الشيوعى ، وأتساءل أيجب على الكاثوليكي أن يمتنع عن تصوير شخصية كاثوليكية مصابة بالجذام ؟ ثم إذا كان الناس بهذا الطيش كى يعتبروا هذه الرواية ارتدادا عن الإيمان فماذا يمكننى أن أفعل تجاه ذلك ؟ من المؤكد انهم سيدهشون حين يروننى أحضر قداسا . وما كرهته فى بعض النقد الكاثوليكي ، خاصة بعض ما كتب فى فرنسا هو الخلط بين وظيفة الروائى ووظيفة المصلح الدينى . ومادمت استشهدت ببراوننج ، فأليك مقتطف من كتابه اعتذار القس بلوجرام :

كل ماجنيناه من عدم الإيمان

حياة شك مطعمة بالإيمان
فإيمان المرء مرصع بالشك

كرقعة الشطرنج بيضاء وسوداء
وشعرت أن النقاش أصبح حاميا وجادا ، كما أدهشتنى وصدمتنى اشارته إلى القارئ الضائع .. ألم أعتبره دائما قارئى ؟ ولأنهى المراسلات ، بعثت له ببطاقة عليها صورة بذئنة وكتبت « مع حبى - لميلتون وبيرنز وشيللى . وأحذرهم بأن ستيفن سيندر ودى لويس فى الطريق إليهم . وشكرا على كل ما فعلوه . من العبيد واللاحقين » .
أجاب بلطف « العمى فى عينيك . أمل لك صباحا سعيدا » . ومرت السحابة .

فى الواقع ، كان كل منا ، أنا وايفلين وونقطن أرضا خرابا مختلفة .
فأنا لا أجد شيئا غير متجانس فى الإلحاد حتى الإلحاد الماركسى . أرضى الخراب يقطنها سكان الضواحي الاتقياء الذين كتبت عنهم باهمال

شديد ، ولم أعن بالتقوى ، تقوى الناس البسطاء الذين يقبلون الله دون سؤال ، لكن تقوى المتعلمين الذين لديهم فكرتهم الدينية الخاصة عن الله ، الذين توقفوا عن البحث عنه ، لأنهم يعتبرون أنفسهم قد وجدوه ، من المؤكد أن « أونامونو » كان في ذهنه هؤلاء حين كتب « أولئك الذين يعتقدون أنهم يؤمنون بالله ولكن دون أن يلمس الحب قلوبهم ، أو الشك عقولهم أو القلق تفكيرهم ، انهم يؤمنون بفكرة الله لا بالله نفسه » . لن أبحث عن شخصية كويرى في تلك الأرض الخراب . لكنى أبحث عنهم وسط أولئك الذين يصفهم أونامونو « عقولهم أقوى من ارادتهم ، الذين يشعرون أنهم وقعوا في قبضة العقل وأكروها على السير في طريقه رغم أنفسهم ، فوقعوا في اليأس الذى قادهم إلى الانكار ، ويتجلى الله فيهم ، مؤكدا وجوده بنكرانهم الشديد له » .

وشخصية كويرى مثل شخصية مورين ، كان الاثنان ضحية لعلم الدين ، قال مورين لمحاورة غير الكاثوليكي « الإنسان يمكنه أن يقبل كل شيء عن الله حتى يبدأ العلماء في الدخول في التفاصيل ، الإنسان يمكنه أن يتقبل فكرة الثلاث الأقدس (الأب والإبن والروح القدس) لكن النقاشات التى تتلو ذلك .. لا تحاول أبدا أن تحدد نقطة ما باستخدام نظامين مختلفين للحساب ويجدولين مختلفين في الوقت نفسه .. آنذاك سينتهى بك المطاف بتكذيب علم الحساب . اعتدت أن أؤمن بالوحى والالهام ولكنى أبدا لم أؤمن بمقدرة العقل البشرى » .

لم أكن قد قرأت كتاب أونامونو « الحس المأساوي للحياة » حين كتبت قصتي القصيرة « زيارة إلى مورين » أو روايتى « حالة ميئوس منها » ، ولكن حين قرأت ذلك الكتاب وجدت عدم الثقة نفسها التى استشعرها مورين في علوم الدين « الحل الدينى (الذى يقدمه الدين) لمشكلتنا الفريدة والحيوية ، مشكلة الخلود والخلاص الأبدى لروح الفرد ، يقنع رغباتنا ، ويرضى حياتنا ، لكن محاولة عقلنة ذلك بواسطة علوم الدين التى لا تملك الدليل ، لا تقنع العقل ، والعقل له ضروراته الملحة كتلك التى للحياة » . ومرة ثانية « تلك البراهين التقليدية على وجود الله كلها ترجع إلى ما يعرف بفكرة الله ، الاله المنطقى، المفهوم عبر

المجردات ، وهكذا فإن تلك البراهين لا تثبت سوى ذلك الوجود لفكرة الله ولا شيء غير ذلك .

قبل ثلاثين سنة قرأت كتاب اونامونو « حياة وموت دون كيخوت » دون اهتمام خاص ، ولم يترك الكتاب في ذاكرتى أثرا ، لكن ذلك الكتاب الذى نسيته بسرعة ، استمر يشق طريقه فى دروب اللاوعى ، وفى الحياة التى كنت واعيا انى أشق طريقى فيها من خلال حبى للمعرفة والدراسة فى علم اللاهوت ، وماذا كانت النتيجة : رواية « لب القضية » أزعجت اللاهوتيين الأخلاقيين ، نهاية المسألة ، وغرفة المعيشة والسقيفة تسببت فى إثارة القلق وسط أولئك الذين يعتقدون المذهب الذى أعتنقه ، وفى نهاية رحلة طويلة ، وبدون أن أعرف الطريق الذى أسير فيه ، وجدتني أكتب « زيارة إلى مورين » ثم « حالة ميئوس منها » لأقع فى تلك المنطقة التراجيوميديا لعالم دون كيخوت حيث توقعت أن أقيم . حتى نقادى الماركسيون تشابهوا مع ايفلين وو فى انهم كانوا مهتمين جدا بالإيمان أو عدم الإيمان ، وفاتهم أن يلاحظوا الكوميديا التى تسرى فى الكتاب الأسود الذى كتبته .

* * *

٤

للأسف كان ذلك هو الجدل الأخير مع ايفلين وو ، جاءت وفاته سنة ١٩٦٦ مفاجئة دون انذار ، لم يكن موته موت كاتب أعجبت به منذ العشرينات فقط ولكنه موت صديق أحبه . كانت وفاته عجيبة وبشكل ما يقشعر منها البدن . كان يوم أحد الفصح ، وقد عاد من تناول العشاء الربانى فى الكنيسة ، كان سيتغدى مع عائلته ، وهناك قسيس فى البيت - هذا كله يفسر كاثوليكيته التى كان منجذبا إليها بشدة - ومات فى المرحاض ، كأن ذلك انعكاسا لأسلوبه الهجائى ووحشيته الساخرة التى كان يصف بها أحيانا موت شخصياته مما يعيد إلى ذهن شخصية

انثروب في روايته « رجال تحت السلاح » . كان هناك دائما صراع بين الهجاء والرومانسي في شخصيته ، وافترض أن الهجاء هو إلى حد ما رومانسي ولكنه عادة لا يعبر عن رومانسيته ، من المؤكد أن الرومانسية كانت نقطة ضعف في حياة وأعمال ايغلين وو .. وفي النهاية ساهمت في قتله . كان يأمل ويتوقع الكثير من بنى الإنسان والكثير جدا من الكنيسة ، وأعتقد ان التعبير القديم « قلب كسير » يقترب من الحقيقة حين يفكر المرء برد فعله للتغيرات التي حدثت في طقوس الكنيسة الكاثوليكية .

لم تكن خيبة أمله في الكنيسة فقط ، بل وفي الجيش أيضا ، كان ضابطا شجاعا ولكن ليس ناجحا ، وعبر عن خيبة أمله في ثلاثيته « رجال تحت السلاح » و« ضباط وسادة » ، و« الاستسلام غير المشروط » . في نهاية ضباط وسادة أو ما أعتقد انها ينبغي أن تكون نهايتها بل ونهاية الثلاثية ، كتب « عاد بعد أقل من سنتين من حجة إلى الأرض المقدسة بخيبة أمل ، إلى العالم القديم الغامض ، حيث القسس جواسيس ، والأصدقاء الذين ظنهم شرفاء خونة ، وبلاده تقاد بخطأ فادح إلى العار » .

يمكن أن نرى ان الهجاء والمسحة الباطنة الجادة بدأت تظهر في كتبه الممتعة منذ تحطم زواجه الأول . في كتبه المبكرة كان يستمتع بشدة فيما يهجو ، وكتابه الأول « الانحطاط والسقوط » والذي أعجبت به ككتبه الأخرى ، قرائته على الأقل ست مرات وهو بالنسبة لى هزل نقى ممتع . وهكذا كان كتابه الأقل نجاحا « أجساد تافهة » الذي سخر فيه « من الأشياء الصغيرة الجذابة » في العشرينات والتي كان هو نفسه من ضمنها . لم ينظر إلى شخصياته بطريقة جادة بما فيه الكفاية ليهجوهم ، لكن من المؤكد أن في كتابه « الأذى الأسود » بدأنا نرى الهجاء الحاد وراء السخرية الظاهرة ، وكانت الرواية حول امبراطور أسود يحاول تحديث بلاده ، وهى مبينة على تجربة وو في أثيوبيا . وكان أكثر كتبه ايلاما هو « حفنة غبار » فلا توجد فيه سخرية على الإطلاق .

إن كاتبنا من نوع ايغلين وو ترك لنا العديد من الاعمال المختلفة

نجوس خلالها ، فنكتشف أفقا لم تجد حظها من التقدير ، وطرقا من الحياة لم نكتشفها في اللحظة المناسبة ، لأن القارئ قبل المؤلف ، يتغير . بالنسبة لى ملت إلى رفض روايته « زيارة ثانية لبرايديشيد » حين كتب لى أن تبريره الوحيد لكتابة تلك الرواية بذلك الشكل : أكواخ نيسين وعلب اللحم المحفوظ وفترات الإظلام ، وقد قبلت ذلك النقد ، حتى جاء يوم قرأت فيه كل أعماله ، ولدهشتى وجدتنى أنضم إلى أولئك الذين يعتبرون « زيارة ثانية لبرايديشيد » أحسن كتبه ، مع أنها أكثر رواياته رومانسية .

كانت أولى رواياته المفضلة لدى ذلك الكتاب الشجاع جدا « محنة جلبرت بنفولد » ، رواية بنيت على تلك الفترة التى طاش فيها صوابه . وقد حدث ذلك بعد كتابته « رجال تحت السلاح » و« ضباط وسادة » ، أذكر انى كنت أتمشى معه فى حديقة بيته وسألته : لماذا لم تكتب على غلاف رواية « ضباط وسادة » انك تنوى أن يكون العمل ثلاثية ؟ وكانت اجابته : « لأنى لم أكن متأكدا انى سأكتب الكتاب الثالث . ربما أفقد صوابى ثانية » .

فى رواية « بن فولد » كانت الشخصية فيها دراسة لنفسه ، انها تذكر المرء قليلا بما فعله فرويد حين حلل نفسه . « لم يقم صداقات جديدة فى السنوات الأخيرة ، أحيانا يكتشف بعض البرود فى معاملته رفاقه القدامى . كان دائما هو الذى يطلب مقابلتهم ، وكانوا دوما هم المبادرون بالمغادرة ، ويحدث أحيانا - كلامه عن بنفولد بطل الرواية - أن يشعر بأنه ممل ، من السهل التنبؤ بأرائه ، يمقت الفن التشكيلى ، وبيكاسو وحمامات الشمس وموسيقى الجاز ، وكل شئ فى حياته . اللحظات الخيرة التى مرت به كانت بسبب تدينه وكل ما فعلته أن لفتت من قرفه لتحوله إلى ملل .

فى هذا الكتاب الغريب طرح جانبا كل صفاته الحسنة : الشجاعة البدنية ، الكرم الخاص ، الوفاء للأصدقاء . الكتاب يعبر عن شخصيته الفنية تماما ، بأسلوبه الجيد فى ربط الفقرات ، عدم استخدامه الكامل للحال الذى يدمر اسلوب الكاتب أكثر من الصفة .

وهنا نقاط يلاحظها الروائي لكن القارئ أيضا يلاحظها ، وهنا لا نستطيع أن نستخف بما أسماه ثرولوب في سيرته الذاتية « فطنة القارئ النقدية اللاواعية » ، بمعنى أن ما يلاحظه الروائي يلاحظه القارئ أيضا وإن كان لا يعرفه .

حين نشر ايقلين وو جزءا من يومياته ، أفسدتها وسائل الإعلام بتناولها المرح ، وأقصد بوسائل الإعلام الصحافة الرديئة . فالصحفيون في هذه الجرائد يهتمون دائما بتحويل الكاتب الجيد إلى « شخصية » وإذا نجحوا فإن الشخصية الأسطورة تحل محل العمل الأصلي ، وتحبب شخصية المؤلف الحقيقية . والأفعال والملاحظات التي كانت مزعجة ذات يوم تصبح الآن ممتعة ومسلية لأنها أضحت جزءا من الشخصية الخيالية .

الروائي روبرت لويس ستيفنسون لقي مثل هذه المعاملة ، لكن محررو الصحف الأدبية في زمنه كانوا أكثر أدبا ، كونراد قاسى من المصير نفسه ، ود . هـ . لورنس لولا أنه أنقذ من الأسطورة على يد الناقد ليفز ، فمن ينقذ ايقلين وو ؟

انى أكتب كارها في هذا الموضوع ، وقد احترت عدة سنوات بالسمعة التي ألصقت به بأنه فظ وقاس ، فقد عرفته لمدة ١٢ سنة جيدا ولم أجد مثلا واحدا يبرر هذا الوصف الذي أطلقته عليه الصحف . ولقد أقمت معه عدة مرات في الريف (وهو عمل يعتبره بعض أصدقائه بطولة منى) ولم أر فيه إلا مضييفا ممتازا وشخصا مرحا يغلف أحزانه الخاصة بسخرية ومزاح ولا يزعج ضيفه . وظل الأمر كذلك حتى منتصف الخمسينات حين رأيت وجه ايقلين القاسى . كنا نتناول العشاء في بيت المخرج كارول ريد ، وكان معنا المنتج الكسندر كوردا وفتاة صغيرة تزوجها فيما بعد ، فجأة انحنى ايقلين على المائدة وشن هجوما ضاريا على كوردا بطريقة صدمتنا ، منهي كل الأحاديث ، وتحمله كوردا بصبر ولطف يضرب بهما المثل .

في اليوم التالي كنت أركب معه عربة أجرة ، وطلبت منه تفسيراً لما حدث فقد كنت أحب اليكس جدا :

- ما الذى دفعك للتصرف بهذا الشكل ؟
قال : كيف يجرو كوردا على احضار عشيقته إلى بيت كارول ؟
قلت : ولكنى كنت أيضا مع عشيقتى !

قال : ذلك أمر مختلف .. فعشيقتك متزوجة .
الفسوق مع الفتيات الصغيرات أخطر من الزنا ؟ أهذه هى وجهة النظر الكاثوليكية الأصلية ؟ تركت النقاش وغرقنا فى الصمت . لكن أولئك الذين صوروا ايفلين وكونوع من الوحوش المقدسة ، تغافلوا عن الجانب الآخر فيه . تجاهلوا الرجل الذى اقتطع فترة من وقته الثمين ليملك مع صديقه المحتضر رونالد نويس فى فندق ومنتجع كان يكرههما ، الرجل الذى سهر على فراش موت صديقه الفرد دوجان وأحضر له كل المساعدة التى احتاجها رغم كل العقبات .
كنت أتمنى حين أموت أن يكون بجانبى .

كانت أراؤنا السياسية متباعدة مئات الأميال ، وكان يعتبر كاثوليكيى هرطقة ، فما الذى جعلنا فى الواقع أصدقاء ؟ كتب لى فى أكتوبر سنة ١٩٥٢ « أكمل اليوم عامى التاسع والأربعين وأنت تبدأ عامك التاسع والأربعين ، لقد قيل لى أن هذه هى الفترة الحرجة التى يتحدد فيها اتجاه المرء بقية حياته ، أنها سنة فقدت فيها العديد من الأصدقاء ، ليس بالموت ولكن بطريقة النهك والانهك من كثرة الاستعمال .. صداقتنا بدأت متأخرة .. أرجو الله أن تستمر » واستمرت . منذ سنوات قليلة أعدت قراءة رسائله إلى ، ذكرى حزينة ، ولأول مرة أدرك كم كان رجلا وحيدا ، طلب منى مرارا وتكرارا أن أزوره ، ولم استجب له إلا ثلاث مرات . فقد كان من المستحيل دائما تلبية طلبه أو أكون مشغولا ، فأرد عليه مستحيل هذا الشهر ، وانى أسف على المناسبة الأخيرة التى لم أزورها فيها .

فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ كتب فى يومياته أثناء وجوده فى يوغوسلافيا « عيد ميلادى الواحد والأربعين .. الأكثر كتابة منذ احدى عشرة سنة ، السنة الماضية كانت جيدة ، فقد ولدت ابنتى ، وكتبت كتابا ونجوت من الموت أرجو الله أن أكون فى العام القادم فى وطنى وفى بيتى فى عملى وفى

سلام . سلام لم يتحقق له ، يأس متواصل يتخطاه بالكلمة السهلة الملل . كنت أقرأ رواية هنرى جيمس « أهل بوسطن » ، وحين وصلت إلى وصفه لشخصية رانسوم ، خطر على ذهني فورا ايغلين وو ، لم يحل هنرى جيمس الأسباب التي دعت رانسوم أن يكون ما هو عليه ، وأشك إذا كانت يوميات ايغلين وو تساعدنا على فهمه ، من المؤكد انها حين تنشر كاملة ، ستعطى فرصة لكثير من الكتاب ذوى الموهبة الأقل ، ليشوهوا سمعة رجل كانوا يخافون من نقده وهو حى حتى لا يرد عليهم .

* * *

٥

رغبتي في الهروب من لندن ومن حياة الكاتب المغلقة ظلت تلازمى في فترة الستينيات ، وقد استيقظت هذه الرغبة عند قراءتى لمقال عن هايتى تحت حكم بابادوك .

كانت الزيارتان السابقتان لهايتى سعيدتين جدا ، وكانتا ابان حكم الرئيس ماجلورى ، كان هناك فقر مدقع ولكن كان هناك أيضا الكثير من السياح وبعض النقود التي كانوا ينفقونها كانت تنقط في حلق الفقراء ، وكان الفندق الضخم الذى أنزل فيه - فندق آل رانشو - دائما ممتلئا ، وقد نزل فيه ذات مرة عمدة ميامى لليلة واحدة مع مجموعة من الأتباع الصاخبين والفتيات كثيرات الصراخ ، وكانت هناك وقائع مثيرة في حمام السباحة حتى الساعات الأولى من الصباح . قابلت شعراء ورسامين وروائيين من هايتى ، ورجل أحببته أكثر من الجميع وصورته في شخصية د. ماجيوت في روايتى « الممثلون الهزليون » ، وهى رواية لم أكن أحلم بأن أكتبها . كان الرجل طبيبا وفيلسوبا ، وشغل لفترة وزير الصحة ، لكن حين وجد يديه مقيدتين بدرجة كبيرة استقلال ، كان رجلا ضخما أسود اللون معتزا بنفسه تماما وبه لطف من عالم قديم . وكان كل سنتين

يزور أوروبا ليشهد مؤتمرا فلسفيا ، وقد مات في المنفى كان أكثر حظا من شخصية د. ماجيوت التي رسمتها ! من كان يعلم الغيب ؟ في تلك الفترة شهدت المراسم والطقوس الدينية للفودو الديانة التي تقوم على السحر والخرافة ، والتي وصفتها في روايتي ، آنذاك كانت حرية السفر لجميع أجزاء البلاد متوافرة ، قد زرت مناطق عديدة دون حاجة للانتظار ساعات في قسم البوليس لتحصل على إذن بمغادرة العاصمة كما حدث بعد ذلك .

ألهب المقال حماسي . فسافرت لهايتي لآخر مرة سنة ١٩٦٣ ، وكانت تلك السنة أكثر السنوات حرجا وأقساها في حكم بابادوك ، فهناك مجموعة من القذائيين تحارب في الشمال (قابلت ما بقي منهم حيا بعد عام مغيبين في مصحة عقلية في سانت دومينجو) ، وكانوا هم سبب انتشار الثكنات العسكرية حول العاصمة ممثلة بميليشيا ممزقة الثياب ، وكان من المستحيل أن تخرج أو تدخل فندقك دون أن تفتش مرتين بحثا عن السلاح . وبينما بقي بابادوك في عيون الأمريكيين حصنا ضد الشيوعية في الكاريبي ، فقد أظهر قوته باثارة الخلاف مع الغرب . لقد قتل باربوت مؤسس جماعة التنتن بوحشية في ضاحية من ضواحي العاصمة وعلق صورا تبين بقايا جثته على حوائط أقسام البوليس ، لأنه اتهمه بالاتصال برجال البحرية الأمريكيين الذين كانوا يحرسون السفارة الأمريكية في العاصمة ويقدمون المساعدة العسكرية للبلاد ، فقد اختطف التنتن ابن ضابط أمريكي ، وأنقذ في اللحظة الأخيرة وهو يجر إلى القصر ، على يد ابن رئيس الجمهورية الذي كان معه في المدرسة الثانوية نفسها . بعد تلك الحادثة سحبت قوات البحرية وغادر السفير الأمريكي البلاد وطرد السفير البريطاني وحرم « ديفوليه » - رئيس الجمهورية - من الكنيسة . وامتلات سفارات دول أمريكا اللاتينية باللاجئين ومن بينهم معظم الضباط الذين تخطوا رتبة الميجور ، وتتبع التنتن اللاجئين داخل سفارة سان دومينجو مما اضطر رئيس سانت دومينجو لتحريك دباباته على الحدود التي لا تبعد أكثر من مسيرة يوم عن العاصمة بورت اوبرنس . حين وصلت ذلك الصيف كانت العاصمة

مدينة قاتمة ، ورغم أن حظر التجول مرفوع فلا أحد يجرؤ على الخروج بعد حلول الظلام . لم أنزل في فندق الرانشو هذه المرة لكنى ذهبت يوما لزيارته ، لم يكن هناك نزلاء وحمام السباحة كان فارغا في الفندق الذى كنت أنزل فيه - أولفسن - وسميته في روايتى تريانون ، كان هناك ثلاثة من النزلاء غيرى ، مدير كازينو ايطالى ، وممثل أمريكى عجوز وزوجته ، ثنائى لطيف ، لا أنكر أن مستر ومسز سميث في روايتى قد حملا بعض الشبه منهما ، كان الممثل قادما ليعلم الفنانين في هايتى استخدام الطباعة على السلك سكرين كى يتمكنوا من بيع مستنسخات من رسوماتهم في أمريكا .. ويحسنوا أوضاعهم المالية . وقد شجعه على القدوم قنصل هايتى في نيويورك والذي وعده بأن يرسل وراءه كل المواد الضرورية المطلوبة ، ومزت الأسابيع ولم يصل شيء ، ولم يبد أحد في الحكومة اهتمامه بالمشروع .

ذات ليلة . تحدى ثلاثتنا الظلام وخرجنا لزيارة بيت الدعارة الذى وصفته في روايتى ، لم يكن هناك زبائن عدا إثنين من جماعة التنتن . بدأ مستر سميث يسحب الفتيات اللواتى كن يرقصن بتشكيلات بدیعة ، وتجمعوا حول كرسيه كفتيات مدراس صغيرات منفعلات ، بينما كان التنتن يحدقان من وراء النظارات السوداء في هذا المشهد البريء والسعادة التى لا يشوبها خوف ، دون فهم .

كل يوم كان يحضر إلى الفندق شخص يسمى « بيير الصغير » ليتناول مشروبا ، وذات مرة جاء معه عمدة العاصمة الذى صحبنى في جولة ليرينى مبانى المدينة الجديدة « ديقولييه فيل » على إسم رئيس الجمهورية ولم يكن فيها مبنى أكتمل بناؤه غير المسرح . أدركت يومها أن عمل بيير الصغير إضافة إلى تلبية طلباتى هو كتابة التقارير عن السبب الذى جئت هايتى لأجله .

بعد أسابيع من مغادرتى أجبرت الحكومة جميع أطفال المدارس أن يشهدوا إعدام إثنين من الفدائيين في مقبرة المدينة ، وقد تكرر عرض هذا المشهد في التلفزيون المحلى مدة أسبوع .

كل ما أردته آنذاك أن أخرج من هذه المدينة التى تشبه الكابوس

الخانق ، ولكن الحصول على ترخيص لزيارة أى مكان خارج العاصمة لم يكن أمرا سهلا ، وحتى مغادرة القطر كانت تحتاج إلى تأشيرة خروج إضافية .

أخيرا ، قابلت وزير الخارجية نفسه ، وكان على وشك السفر إلى نيويورك لحضور اجتماع الجمعية العمومية للأمم المتحدة . وليقدم احتجاجا بأن أسلحة أمريكية وجدت مع الفدائيين - وهو إدعاء ليس له ما يبرره حيث أن الجيش الهايتى مسلح بأسلحة أمريكية - رفض وزير الخارجية السماح لى بالتوجه شمالا بحجة الحفاظ على سلامتى الشخصية ، وأعطى موافقته على مضض لزيارتى إلى بلدة أوكايبه فى الجنوب حيث أردت أن أقضى ليلة مع المشرين الكنديين ، وحتى بعد موافقته هذه كان على أن أقضى ساعات منتظرا فى قسم البوليس جالسا تحت الصور المعلقة لبقايا جثة باريوت . كان قسم البوليس يواجه قصر رئيس الجمهورية ، ولا يستطيع متطفل دخول القصر ، بل من الخطر أن يسير المرء تحت نواقذه ، وحتى سائقو السيارات يتجنبون هذه الناحية من الميدان . ربما كنت سأبدوا أقل ثقة فى نفسى وأنا جالس على الدكة هناك أنفحص المكان لو قرأت ما كتبوه عنى ذلك اليوم ، وعرفته أخيرا ، فقد كتبوا « عرفنا فى شخصه جاسوسا لقوى إمبريالية مجهولة » . كانت المدينة فى الجنوب لا تبعد أكثر من ١٨٠ كم ، لكن رحلتنا إستغرقت - كما حذرولى - ثمانى ساعات ، لأن الطريق لم يعد له وجود بعد نصف ساعة خارج العاصمة . لم يكن لدى وهم لتخدعنى المودة التى يبديها سائقى ، فهو مخبر ، وصوّر لى ذهنى أنه من السهل إفتعال حادث مقنع على ذلك الطريق غير المسفلت ، أو حتى إرتكاب جريمة أكثر إقناعا وإلقاء اللوم على الفدائيين ، وإن يهتم أحد بالفضيحة لمقتل كاتب ، فليست هناك سياحة يخافون عليها .

لابد أن الخوف الذى ركبنى خلال هذه الأسابيع قد تغلغل بعمق فى لا وعى ، كانت هايتى آنذاك الحلم المزعج فى عناوين الصحف ، وحين كنت أنتظر طائرتى فى المطار ، لم أكن سعيدا حين امتدت يد سرا لتضع فى يدى رسالة إلى شخص كان مرشحا سابقا للرئاسة ومنفى فى سانت دومينجو .

وانتابنتى الوساسوس .. هل يخذعنى عميل فى آخر لحظة ؟ ولا عجب أنه لسنوات قادمة ظلت عاصمة هايتى تظهر فى أحلامى ، رغبت فى العودة إلى هناك متنكرا لكنى خشيت أن أكتشف ، لو عرفت رأى الرئيس فى شخصى لبدت مخاوى أكثر عقلانية ، فقد ضربته روايتى « الممثلون الهزليون » ضربة موجعة ، وأنا سعيد أن أقول ذلك ، ولقد هاجمها بنفسه فى مقابلة أجرتها معه صحيفة لوماتان ، وهو النقد الوحيد لرواية من رواياتى الذى تلقيته من رئيس دولة .

أمن الممكن أنى أزعجت أحلامه كما أزعج أحلامى ؟ بعد خمس سنوات من زيارتى ، أصدرت وزارة الخارجية هناك كراسة على ورق مصقول ، مفصلة ومصورة ، تتناول قضيتى !

أجروا بحثا كثيرة لأعدادها وتزويدها بمقتطفات كثيرة من المقدمات التى كتبتها للطبعات الفرنسية لكتبى ، ونشرت بالانجليزية والفرنسية وكان عنوانها « سقوط قناع جراهام جرين أخيرا » . وكانت الكراسة تحتوى على سرد لحياتى متحيزا ضدى ، وقد وزع هذا العمل المكلف على الصحافة ، من خلال السفارات الهايتية فى أوروبا ، لكن توقف التوزيع فوراً حين وجد الرئيس أن النتيجة جاءت على غير ما يهوى .

مما جاء فى وصفى فى هذه الكراسة « أفك - غبى ، عميل فى خدمة الشرطة - غير متوازن ، سادى - منحرف - جاهل تماما - كاذب حتى أعماق نفسه ، عار على عظمة ونبالة إنجلترا ، جاسوس ، مدمن مخدرات ، مُعذّب للأخريين » اللقب الأخير حينى تماما .

أنا فخور بأن لى أصدقاء من هايتى ، حاربوا بشجاعة فى الجبال ضد ديفوليبه ، إن الكاتب ليس بلا حول ولا قوة كما يشعر عادة ، إن القلم ، مثله مثل الرصاصة الفضية ، من الممكن أن يتسبب فى إسالة الدماء .

* * *

السرد طوال الوقت يعمل عمله خارج الوعي . لكن في القصة القصيرة أعرف كل شيء قبل بدء الكتابة أو هكذا أظن .

ذكرنى ذلك بنوع المقالات التى كنا نتعلم كتابتها في المدرسة - عليك أولا أن تضع تخطيطا يبين تطور الموضوع وتسير على هده ، حين تركت المدرسة ورأى بأمان ، بدأت أكتب المقالات ثانية ، وتعلمت أن أثق في تهويمات العقل ، فإذا تركت العنان للجواد فسيصل الحصان إلى البيت ، والشكل ينمو بنفسه داخل المقال وعليك ألا تفكر به مقدما . في حالة القصة القصيرة ضللت بالطريقة نفسها ، وحين وعيت ذلك ، بدأت أكتب القصة القصيرة وليس في ذهنى سوى شكلها الخارجى ، لا تصل المفاجآت فيها كما في الرواية بالطبع لكنها موجودة على كل حال ، تظهر في تشكيل غير متوقع لجملته ، في رد فعل مفاجيء ، في ومضة خافية في الحوار ، تأتي كمشروب بارد لفم ظامىء .

والآن أدرك ، أنى منذ البداية كنت كاتباً للقصة القصيرة ، وليس الشذرات كما أسميتها في مقدمتى للمجلد الأول من قصصى القصيرة ، كتبت أول قصة قصيرة سنة ١٩٢٩ في السنة التى نشرت فيها روايتى الأولى ، ومن الغريب أنى خلال فترة كتابة روايتى الثانية والثالثة ، كتبت قصة « أنا أتجسس » التى كان فيها كل المميزات التى تفتقدها رواياتى الأولى بشدة ، البساطة في اللغة ، الإحساس بالحياة كما تعاش فعلا ، لم تكن قصة عظيمة . ولكن التساؤل إذا كنت أستطيع كتابة قصة قصيرة بذلك الشكل الجذاب وتلك الواقعية . فلماذا عكفت على تدمير ذاتى بكتابة روايات خيالية تماما مثل إسم العمل أو إشاعة عند هبوط الليل ؟ ومع أنى راض عن كثير من هذه القصص القصيرة (أعتقد أنى لم أكتب أفضل من « المدمرون » و « فرصة لمستر ليفر » ، و « تحت الحديقة » و « الرقص في أغسطس ») فإنى بقيت في هذا الحقل روائيا يحدث أن يكتب القصة القصيرة ، بالضبط كما يوجد كتاب قصة قصيرة يحدث أن يكتبوا روايات . (يحضرنى جى دى موباسان وفيككتور برتشت) .. والفرق بين الإثنين ليس ظاهريا ولا حتى فنيا ، كفنان يرسم بالزيت وآخر بالألوان المائية ، وهو بالتأكيد ليس فرقا بالقيمة ، إنه فرق بين طريقتين مختلفتين في الحياة .

في الرواية التى تحتاج سنوات لكتابتها ، يكون المؤلف عند إنتهائه

منها ليس هو الرجل نفسه الذى كان عند بدايتها ، ليست شخصياته فقط هى التى تطورت ، بل هو أيضا قد تطور معها ، وهذا تقريبا الذى يعطى الإحساس بنقص العمل ، فالرواية لا تعطى مؤلفها الإحساس بالكمال الذى تجده مثلا فى قصة تشيخوف القصيرة « السيدة والكلب » ، والوعى بذلك النقص هو الذى يجعل من مراجعة الرواية عملا لا ينتهى ، فالمؤلف يحاول عبثا أن يكيف القصة تبعا لشخصيته التى تغيرت ، كما لو أنها شيء بدأه فى طفولته وعليه إكماله فى شيخوخته ، وتمر به لحظات من اليأس حين يبدأ مثلا مراجعته الخامسة للفصل الأول ، ويرى أن عليه إدخال الكثير من التصويبات ، كيف يمكنه الا يشعر بين هذا العمل لن ينتهى أبدا ؟ وأنه لن يكون الرجل نفسه الذى كتب هذا من شهور وشهور ، فلا عجب إذن أنه تحت مثل هذه الظروف يكون الروائى دائما زوجا سيئا أو عاشقا قلقا غير مستقر ، هناك شيء ما فى شخصيته كالممثل الذى يستمر فى القيام بدور عطيل حتى بعد أن يترك المسرح ، لكن المؤلف ممثل عاش ادوارا كثيرة متباعدة على مدار فترات طويلة متباعدة أيضا ، هو شخص تلبسته شخصياته ، ذات مرة أخبرنى سائق تاكسى فى منطقة الكاريبي عن جثة شخص قذفها البحر ، قال « لم يكن فى مقدورك القول أنها جثة رجل بسبب سمك اللامبريز الذى تعلق بها » . صورة مرعبة ولكنها تلائم صورة الروائى تماما . وهكذا فإن القصة القصيرة بالنسبة للروائى ، غالبا ما تكون شكلا آخر من الهروب ، هروب من معاشرته فترة طويلة لشخصية روائية تحمل فى النهاية غيرته وحقارته وبخله وخيائنه وحيله الفكرية . قد يشكو القارئ من كآبة الشخصية ، لكنه محظوظ فهو لن يعاشرها إلا فترة قراءته للرواية ، أحيانا عند قراءتك لخطابات فلوير يمكنك أن تراه وقد أصبح مدام بوفارى ، يطور فى نفسه عاطفتها المدمرة .

إذن ، يمكن اعتبار قصصى القصيرة مجموعة هروب من عالمى الروائى ، وأستطيع إعادة قراءتها بسهولة أكثر من رواياتى لأنها لاتجر وراءها حياة كاملة ، أنظر إليها بسرعة كما أنظر إلى اليوم من الصور التى التقطت فى إجازات مختلفة ، - بالطبع تحوى ذكريات - وأحيانا ذكريات تعيسة ، لكن إذا قلبت الصفحة فإن الصورة التالية لا علاقة لها بالصورة السابقة .

مجموعة قصصية واحدة هي « هل تسمحين لنا باستعارة زوجك ؟ » سنة ١٩٦٦ كتبتها بحالة مزاجية واحدة ، حالة مرح مشوب بحزن ، أثناء إنشائي منزلا من غرفتين على ميناء انتيب ، وأتناول طعامي في مطعم فيلكس الصغير ، بعض قصصها إنبثق من حوارات على موائد أخرى وحتى من جمل غير مفهومة أحيانا ، وقصة إستلهمتها من حلم رأيته آنذاك ، أسميتها « حس بالواقع » عن مريض بالجذام رجع إلى طبيبه يلتمس علاجاً خاصاً فوجد العيادة وقد تحولت إلى كازينو قمار لإسعاد جنرال عجوز ، مازلت أتخيل - كما رأيت في الحلم الموسيقيين الذين استأجرهم يتقافزون من سيارات الأجرة بالآلهم الثقيلة ، هل كنت أنا المجذوم ؟ لا أعتقد . ربما الطبيب العجوز المستمتع بالتحول الذي حدث لمنزله وهو يرى وجه مريضه يحدق فيه عبر الحديقة .

من المؤكد أن الأحلام كان لها أهمية كبيرة في كتاباتي ، ربما لأنى عولجت نفسياً وأنا صبي ، فأصل روايتي « ميدان المعركة » كان حلماً ، وكذلك « القنصل الفخري » بدأت كحلم ، وأحيانا يصل التطابق بين المؤلف وشخصيته الروائية إلى مدى بعيد ، حتى أن المؤلف من الممكن أن يحلم حلم الشخصية الروائية لا حلمه ، حدث هذا لي أثناء كتابة رواية « حالة ميثوس منها » ، فرموز وذكريات وتداعيات ذلك الحلم كانت بوضوح تخص شخصيتي الروائية كويرى ، وفي الصباح التالي وضعت ما حدث في الحلم دون تغيير في الرواية حيث سد ثغرة في السرد كنت لعدة أيام غير قادر على عبورها . وأتخيل أن كل المؤلفين قد وجدوا المساعدة نفسها من اللاوعى - فاللاوعى يشترك في كل عملنا ، إنه الجوكر الذي نحفظ به في القبر لمساعدتنا حين تواجهنا عقبة صعبة التجاوز ، اقرأ ما كتبتة خلال اليوم قبل النوم وأترك الجوكر يقوم بالعمل ، وحين إستيقظ تكون العقبة قد أزيلت تقريبا وبدا الحل واضحاً ، من المؤكد أنه ورد في حلم لا أذكره .

وأنا أنظر إلى قصصى القصيرة الآن ، والتي تمتد بطول فترة زمنية تبدأ سنة ١٩٢٩ حتى السبعينات من هذا القرن ، تصدمنى حقيقة غريبة ، أن المرح دخل إلى قصصى متأخراً جداً وعلى شكل غير متوقع تماماً . القصص الثلاث القصيرة التى كتبتها خلال الحرب كانت قصصاً مرحة ، فقد كانت هروباً من الغارات الجوية والموت الليلي ، وهكذا كانت

القصص التي تشتمل عليها مجموعة « هل تسمحين لنا باستعارة زوجك؟ »، وكلها كتبت في الفترة التي تشكل العقد الأخير من حياتي وقد كانت هروبا في المرح من فكرة الموت ، هذه المرة من موت مؤكد . الكتابة نوع من العلاج النفسى . وأحيانا أعجب من أولئك الذين لا يبدعون أدبا أو موسيقى أو رسما ، كيف يمكنهم أن يهربوا من الجنون والكتابة والخوف والذعر المتأصل في الوضع الإنسانى .

* * *

٢

إذا كانت رواية « حالة ميئوس منها » سنة ١٩٦١ تقدم الجانب الكئيب لكاتب يعانى من دورات من حالات الهوس ثم الاكتئاب ، فإن رواية « رحلات مع عمى » التي جاءت بعد ثمانى سنوات ١٩٦٩ ، تقدم فقط حالة الهوس في أعلى درجاته أو أعمقها ، نبتت الرواية بشكل طبيعى من المجموعة القصصية : هل تسمحين لنا باستعارة زوجك ؟ في الواقع كنت قد دونت عددا من الأفكار المحتملة لقصص تضاف الى تلك المجموعة ، وهى أفكار لم أستخدمها ، ووجدت طريقها الآن كحكايات طريفة يرويها هنرى بولنج عن عمى ، فتحت له مفكرتى ليعاين ويختار ، فتركها تقريبا خالية .

حين أنهيت رواية « حالة ميئوس منها » كان لدى يقين مغلف بالإكتئاب بأنها ستكون آخر رواية أكتبها ، ربما جاءنى الإكتئاب من معاشتى لشخصياتها عدة سنوات ، لكن ما الذى خلصنى من الإكتئاب ورمانى في أحضان حالة تشبه الجنون لأكتب خلالها مجموعتى القصصية وأبدأ في كتابة رحلات مع عمى ؟ افترض أن ذلك حدث نتيجة لقرار صعب في حياتى الخاصة . وهو ترك انجلترا للإقامة بشكل نهائى ودائم في فرنسا سنة ١٩٦٦ ، حرقت العديد من القوارب وعلى ضوء لهبها بدأت أكتب رواية جديدة .

« رحلات مع عمى » هى الرواية الوحيدة التى كتبتها للمتعة التى

فيها - مجرد المتعة - رغم أن موضوعها هو الموت والهرم ، موضوع مناسب للتناول والمرء في الخامسة والستين من عمره ، وقد وصف ناقد سويسرى شهير الرواية بأنها « ضحك في ظلال المشائق » ، وقد جربت الكثير من الضحك في كتابتها ، والقليل من الظلال . حين بدأت الكتابة بمشهد حرق والدته هنرى بولنج ولقائه مع عمته أوجستا ، لم أعتقد لحظة أنى سأستمر في القصة أكثر من أيام قليلة ، فأنا لم أكن أعرف حتى طبيعة المشهد التالى ، لم أكن أعرف بعد أن أوجستا ستكون هى والدته هنرى الحقيقية ، في كل يوم حين أجلس أمام ورقة الفولسكاب البيضاء (هجرت الورق المسطر كرمز لحريتي الجديدة ، فالأسطر تبدو كقضبان نافذة السجن) ، لا يكون في ذهنى فكرة عما سيحدث لهنرى وأوجستا بعد قليل ، كنت كالفارس الذى يلقي بالعنان ، ويترك الحصان يحدد الاتجاه ، أو كالحالم الذى يظهر حلمه للعيان ولا يملك القدرة على تغيير اتجاهه ، وشعرت إضافة لكل ذلك أنى قطعت صلتى بالماضى خيرا أو شرا ، حتى أنى أعتبر نفسى غير مسئول عن بعض ما جاء في الرواية من طرائف غير مفهومة لأحد . ولم لا ؟ فأنا لا أتوقع أن يكون لى قراء ، فلأضع أشياء غير معقولة سردا ومعنى .

وجد بعض النقاد في الكتاب نوعا من الخلاصة لتجربتى الأدبية . لكن ما سبب لى بعض القلق ، أنى حين أعدت قراءة الكتاب ، تساءلت هل التنبؤات التى جاءت به هى ما يخبؤه المستقبل لى ؟ فإن القارب الذى حمل هنرى بولنج من بوينس آيرس إلى أسنسيون ، توقف لمدة نصف ساعة أثناء الليل في ميناء نهري صغير في بلدة كورنيتس في شمال الأرجنتين ، ولم يكن لدى أدنى فكرة أنى ساهبط هناك من طائرة بعد سنوات قليلة بحثا عن المكان المناسب لأحداث رواية « القنصل الفخرى » ، كذلك التهريب عن طريق بنما - أسنسيون - الأرجنتين ، لعب دورا صغيرا في روايتى ، ولم يكن في ذهنى أنى بعد عشر سنوات تقريبا سأنجذب إلى ذلك البلد الفقير الجميل الغريب - بنما - ذات الحدود مع خمس دول .

سافرت إلى باراجواى بغريزة الكاتب ، أدركت أن رحلات هنرى مع عمته ستصل إلى ما يشبه الذروة في مكان بعيد وأقل ألفه من الأماكن التى أعرفها ، لم أكن أعرف شيئا عن المدينة ، لكنى اعتقدت أنى سأجد

في « إسسنسيون » خليطامن الأشياء الغريبة والخطرة والفيكتورية - نسبة إلى العصر الفيكتوري - مما يلقي قبولا عند العمة أوجستا . وكم كنت على صواب . فقد كان الطراز المعماري الفيكتوري باديا في الكنائس والمباني ، أما بالنسبة للغريب والخطر فقد جئت إلى بلد يحكم بيد « الجنرال ستروسنر » القاسية ، حامى حمى المجرمين النازيين الفارين .

أول صديق إتخذته في هذه المدينة . كان رجلا مثقفا ولطيفا يتكلم الإنجليزية بطلاقة ، وهو جاهز تماما لاصطحابي إلى نزهة أو حفلة ، وبطريقة غير متعمدة أظهر لي أنه يحمل « كارنيه » شرطة ، وفسر لي الأمر بسرعة ، فهو أحيانا يحاضر في كلية الشرطة ، تظاهرت بتصديقه لأنه في النهاية مخصص لحماية .

سألت يوما لويس قرناندو السائق الذي استأجرته ليأخذني في رحلة إلى الريف « هل هناك حوادث كثيرة للسيارات هنا ؟ » فقد عجبت من كثرة أضرحة الموتى الصغيرة المنتشرة على جانبي الطريق ، كما أن ما قبلناه من الخيالة يفوق بكثير ما قبلناه من عربات . أجاب بغموض « الحياة عند الباراجويين رخيصة .. فإذا ذهب المرء من المدينة إلى الريف فالأفضل له أن ينزوى هادئا في ركن . فهناك دائما أولئك الذين يسعون للشجار بسكين أو مسدس ، كما يجب ألا تبدو متخاذلا تماما فتلك إهانة ، ولو تحدثت بالأسبانية فقد يظنون أنك تحتقر لغتهم ، وإذا تحدثت بلغتهم ربما ظنوا أنك تعتبرهم جهلة » .

كنت محظوظا أن أكون في إسسنسيون - مثل بطل هنري بولنج - أثناء الإحتفال بالعيد القومي الذي أقامه الحزب الحاكم ، في بلد تعتبر فيه الشيوعية جريمة . وتراقب فيه تليفونات اليسوعيين ، وغير مسموح بانتقاد الولايات المتحدة في الصحف ، ودهشت أن أرى كل الناس قد أصبحوا حمرا ، رايات حمراء ، جونلات حمراء ، أوشحة وزهور ومناديل حمراء ، ربطات عنق حمراء ، مسكين بطل هنري بولنج كان غيبا حين استخدم منديلا أحمر ليمخط ، فقد كانت تلك إهانة مرعبة للحزب ولرئيس الدولة ، كنت أعقل منه ، لكنهم حذروني وأبلغوني ما يجب علي عمله بدقة . وبرغم ذلك فقد لاحظت بعد أيام قليلة أني قد إنتهكت القواعد بشكل ما . فقد توقف الرجل التابع للمكتب الأجنيب عن المجيء

لفندقى ، وقد اعتاد أن يأتى كل ليلة ليتناول الشراب ، كذلك الرحلة إلى شاكو التى وعدونى بها لم تتحقق قط ، لكن صديقى الذى يحمل « كارنيه » الشرطة ظل وفيًا ولطيفًا إلى آخر لحظة .

افترض أن ما أزعج الجنرال هو مايلى : طلب بعض تلاميذ المدرسة الثانوية المحلية زيارتى ، كانوا فى حوالى السادسة عشرة من أعمارهم ، زودنى الفندق بترجمة تشم عن بعد أنها مخبر بوليس ، إنزعجت حين لاحظت أنها تود السيطرة على ما يقال ، ووجدت أن خدماتها ليست ضرورية ، فقد استطعت فهم أسئلة التلاميذ ، ومعظمهم فهم إجابأتى . تحدثت عن فيدل كاسترو الذى لا يعرف الطلاب عنه شيئًا - فكوبا موضوع محظور فى الصحف - وانتقدت المنشور البابوى الخاص بتنظيم النسل والذى نشر حديثًا .

أعتقد أن الجنرال لم يهتم برأى بخصوص تنظيم النسل ، لكنى أشك أنه لم يهتم بالصورة المحببة التى رسمتها لكاسترو .

بعد عشر سنوات فى واشنطن ، وفى حفل أقيم سنة ١٩٧٧ للاحتفال بتوقيع معاهدة بنما ، كنت أقف بعيدًا عدة أقدام عن الجنرال ستروسنر ، وقدمنى رفيقى إلى شخص مربنا قائلًا : هذا هو سنيور فلان أحد وزراء الجنرال ستروسنر ، ثم حين سمع الوزير اسمى سحب يده بسرعة وتلفظ بـ « لقد مررت يومًا بباراجوى » قبل أن يستدير على نحو مفاجئ على كعبيه وينضم إلى الجنرال ، شعرت ببعض الفخر ، كما شعرت حين هاجمنى بابادوك بشدة ، إن الكاتب الحق يمكنه أن يزعج الديكتاتور المتعذر الإطاحة به ، وأسفت لتلك البلاد الحزينة والحببية والتى لن أعود إليها أبدا مادام هؤلاء الرجال أحياء .

* * *

٣

أصل فكرة روايتى التالية « القنصل الفخرى » والتى كتبتها بين ١٩٧٠ - ١٩٧٣ ، كان يقبع فى كهوف لاوعى ، حلمت مرة بسفير أمريكى قابلته فى بار يعيش النساء ويلعب التنس جيدا ، ولم يكن فى

حلمى إختطاف ولا فدايين أو خطأ فى الهوية ، لا شىء يرتبط بالقنصل
الفخرى ، سوى أن الحلم استقر فى ذهنى اشهر ، أثناء هذه الأشهر
برزت شخصيات فورتنم ود. يلار وأزاحت شخصية السفير غير المهم
لحلمى .. وواتتنى فكرة الرواية ، وبقي على أن أكتشف موقع الحدث .
لا أعرف شيئاً عن أوجواى ، كما أن منظمة التوباماروس كانت دقيقة
بحيث لا تقع فى خطأ خطف قنصل فخرى غير مهم بدلا من السفير
"لأمريكى ، أما باراجواى فكانت قضية أخرى ، فتحت حكم ستروسنر
الرهييب ، لم تستطع منظمة فدائية أن تنمو . بدا لى أنه من المعقول أن
تقع مجموعة فدائية صغيرة تعمل عبر الحدود من الأرجنتين فى الخطأ
الذى أحاطه لروايتى .

كنت محقا بشأن التوباماروس فقد نجحوا فى الوقت الذى أنهيت فيه
روايتى من خطف السفير البريطانى فى مونتفيدو ، وحين كتب السفير بعد
ذلك قصة اختطافه وجدت فيها تشابها طريفا مع روايتى ، حتى أنه
- كما يعتقد - كان يوجد أحد القساوسة بين المختطفين .

إختيارى لموقع الأحداث كان سهلا ، فلسبب ما فإن بلدة كورينتس
عششت بمخيلتى مثل أول حقنة مخدر . وهناك مأثور فى تلك المدينة
الصغيرة الفخورة والتى تأسست قبل بوينس إيرس عن طريق غزاة
الشمال ، يقول ان أى شخص يراها مرة لا بد أن يعود إليها . كنت قد
رأيتها فى سفينتى التى كانت متجهة إلى أسنسيون ووقفت لمدة نصف
ساعة فقط فى الميناء . كانت الأضواء قليلة وحارس يقف أمام مخزن ،
وحديقة عامة صغيرة ، وشىء ما يشبه معبدا تقليديا ، ثم المد البطيء
للنهر العظيم - هذا كل ما رأيته من المدينة .. وبنيت عليه كل توقعاتى .

حين توقفت فى بوينس آيرس متجها شمالا ، واجهتنى مشكلة عويصة
فروايتى تحتاج لبیت دعارة حيث سيجد القنصل الفخرى هناك الفتاة
التي سيتزوجها ، وحين سألت أخبرونى بأنه لم يعد هناك بيوت دعارة
رسمية فى الأرجنتين ، بعض البيوت السرية وفى العاصمة فقط . معنى
ذلك أن نوع المكان الذى أريده لم يعد له وجود . كان هناك شخص
صديق لأحد أصدقائى ، لا بد أنه يعرف بوجود مثل هذا المكان من
عدمه . من مظهر الرجل . شعرت بثقة أنه متخصص فى الأمور
الجنسية ، « وقد إستعرت ملامحه لأحدى شخصياتى الثانوية فى

الرواية « وجهه بلون القرميد الأحمر كصخور اللترات . يشبه أرضا اجتثت أشجارها من غابة . وأنفه يغوص في وجهه كجياذ الغزو » ذلك هو كل ما شارك فيه في روايتي (أخبرني أنه يوجد بيت دعارة يقع على حدود أورجواى بمسافة تبعد عن مدينة كورنيتس بأربعمائة كيلو متر ومع ذلك تبين أن هذه المشكلة أقل المشاكل صعوبة وسرعان ما حلت . فقد نشأت مشكلة أخطر بكثير في أول صباح لى في كورنيتس (كانت مقاطعة مستقلة بحامية عسكرية خاصة وقانون خاص بها) . كنت مستلقيا على السرير أنصفح الجريدة المحلية « التيورال » ، وفى صفحة الأنباء الرئيسية قرأت ما يشبه تقريبا القصة التى أتيت لهذا البلد لأكتبها . فقد اختطف قنصل بارجواى من مدينة قرب كورنيتس خطأ على أنه سفير بارجواى ، وطلب المختطفون إطلاق سراح عدد من السجناء السياسيين ، وسلم الطلب إلى الجنرال ستروسنر الذى كان فى إجازة لصيد السمك فى جنوب الأرجنتين .

جلست أفكر طول النهار كم كانت رحلتى بلا طائل ، كيف يمكن أن أستمّر فى التخطيط لرواية لصيقة بهذه الدرجة للواقع ، وما هى فائدة بقائى فى كورنيتس ؟ بعد أيام قليلة أجاب الجنرال على مطلب المختطفين بقوله أن بإمكانهم أن يفعلوا ما شاءوا بالرجل الذى اختطفوه فهو غير مهمم إلا بصيد السمك ، ومن ثم أطلق سراح القنصل ونسى الموضوع ، شجعنى ذلك على المضى فى قصتى ، لقد كنت على حق فى اختيار باراجوى لعملية اختطاف غير دقيقة .

أمضيت أسبوعين سعيدين وطريفيين فى كورنيتس . ولم يستطع أصدقائى فهم اهتمامى بمدينة رأيتها ذات ليلة ، للحظات من على ظهر سفينة ، وقالوا أن الوقت غير مناسب للسفر إليها ، فمازال جوها حارا ورطبيا ، وليس فيها ما يثير الاهتمام ، وأكدوا لى أنه لم يسبق أن وقع فيها حدث يلفت النظر . وتذكرت بطرافة ما قالوه بعد أيام .

ففى اليوم الثانى لى هناك ، طرد رئيس الأساقفة قسيسا كان يعمل فى منطقة الفقراء من كنيسته ، وأقيم القداس ذلك الأحد على يد قسيس غريب فى كنيسة خالية من الناس . بينما جموع المصلين يقفون خارج الكنيسة يحملون رايات كتب عليها : « أعيدوا لنا قسيسنا » ، فى اليوم التالى وضع حاكم المقاطعة رئيس الأساقفة تحت الاعتقال المنزل ، على

كل حال هناك شيء ما يحدث. في كورينتس .
 تلقيت دعوة في اليوم الرابع لإقامتي . من مدير المطار يدعوني
 للخروج للنزهة معه ، بدأنا السير في الحقول القريبة من المطار ، أراد أن
 يريني المكان الذي توضع فيه أطواف الخشب في النهر لتسير جنوبا في
 رحلة طولها ٢٠٠٠ كم . قال لي : « حين أصل المطار كل يوم أسأل المدير
 العام هل حدثت سرقات ، هل حدثت جرائم ؟ هذا الصباح قال لي :
 لا سرقات ولكن هناك جريمة واحدة » .

في طرف الحقل . أمامنا . كان رجلان من البوليس يحرسان ما يشبه
 طردا بنى اللون ، كانت قطعة من الورق البنى قد فردت فوق الجثة التي
 تبرز قدماها من أحد الطرفين ، أردت أن أصور المشهد الغريب ، ولكن
 الشرطي بحماسه رفع الورقة البنية وتركني أمام جثة لا تثير الإهتمام .
 سرنا في ممر عبر الأشجار إلى الماء ، كان هناك خط من الدماء لم تجف
 الشمس بعد .

قال المدير : جئت إلى هنا في الصباح وقابلت القاتل قلت له لقد كان
 القاتل صديقك فلماذا فعلت ذلك ؟ فأجاب :
 كان أقوى مني ولكنني كنت أحمل سكيناً .
 قلت للمدير : ألم تخف ؟ فأنت غير مسلح .
 إبتسم : لا . لا . هؤلاء ناسي .. وقلت للقاتل يجب أن يعود إلى المطار
 لأبلغ البوليس .. وأختفى في الغابة .

بقيت الحادثة في ذهني ، قاصدا أن أجد لها مكانا في روايتي .
 وتحدثت عنها أخيرا مع صديقي ماريوسولداتي ، الذي نصحني قائلا
 « لا يجب عليك أبدا حين تكتب رواية أن تصف شيئا حدث لك دون أن
 تغيره بشكل ما » .

وضعت كلمات المدير « هؤلاء ناسي » على لسان كولونيل بيزر رئيس
 الشرطة في رواية القنصل الفخري ، ووضعت الجثة على أحد الأطواف في
 الماء ، حيث الجذوع تغطي قليلا وتثقل عند كل خطوة .
 لقد بالغ أصدقائي بالتأكيد في حديثهم عن ضحالة كورينتس ، ففي
 الأسبوع الأول لوجودي هناك كان الاختطاف المجهض ، وطرد
 القسيس ، والجريمة قرب المطار ، وبعد أيام اكتشاف قنبلة صغيرة في
 الكاتدرائية ، وفي اليوم الذي غادرت فيه لاحظت حشدا من الناس

يتجمهر على الرصيف ، سألت السائق عما حدث ، قال : إنهم ينتظرون الضفادع البشرية ؟ فقبل عشر دقائق إنتحرت عائلة بأكملها ، فقد إصطحب رب الأسرة زوجته وأطفاله في سيارته التي أغلقها تماما وإندفع إلى الماء متخطيا الحاجز في أعرق نقطة في النهر .

كانت القنصل الفخرى أصعب رواية أتعب في كتابتها . ومن تجربتي أعرف أنه بعد عدة أشهر من العمل في رواية يشعر المؤلف عادة أن روايته تسير بالدفع الذاتي ، مثل إقلاع الطائرة تسير بسرعة متزايدة على المدرج ثم ترتفع ببطء وتشعر بأن العجلات لم تعد تلمس الأرض . ولكن في القنصل الفخرى لم أشعر إلا في الفصل الأخير أن أصبحت في الجو ، والآن حين أقرأ الكتاب ثانية يأتيني إنطباع أنى كنت أنعس وأنا وراء جهاز القيادة . فالطائرة كانت في الجو منذ الصفحة الأولى حين وقف د. بلر في الليل داخل الميناء الصغير وسط الحواجز والروافع الصفراء ، كما لاحظته منذ سنوات حين حدثت في الظلام للمشاهد نفسه وأنا على ظهر المركب المتجهة إلى أسنسيون ، والمسافرون الذين عرفتهم كمهربين يقولون لى بابتسامة شك ، أن الناس هنا يقولون دائما من رأى كورفيتس مرة فسيعود إليها .

* * *

٤

من ١٩٢٩ وحتى ١٩٧٨ حياة طويلة من العمل ، وقبل أن أفكر بالراحة أو إحالة نفسى على المعاش ، كان هناك عهد قطعت على نفسى . كان طموحى بعد الحرب أن أكتب رواية عن التجسس خالية من العنف التقليدى ، الذى لم يكن - رغم جيمس بوند - ملمحا من ملامح المخابرات البريطانية . أردت أن أقدم المخابرات كطريقة حياة ، دون رومانسية . رجال يذهبون الى مكاتبتهم لينالوا معاشا تقاعديا في النهاية ، خلفيتهم تشبه خلفية أى وظيفة أخرى ، سواء موظف بنك أو مدير أعمال . عمل روتينى غير خطر ، وفى داخل كل شخصية حياتها الخاصة الأكثر أهمية . السنوات التى أمضيته في العمل مع المخابرات في إفريقيا أولا ثم في لندن ، واجهنى خلالها قليل من المليودراما والإثارة . كانت هناك بعض الصراعات الشخصية تحت ظلال الصراع الأكبر ، مثلا حين كنت في سيراليون وقطع عنى رئيسى ، الذى يبعد ألف ميل عنى

في لاجوس ، مخصصاتي لبعض الوقت ، أو حين شاهدت أسفا مقوض الشرطة في فريتاون ، الذى عاش عشرين سنة حياة صعبة . بسبب له جرو غر من فرع م ١٥ إنهاء عصيا .

حين عدت إلى لندن . كانت المسألة مسألة ملفات وملفات ؟ ملفات لا تنتهى . كنت مسئولا في لندن كما أوضحت سابقا عن التجسس المضاد في البرتغال تحت أمرة كيم فيليبى الذى تخلى عن منصبه سنة ١٩٦٣ وفر إلى الاتحاد السوفيتى ، كان يلقب بسخرية بالرجل الثالث ، لا ميلودراما ولا عنف يزعجنا ، ضجر وكسل سببته الحياة المغلقة التى نحياها ، حيث أن طبيعة وظائفنا تضطربنا ، في فرعنا الصغير المكون من خمسة أشخاص ، أن نعيش متقاربين ، لا لقاءات إلا نادرا مع غرباء من خارج الإدارة ، والذين يرغبون في معرفة ما نفعله في هذا المكان المسمى بفرع المكتب الخارجى . الأثر الوحيد الذى خلفته ورأى بعد أن استقلت كان ١٢ نسخة من تقرير جمعته بنفسى بعنوان « من هو ؟ » عن العملاء الألمان في جزر الأزور ، مع مقدمتين عن أسس الإدارة والزراعة في الجزر ، وتقرير أسهم فيه فيليبى عن الاتصالات لاستخدام قواتنا عند الغزو . أمازالت النسخة موجودة في مكان ما في الملفات ؟

لقد تغيرت المخابرات بالطبع كثيرا عن تلك الأيام ، وهكذا في روايتى « العامل الإنسانى » أقمت تصورى على مادة غير محددة بتاريخ . بدأت الرواية قبل عشر سنوات في نشرها ، بعد عمل لمدة سنتين أو ثلاث تخلت عنها بيأس ، إعتقدت إنها ستلحق بغيرها من الروايات غير الكاملة الملقاة في أدراج مكتبى (ثلاث روايات غير كاملة ترقد هناك حتى هذه الأيام) ، تركتها خصبيا بسبب قضية فيليبى ، رغم أن العميل المزدوج في روايتى موريس كاسل لا يحمل شبرا بفيليبى لا في الشخصية ولا في الدافع ، كما أنه لا يشبه أى شخص عرفته ، لكنى كرهت أن تعتبر الرواية مفتاحا لما حدث .

أعرف جيدا من التجربة أنه يمكننى خلق شخصية ثانوية وعابرة مستوحاة من شخص حقيقى ، فالشخص الحقيقى يقف عقبة في طريق الخيال ، من الممكن أن آخذ منه لازمة معينة في الكلام ، سمة بدنية ، لكنى لا أستطيع أن أكتب إلا صفات قليلة قبل أن أدرك أنى لا أعرف ما يكفى عن الشخصية لاستخدامها - حتى لو كان صديقا قديما ، لكن

من الشخصية الخيالية فأنا متأكد أكثر، فأنا أعرف مثلا أن د. بيرسينال في العامل الإنسانى يعجب برسومات بن نكلسون ، وأعرف أن كولونيل ونيترى سيفتح علبة سردين بعد عودته من جنازة زميله . ومرت السنوات ، كتبت خلالها القنصل الفخرى - إنها الرواية المفضلة لدى - وكانت أمامى سنوات من الفراغ ، وكانت رواية « العامل الإنسانى » والتي كانت حتى ذلك الحين دون عنوان ، كانت تتعلق برقيتى كطائر بحرى ميت ، وكان خيالى يبدو ميتا كالطائر ، ومع ذلك كان هناك بعض الأشياء الجيدة فى الـ ٢٠ ألف كلمة التى كتبتها فى الرواية ، خاصة مشهد حفلة الصيد فى البيت الريفى للكولونيل . وكانت ذكرى الرواية تنق على حتى أنى لم أستطع أن أستقر فى عمل آخر . وهكذا على كره ويكثر من الشك أخرجت الرواية ثانية ، قائلا لنفسى : ان قضية فيليبى تنتمى الآن الى الماضى . كذلك كان نفاق حكومتنا فى علاقتها مع جنوب إفريقيا ينق على أن أتناوله ، فمن الواضح أن كم المعارضة التى تتظاهر به دول الغرب لسياسة التمييز العنصرى ، وأحاديث قادتنا الكثيرة عن لا أخلاقيته ، ألا أنهم ببساطة لن يسمحوا أن تخضع جنوب إفريقيا للقوة السوداء والشيوعية ، ولو لم توجد عملية العم ريموس ، لا بددعوها منذ زمن ، إنها نبوءة أكثر منها اختراعا . كتبت الرواية أخيرا ، وتحررت من الكابوس ، وترددت فى نشرها ، وفكرت لفترة طويلة أن أتركها فى الدرج لأولادى كى ينشروها بعد وفاتى ، لم أقتنع قط بكمال رواية كتبتها ، ولكنى كنت غير مقتنع بهذه الرواية بشكل أكثر من المعتاد . لقد خنت الهدف الذى خططت له ، فقد كان فى الرواية عنف (موت ديفيز) ، ود. بيرسفال لم يكن شخصية نموذجية لرجال المخابرات ، لم تكن صورته واقعية بالدرجة التى كنت أنشدها ، وأنقذ الرواية عنوانها ، « العامل الإنسانى » ، وربما نجحت كقصة حب ، حب رجل عجوز متزوج .

أرسلت نسخة من الرواية إلى صديقى كيم فيليبى فى موسكو ، وأثار ردّه اهتمامى ، كان نقده صحيحا - قال : لقد جعلت ظروف كاسل فى موسكو كئيبة جدا . فهو نفسه قد وجد كل شىء حتى « لبيسة » الأحذية قدمت له (وأضاف أيضا أنه كان عميلا أهم بكثير من كاسل فى روايتى) ، وعلق مصيبا بأن د. بيرسفال لابد أن يجند من المخابرات

الأمريكية ، فالشخصية التي عرفها كلانا لم تكن تستطيع أن تسم عمدا أحد الأشخاص ، (حاول هذا الطبيب منعى من الذهاب إلى إفريقيا الغربية بتشخيص أنى مريض بالسكر ، الفحص المتخصص أثبت أن هناك نقصا قليلا في مستوى السكر) .

صديقة أخرى من موسكو - البروفيسورة فالنتينا إيفاشيفا - أشارت إلى أن أيام موقد التدفئة في موسكو قد انتهت فهناك تدفئة مركزية في كل مكان ، وهكذا في طبعة تالية للرواية استبدلت « موقد التدفئة » بشبكة أنابيب التدفئة المركزية . اعترض فيليبي على وصف لآثار شقة كاسل ، لكنى لم أغیره وأبلغت فيليبي أنى اعتمدت في هذا الوصف على كتاب زوجته اليانور « الجاسوس الذى أحببت » .

بعد عشرين سنة تقريبا من افتراضى أن أيامى في عالم الكتابة قد انتهت ، أعود الآن فأفترض الشئ نفسه ، لكن خيال الكاتب مثل جسم الإنسان يحارب ضد كل أسباب الموت .

وهكذا وأنا أتناول غدائى في يوم عيد الميلاد سنة ١٩٧٨ مع ابنتى وأحفادى في سويسرا ، بعد نشر رواية العامل الإنسانى بتسعة أشهر ، طرأت على ذهنى ودون إنذار مسبق فكرة رواية جديدة (د . فيشر في جنيف سنة ١٩٨٠) ، وأنا في سن الخامسة والسبعين مازلت لا يمكننى التنبؤ بمستقبلى ، بالضبط كما جلست يوما على مكتب أمى في بيتنا في بيركها مستيد وبدأت أكتب روايتى الأولى « وصل إلى قمة التل مع آخر ضوء للنهار ... إلخ » .

خاتمة

الآخر

لم أقصد أن يكون هذا الكتاب صورة شخصية لى ، فإنى أترك رسم مثل هذه الصورة إلى أصدقائى وأعدائى . وعلى كل حال فإنى أجد نفسى فعلا ولسنوات طويلة أبحث عن شخص ما يسمى نفسه جراهام جرين . حين اشتريت مجلد القصائد الكاملة لإدوارد توماس منذ أكثر من خمسين عاما ، أسرنتى قصيدة واحدة بعنوان « الآخر » ، لا أدري لماذا فهى لم تكن واحدة من قصائده المميزة . والقصيدة تتحدث عن مسافر يعثر خلال سفره الطويل وإقامته في هذا الفندق وذاك ، على آثار شخص

يشبهه تمام الشبه وقد سبقه على الطريق نفسه الذى يسير فيه ، وتنتهى القصيدة :

هو يمضى : وأنا أتبعه ، لن أعتقه

حتى يستسلم ، وأنداك أستسلم أنا

بعد ربع قرن من قراءتى القصيدة لأول مرة ، وقعت بنفسى على آثار ذلك الآخر الذى يشبهنى . خطابات من غرباء يتذكروننى فى حفل زفاف لم أحضره ، أو فى قداس لم أذهب إليه ، واتصلت بى ذات يوم امرأة من روما ، حتى نشرت صحف فى جنيف وجامايكا صوراً لهذا الآخر على أنه أنا . الآخر يسمى نفسه أيضاً جراهام جرين ، ومن المؤكد أن اسمه جراهام جرين ، فليس هناك حقوق لعدم استخدام الإسم ، ومع ذلك فهناك أسباب تجعلنى أفترض من إحدى جولاته العلنية أنه جون سكسندر ، شخص سيء السمعة وهارب من السجن ، أو حسب رأى البوليس الهندى هو شخص يحمل إسم ميرديث دى فارج ، ربما يكون هو الشخصيتين معا ، فالصورتان اللتان امتلكهما له والمفترض أنهما لى غير واضحتين .

الذى لفت انتباهى إلى وجود هذا الآخر حادثة ابتزاز بسيطة ، فقد اتصل بى هاتفياً بعد ظهر أحد الأيام فى لندن صديقى إليكس كوردا ، سألتنى : هل وقعت فى مشاكل ؟

قلت : أية مشاكل ؟

قال : محرر إحدى المجلات السينمائية فى باريس إتصل بى وكان مستاء جداً لأنه اكتشف أن أحد مستخدمييه يحاول ان يبتزك .
- لكنى لم أكن فى باريس ولم أتعرض لمحاولة ابتزاز .
وأذكر حديثاً دار بينى وبين وكيلتى الأدبية حين كنت فى باريس بعد ذلك ، إذ قالت :

- إذا حاول أحد ابتزازك لا تدفع له .. وأخبرنى ..

- ولماذا يبتزنى شخص ما ؟

- حديث عن صور مع نساء .. لا أعرف .. هناك قصة شائعة هنا ..
فى سنة ١٩٥٥ و ١٩٥٦ كان الآخر نشطاً جداً ، أحداث متفرقة من نشاطه تجمعت لتدور حولى ، والغريب أنها من السهل أن تكون من ماضى الخاص . محرر جريدة موندانيت كتب إلى يذكرنى بلقائنا فى مهرجان كان

السينمائي (الذى لم أحضره قط) ويمدح موهبتى فى لعبة التنس التى لم ألعبها منذ كنت تلميذا فى المدرسة ، وإمرأة كتبت لى من مونتفيدو تقول : « إصطحبتنى مرة لتناول القهوة فى حانوت بلجيكي لبيع الحلوى فى ركن من شارع اكسفورد ، (أمازال موجودا ؟) وقدمتنى إلى فتاة من الشمال كنت غارقا فى حبها ، هل تزوجتها ؟ ثم حضرت حفل زفافي وغادرت بعدها إلى أمريكا الجنوبية » .

بالتأكيد أن لهذا الآخر تأثيرا قويا على النساء ويترك لديهن انطبعا قويا ، فقد اتصلت بى إمرأة فى فندق جراند هوتيل فى روما (كنت قد ذهبت إلى السرير مبكرا بعد طيران طويل من كلكتا) .

قالت : هالو يا جراهام .. فيرونيكا تتكلم ..

– كيف حالك ؟ (وتساءلت فى نفسى من تكون هذه بحق الجحيم) .

– اتصلت بفندق جورج الخامس بباريس وقالوا إنك غادرت إلى

روما .. أعرف إنك دائما تنزل فى الجراند .

– لقد وصلت لتوى ..

وسألتها : ماذا تفعلن .. لأطيل الحوار على أجد مفتاحا لهذا

اللغز .. لقد نسيت الآخر وظننت أنه من المحتمل أن أكون قد عرفت

واحدة باسم فيرونيكا .

قالت : استلقى على السرير اقرأ الأوديسا فى ترجمة جريدة صادرة

عن البنجوين .

– وأنا فى السرير أيضا .. ما رأيك فى تناول الشراب غدا ؟

وأضفت بحذر : أنا أسف لأنى مرتبط فى مواعيد الطعام .

فى المساء التالى ذهبت مع صديق وانتظرت فى البار ، وافق أن يتحدث

معهما إذا تبين أنى لم أكن أعرفها وليست جذابة ، ودخلت البار إمرأة فى

الاربعمينات ترتدى ملابس سهرة طويلة ، وبوجه طويل كوجه حصان

أصيل ، تركتها لصديقى ليتعامل معها ، أخبرنى بعد ذلك أنها أمريكية

وقد قابلت جراهام جرين فى الجزيرة العربية .

أعتقد أنه فى ذلك الصيف أيضا . إحتل الآخر عناوين الصحف .

كنت قد رجعت إلى لندن بعد زيارة لبرايتون إستغرقت عدة أيام ، فوجدت

استفسارا من مجلة « بكتشربوست » بأنهم تسلموا برقية موقعة باسم

جراهام جرين من مقاطعة أسام فى الهند يطلب إرسال مبلغ مائة جنيه

لأنه فقد جواز سفره وفي حالة سوء تفاهم مع الشرطة . وأرسل المحرر شخصا إلى شقتي في « البانى » ليسأل إذا كنت حقا في الهند ، واجابه البواب بحذر بأنه لم يرني منذ عدة أيام فربما أكون هناك ، وأرسلت المجلة مائة جنيه برقيا إلى الهند . ثم بدأت الأنباء تنفجر ووصلت قصص الصحافة الهندية : إدانة جراهام جرين ، الحكم عليه بالسجن سنتين مع الشغل .

وقد رأيت خطابا وحيدا أصيلا بخط هذا الآخر ، ربما كتبه ليقنع البوليس لايقنع المجلة ، قال فيه إنه كان في رحلة لمجلة « بكتشر بوست » ، وانه فقد جواز سفره عند نقل متاعه . ولذا اعتبروه بلا هوية وصنفوه كعميل لدولة أجنبية وقدموه إلى المحاكمة .. إلخ .

إقترحت على المجلة إن ترسلنى لأقابل هذا الآخر في سجن ولاية آسام ، منعنى من الذهاب الرياح الموسمية وبحادثة على التليفون مع مسئول في رئاسة الشرطة في لندن ، الذى حذرني من السفر دون أن أعلمه مقدما وإلا فقد أتعرض للاعتقال عند وصولي حيث أن الآخر قد فر من كفيله ، وليس ذلك فقط بل وسرق آلة كاتبة وساعة يد وبعض الملابس من بعض مزارعى الشاي .

وكتب لى صديق هندي بتفاصيل أكثر « يبدو أنه يسمى نفسه جراهام جرين ، مرة بوجود حرف العلة الأخيرة ومرة بدونه ، يفترض أنه أسترالى المولد (وهذا حدس من لهجته) فهو لا يحمل أوراق هوية ، وكان يتنقل من مقاطعة إلى أخرى يعيش حياة التسكع والتصعلك مدعيا أنه كاتب محترف » .

حين أعتقل ثانية ، إختفى الآخر مدة في أحد السجون الهندية ، ولكن حتى وهو في ذلك العسر ، كانت هناك امرأة تدافع عنه رغم إنها لم تره منذ ١٢ سنة .

كتبت لى من بورنموت تطلب منى مساعدته قائلة « إنه رجل شجاع وملتزم بالمبادئ ، ومع أنه في مكان ممنوع بسبب روحه المغامرة الجواله فإننى أشعر أن التهمة ضده ليس لها أساس » . روح مغامرة فعلا . أحد رجال الدولة في كلكتا كتب « بأن المتهم مطلوب في سلسلة من القضايا في كلكتا وباننا وراشنى ولكنو وميروت وبونا وبومباى ودلهى وأماكن أخرى » .

إن هذا كثير بالنسبة لرجل واحد ، من المؤكد أنه كان كلا من جون سكرن وميرديث دى فارغ .

ولمدة سنتين لم أسمع شيئاً عن الآخر ، ونسيته ، حتى جاء يوم كنت أحجز لرحلة إلى نيويورك في مكتب شركة الخطوط الجوية البريطانية ، سألتني الفتاة بدهشة : هل ستمكث في نيويورك ليلة واحدة فقط ؟ قلت : لا .. لا أعرف كم سأمكث .

– لكن لدينا حجزك من نيويورك إلى لندن في اليوم التالي . هل المسافر الآخر هو الآخر وقد خرج من السجن . شيء واحد مؤكد . أنه عاد ثانية للظهور . في ديسمبر سنة ١٩٥٩ .

كُتبت لي ذلك الشهر وكيلتي الأدبية ماري بيث تخبرني أن فتاة فرنسية جذابة ذهبت لتقديم طلبا لعمل مع رجل أعمال أمريكي يقيم في فندق برنس بيجال ، وفشلت في الحصول على الوظيفة بسبب عدم إتقانها الإختزال ، أثناء خروجها من الفندق إستوففها رجل أمريكي قال لها إن إسمه بيترز أو ما شابه ، وأنه سمع جزءا من حديثها وفهم أنها تبحث عن عمل ، وبالمناسبة فإنه يبحث عن سكرتيرة لشريكه وصديقه جراهام جرين القادم إلى باريس لعمل يستغرق شهرين قبل قيامه بجولة لعدة أشهر في الولايات المتحدة ، وحيث أنه لا يستطيع العمل في الفنادق فهو يستأجر منزلا هنا أو هناك أثناء جولاته .. فهل تحب أن تشغل الوظيفة ؟ كانت الفتاة تعمل في مكتبة في باريس جزئيا ، ووجدت أن العرض جيد . ولتأكد اتصلت بناشرى في باريس الذي أوصلها بوكيلتي الأدبية ، كما اتصلت بفندق برنس وعلمت أنه لا ينزل هناك شخص باسم بيترز . إقترحت ماري عليها أن تذهب إلى الموعد وتحاول جر الرجل للحديث عن نفسه وشريكه ، لكن الفتاة لم تذهب لأنها اقتنعت بأن الرجل عضو بارز في عصابة « الرقيق الأبيض » ، بدا ذلك من حديثه إذ قال لها إنه إذا كانت لها صديقة لطيفة تحب أن تأتي معها لتعمل كمديرة منزل لجراهام جرين فمن الممكن ترتيب ذلك لأنه يبحث عن من يشغل هذه الوظيفة .

كان ذلك آخر تطفل كبير في حياتي من الآخر – البقية كانت أمورا عابرة . مثلا صورة في صحيفة تصدر في جامايكا كتبت تحتها : « الروائي الشهير جراهام جرين يشرب مع مسيوز في نادي جالوين » كان

كل من في الصورة يضحك وكأسه في يده ، كان الآخر بحاجة كحاجبي بومبيدو ، وسيم بسترته البيضاء ، أما مسيوز فكانت امرأة جذابة ، وكانت هذه الصورة لا تتفق مع صورة أخرى نشرت في صحيفة « لاتريبيون دوجنيف » لمسترومسمز جراهام جرين في مطار كوانترن ، كان الرجل يبدو أكبر مني بكثير آنذاك ، يرتدى ملابس سفر وقبعة من التويد ، بينما المرأة التي لم تلتقطها العدسة جيدا كانت تضع على رأسها قبعة نسوية وعلى عينيها نظارة سوداء .

وكتبت الصحيفة في ١٩٦٧/٧/٧ تحت الصورة « شخص بدين وبغليون بين أسنانه ، إنه الكاتب البريطاني جراهام جرين وقد وصل بعد ظهر أمس إلى كوانترن قادما من باريس حيث يعيش الآن ، مؤلف الرجل الثالث بدأ إجازته في جنيف ، حين سألناه هل يكتب كتابا جديدا أجاب بالنفي وبأنه في إجازة حقيقية » .

هل السيدة التي كانت معه هي كلاودين ، وأن كلاودين هي المرأة الأكثر جاذبية التي كانت تشرب في النادي في جامايكا ؟

سمعت عن كلاودين أول مرة سنة ١٩٧٠ حين وصلت رسالة أرسلت لها كمسمز جراهام جرين من شخص في كيب تاون « إتصلت بالنادي أمس وعرفت أنك تزوجت كاتبا معروفا حقا .. أن تكوني زوجة مؤلف فذلك يتفق مع خطك في الحياة .. أنا واثق أنك ستقدمين له مساعدة كبيرة » .

مرت عشرون سنة تقريبا منذ حادثة الإبتزاز في باريس ، بدا أن الآخر قد استقر وهمد .

هو يمضى ، وأتبعه .

لن أعفيه حتى يستسلم .

منذ سنوات في شيلي ، وبعد أن استمتعت بتناول طعام الغداء مع الرئيس الليندي ، خرجت صحيفة يمينية على قرائها بأن شخصا محتالا قد خدع الرئيس .

ارتعشت ، وانتابني شعور غريب ، هل كنت أنا المحتال طوال الوقت ؟ هل كنت الآخر ؟ هل كنت سكندر ؟ أو من المحتمل أنى كنت ميرديث دى فاراج .

إنتهى

هذا الكتاب

جراهام جرين (١٩٠٤ - ١٩٩١) أحد أشهر الروائيين المعاصرين ، كتب حوالي ثلاثين رواية ومجموعة قصصية . وقد عبر في رواياته عن مازق الانسان المنهار في القرن العشرين ، عن الازدواجية في العقل البشري ، عن الجاذبية المغرية للشر والخير معا . وعن تعاسة وقسوة الحياة الاجتماعية لانسان المدينة . وقد دفعه مزاجه القلق وتبرمه وضجره الدائم من رقابة الحياة ، للوقوف بجانب ابطاله المضطهدين ، لذا كانت شخصيات روايته تقف على الحافة الخطرة للأشياء ، ومن هنا أتى اهتمامه بالجواسيس والقتلة والخطاة .

وفي هذا الكتاب يحدثنا جراهام جرين عن رحلته مع الرواية منذ أول عمل كتبه « الرجل الذي بداخل » ١٩٢٩ « وحتى الرواية قبل الأخيرة » د . فيشر من جنيف ١٩٨٠ « وهي رحلة تهم كل عاشق للرواية ، قراءة أو كتابة .